جريمة ميدل تمبل

جوزيف سميث فليتشر



ترجمة نبيل العدلي

جريمة ميدل تمبل

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
نبيل العدلي

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم



جريمة ميدل تمبل

The Middle Temple Murder

جوزيف سميث فليتشر

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٣١ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٩.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

الفصل الأول

القُصاصة الرمادية

اعتاد سبارجو مغادرةَ مقر جريدة «ووتشمان» في الساعة الثانية. تكون الجريدة في ذلك التوقيت قد خرجَت إلى المطبعة. ويكون هو قد انتهى من أداء المهامِّ المنوطة به، بحكم منصبِ مساعدِ رئيس التحرير الذي ترقَّى إليه مؤخرًا، وذلك بعد أن يُسلِّم العمود الصحفي الذي تقع مسئوليتُه عليه، بل إنه كان بمقدوره العودةُ إلى منزله قبل أن تبدأ ماكينات الطباعة في إصدار قرقعتِها. لكنه كان عادةً يُضيع الوقت حتى تحلَّ الساعة الثانية. وفي صباح الثاني والعشرين من يونيو عام ١٩١٢، أطال البقاء عما اعتاد، يتجاذب أطرافَ الحديث مع هاكيت، مسئول الأخبار الخارجية، الذي كان يحكي له عن برقيةٍ وردَت للتو من دوريس. كان كلام هاكيت مثيرًا؛ ولذا مكث سبارجو ليستمعَ إليه ويُناقشه في الأمر. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف عندما تخطَّى عتبة المكتب خارجًا منه، ينفث عن نفسه الأجواءَ التي أمضى فيها منتصفَ ليله. كان هواء شارع فليت عليلًا يكاد مستنشقُه يُحس فيه حلاوةً، وكانت بوادر الفجر القادم تشقُّ أديم السماء على استحياء من خلف كاتدرائية القديس بولس التي لفَّها صمتٌ مهيب.

كان سبارجو يسكن في بلومزبيري غرب ميدان راسل. ويسلك الطريق نفسَه كل ليلة وكل صباح ذَهابًا إلى مكتب جريدة «ووتشمان» وإيابًا منه؛ ساوثهامبتون رو، ومنه إلى كينجزواي، ثم ستراند، حتى شارع فليت. أَلِفَ عدةَ وجوه، لا سيما وجوه رجال الشرطة، واعتاد تبادُل التحية مع العديد من الضباط الذين كان يلتقي بهم في عدة أماكنَ متفرقةٍ في طريق عودته إلى منزله متمهلًا، وهو يُدخن غليونه. وفي صباح ذلك اليوم، وبينما كان على مقربةٍ من زُقاق ميدل تمبل، رأى شرطيًّا يعرفه يُدعى دريسكول، يقف في مدخل الزقاق وينظر حوله. وعلى مسافة من الضابط الأول ظهر آخَرُ يتمشى على مهل. رفع دريسكول

ذراعه مشيرًا، ثم التفتَ فرأى سبارجو. خطا نحوه خطوةً أو اثنتَين. ورأى سبارجو على وجهه ما يَشِي بخَطبٍ ما.

سأل سبارجو: «ما الأمر؟»

رفع دريسكول إبهامه فوق مستوى كتفه يُشير به نحو باب الزقاق المفتوح جزئيًّا. فرأى سبارجو بالداخل رجلًا يرتدي صديريًّا وسُترة على عجَل.

أجاب دريسكول: «إنه — أقصد ذلك الحارس الواقف هناك — يقول إن هناك رجلًا مسجًّى في أحد المداخل في الزقاق، وإنه يظنه ميتًا. بل على الأحرى، يظنه مقتولًا.»

كرَّر سبارجو الكلمة.

ثم سأل وهو يمدُّ رأسه وينظر في فضولٍ إلى ما وراءَ جسد دريسكول الممتلئ: «ولكن ما الذي دفعه لهذا الظن؟ لماذا؟»

أجاب دريسكول: «يقول إنه ملطَّخ بالدماء.» والتفتَ إلى الشرطي القادم، ثم إلى سبارجو من جديدٍ وخاطَبه: «أصُحفيٌّ أنت، يا سيدي؟»

أجاب سبارجو: «نعم.»

قال دريسكول مبتسمًا: «يُستحسَن أن تأتيَ معنا. يوجد ما يمكنك أن تكتب خبرًا عنه في الجريدة. أو على الأقل يُحتمل أن يوجد.» لم يُجِب سبارجو. وظل يمد بصرَه في الزقاق لعله يفطن إلى السرِّ الذي يُخبئه، حتى جاء الشرطي الآخر. في الوقت نفسِه خرج الحارس بعد أن ارتدى ملابسه بالكامل.

قال باقتضاب: «تعالَوا! سأُريكم.»

وغمغمَ دريسكول بكلمات مقتضبة للشرطيِّ الآخر الذي وصل لتوه، ثم التفت إلى الحارس.

سأله: «كيف وجدتَه إذن؟»

أومأ الحارس برأسه نحو الباب الذي كانوا على وشك الخروج منه.

ثم أجاب بضيق، كما لو كانت الحقيقة التي ذكرها تُدينه: «سمعت هذا الباب يُصفَق. أنا متأكد من ذلك! فقمتُ أتفقَّد الأمر. ثم ... حسنًا، رأيتُ ذلك!»

ومدَّ يده يُشير إلى الزقاق. فمضى الرجال الثلاثة إلى حيث أشار بإصبَعِه. وعندئذٍ رأى سبارجو قدمَ رجُلٍ تبرُز من مدخل على اليسار وتنتعلُ حذاءً تحته جوربٌ رمادي.

قال الحارس: «رأيتها بارزةً هكذا كما ترونها الآن. لم ألمسها. ثم ...»

بتَر الحارس جملته واكفهرَّ وجهُه كمن تذكَّر أمرًا مؤسفًا. وأومأ دريسكول برأسه متفهمًا.

وقال: «ثم ذهبتَ لتتفقَّدَها؟ فقط لترى قدمَ مَن هي؟»

وافَقه الحارس: «فقط لأرى ماذا كان هناك. ثم رأيتُ الدماء. وعندئذٍ … حسنًا، هُرِعت في الزقاق لأُخبر أحدكم يا رجال.»

قال دريسكول: «أحسنتَ صُنعًا. حسنًا، والآن إذن …»

توقف رَكْب الرجال عند المدخل. وكان للمدخل طابَعٌ بارد ورسمي؛ ليس بمكانٍ مناسب لجثة، جدرانه مغطَّاة ببلاط أبيضَ وأرضيته خرسانية؛ شيءٌ ما في مظهر المدخل في جوِّ ذلك الصباح الرمادي ذكَّر سبارجو بثلاجة الموتى. ولم يكن لديه شكٌّ في أن الرجل الذي برَزَت قدمه على عتبة المدخل قد فارقَ الحياة؛ فقد بدا ذلك جَليًّا من وضعية جسَده المرتخي.

وقف الرجالُ الأربعة لحظةً لا يتحرَّكون ولا ينطقون. واكتفى كلٌّ من الشرطيَّين دون وعي بدسِّ إبهامه في حزامه وهزِّ باقي أصابعه؛ في حين حكَّ الحارس ذقنه متفكرًا ومُصدرًا صريرًا تذكَّره سبارجو فيما بعد؛ أما سبارجو فقد وضع يدَيه في جيبَيه وأخذ يعبث بنقوده المعدنية ومفاتيحه مُصدرًا رنينًا. دارت في ذهن كلٍّ منهم أفكاره الخاصة وهو يتأمَّل الجسد البشريَّ المتكوم أمامه.

همس دريسكول فجأةً: «لاحظوا أن وضعية الجثة غريبة، كما لو كان قد وُضِع في مكانه هذا. ربما أُسنِد إلى هذا الجدار بشكلٍ ما في البداية، ثم انزلق إلى الأسفل.»

كانت عينا سبارجو المحترفتان تلتهمان كلَّ التفاصيل التهامًا. رأى عند قدمَيه جثةَ رجل عجوز؛ كان وجهه متجهًا للناحية الأخرى وليس لناحيته، وجسده مستندًا إلى الحائط الأملس. استنتج من شعر الرجل الرماديِّ وشاربِه الأبيض كِبرَ سنِّه، كان الرجل مرتديًا حُلةً أنيقة متقنةَ الصنعِ من قماش رمادي ذي مربعات من الصوف، وكان حذاؤه في حالٍ جيدة، والطرفان المصنوعان من الكتان لكمَّيه المتدلِّيَين الخدرَين أيضًا في حالٍ جيدة. إحدى الساقَين منثنيةٌ نصفَ انثناءة تحت جسده، والأخرى ممدودة على العتبة؛ وكان الجذع مستندًا إلى الحائط. وانتشرت بُقَع ولطخات من الدم على بلاطات الحائط البيضاء التي استند إليها الجذعُ والكتف. حرَّر دريسكول يدَه من حزامه وأشار بإصبَعِه إليهم.

قال بهدوء: «يبدو لي أنه ضُرب من الخلف وهو يخرج من هنا. فتدفَّقَت هذه الدماء من أنفه كالشلال وهو يسقط أرضًا. ما رأيك يا جيم؟» سعل الشرطيُّ الآخر.

ثم قال: «يُستحسَن أن نستدعيَ المفتش إلى هنا. والطبيب وعربة الإسعاف أيضًا. لقد مات، أليس كذلك؟»

انحنى دريسكول ووضع إبهامه على يد الرجل التي كانت ملقاةً على الرصيف.

ثم رد باقتضاب: «لقد فارَق الحياة. مات وتيبَّس جسده أيضًا. أسرِعْ يا جيم!»

انتظر سبارجو حتى وصل المفتش، وانتظر حتى جاءت عربةُ الإسعاف التي تُجر باليد. وجاء معها المزيد من رجال الشرطة، ورفعوا الجثة لنقلها إلى ثلاجة الموتى، وعندئذٍ وقعت عينا سبارجو على وجه الرجل الميت. فحدَّق فيه مَليًّا دون أن يرفع عينَيه عنه ورجالُ الشرطة يُعدِّلون وضعَ أطرافه، وظل يتساءل طَوال الوقت عن هُوية هذا الرجل الذي يُحدق فيه وما أدى به إلى هذه النهاية، وما هدف قاتِله، فضلًا عن تساؤلاتٍ أخرى كثيرة ضجَّ بها عقله. اتسم فضول سبارجو ببعض الحِرفية، ولم يَخلُ كذلك من امتعاضٍ طبيعي من إنهاء حياةِ آدميٍّ آخَرَ على هذا النحوِ المهين.

لم يكن في وجه الرجل الميت أيُّ علامة لافتة. كان وجهَ رجلٍ يتراوح عمرُه بين الستين والخامسة والستين، ملامحه عاديَّة تكاد تخلو من الملاحة، حليقُ اللحية، باستثناء فودَين أشيَبين مشذَّبَين على طرازٍ قديم وممتدَّين ما بين الأذُن وطرَف الفك. الشيء الوحيد اللافت في وجهه هو كثرة الخطوط والتجاعيد؛ كانت تجاعيده كثيرةً وعميقة حول طرَفَي الشفَتَين والعينَين؛ ويتبادر إلى ذهن الناظر إلى الرجل أنه عاش حياةً صعبة مر فيها بصعوباتٍ نفسيةٍ وجسدية.

لكَز دريسكول سبارجو بكوعه. وغمز له. ثم قال في ثقة: «ينبغي أن تأتي إلى المشرحة.»

سأل سبارجو: «لماذا؟»

همس دريسكول: «سيفحصون الجثة ... أعني يُفتشونه، فهمت؟ عندها ستعرف كلَّ شيء عنه. سيُساعدك ذلك في كتابة الخبر في الصحيفة، أليس كذلك؟»

تردَّد سبارجو. كان قد أمضى ليلتَه في عمل مُضنٍ، وإلى حينِ لقائه بدريسكول كان يَتُوق كثيرًا للاستمتاع بالوجبة الساخنة التي كانت تُقدَّم له في سكنه، وللسرير الذي يحتويه بعدها. فضلًا عن ذلك، كانت رسالةٌ هاتفية تكفي لإرسال أحد رجال جريدة «ووتشمان» إلى المشرحة. كان ما يفعله الآن يتعدَّى اختصاصاتِ عمله.

قال دريسكول: «أحضِر إحدى هذه البطاقات الكبيرة الخاصة بالألغاز. فالمرء لا يعرف أبدًا ما يكمن وراء هذه الأمور، لم يَعُد أحدٌ يعرف.»

هذه الملاحظة الأخيرة ساعَدت سبارجو على اتخاذ قراره؛ علاوةً على أن غريزته القديمة للبحث عن الأخبار بدأت تتحركُ داخله.

قال سبارجو: «حسنًا.» وتبع ذلك بقوله: «سآتي معك.»

أعاد إشعال غليونه، وتبع الرَّكْبَ في الشوارع التي لم تزل هادئةً وخالية من السابِلة، شردَ عقله أثناء مشيه يفكِّر في مدى التحفُّظ المُتوخَّى في التحقيق في جرائم القتل. فما كانوا بصدده هو تحقيق في جريمةِ قتلٍ بلا شك، وكان يجري في هدوء في أحد الشوارع الرئيسية في لندن ومن دون ضجةٍ أو ضجيج، على أيدي مسئولين لا يعدو هذا التحقيقُ كونَه عملًا روتينيًّا بالنسبة إليهم. بالتأكيد …

قال أحدهم من جانب سبارجو: «رأيي أن الجريمة ارتُكِبَت في مكانٍ آخر، وليس في ذلك المكان! ثم نُقِل المجنيُّ عليه إلى هناك. هذا رأيي.» التفت سبارجو فوجد الحارسَ بجانبه. فقد صحبهم هو الآخَر أثناء نقل الجثة.

قال سبارجو: «أوه! هذا ما تعتقد …»

قال الحارس: «أعتقد أنه ضُرِب في مكانٍ آخرَ ثم حُمِل إلى حيثُ اكتُشِفت الجثة. ربما وقعَت الجريمة في سكنِ شخصٍ ما. فقد سمعتُ بغرائبَ ارتُكِبت في هذه المنطقة من لندن! حسنًا! لكنه لم يأتِ إلى سكَني ليلةَ أمسِ … سأُصر على ذلك. ومَن هو بالمناسبة؟ أودُّ أن أعرف. لا يبدو من مظهره أنه من المتردِّدين على منطقتنا.»

قال سبارجو: «هذا ما سنعرفه بعد قليل. سوف يُفتشونه.»

لكن سبارجو علم بعد قليل أن مَن فتَّشوه لم يَجِدوا معه شيئًا. وقال الطبيب الشرعي إن القتيلَ بلا شكٍّ تلقَّى ضربةً شديدة من الخلف أدَّت إلى كسرٍ في الجمجمة والوفاةِ شبه الفورية. رأى دريسكول أن الجريمة ارتُكِبَت بغرض السرقة. إذ لم يكن مع القتيل أيُّ شيء تقريبًا. كان من المنطقي أن يحمل رجلٌ مهندمُ الملبس ساعةً وسلسلة، ونقودًا في جيوبه، وربما خواتم حول أصابعه. بيْدَ أنه لم يُعثَر معه على أيِّ مُقتنيات ثمينة؛ بل لم يُعثر على أيِّ مُقتنيات تُساعد في التعرف على هُوِيته … لا خطابات، لا أوراق، لا شيء. كان جليًّا أن مَن وجَّهَ الضربةَ إلى القتيل جرَّده بعد ذلك من كل ما كان معه. الدليل الوحيد الذي قد يُسترشَد به في تحديدِ هُويته هو قُبعةٌ من القماش الرمادي بدا أنها قد اشتُرِيت حديثًا من متجرٍ عصري في الطرف الغربي من المدينة.

عاد سبارجو إلى منزله، لم يَبدُ أن هناك ما يُعطِّله عن ذلك. تناوَلَ طعامه، ثم خلَد إلى النوم، لكنه لم يَحْظَ بكفايته منه. لم يكن ممَّن يَهابون الفظائع، لكنه أدرك أخيرًا أن وقائع ذلك الصباحِ كانت كافيةً لحرمانه من أيِّ فرصةٍ للراحة، فنهض، واستحمَّ بمياهٍ باردة، واحتسى فنجانًا من القهوة، ثم خرج. لم يكن في ذهنه فكرةٌ محدَّدة أكيدة وهو يبتعد عن بلومزبيري، لكنه لم يُفاجَأ عندما وصل بعد نصف الساعة من المشي إلى مخفر

الشرطة الذي كانت جثة الرجل المجهولِ في المشرحة القريبة منه. وهناك التقى بدريسكول وهو يُوشِك على إنهاء مُناوَبته. فابتسم دريسكول لرؤيته.

وقال: «الحظ يُحالِفك. فمنذُ أقلَّ من خمس دقائق وجدوا قُصاصةً من الورق الرمادي مكرمشة في جيب الصديري الذي كان يرتديه هذا الرجلُ المسكين ... لم يُعثَر عليها في البداية لأنها كانت محشورةً في جيبه. تعالَ لتراها.»

دلف سبارجو إلى مكتب المفتِّش. وبعد دقيقة وجد نفسه يُحدِّق في قُصاصة الورق. لم يكن عليها إلا عُنوانٌ مدوَّن بالقلم الرصاص دون اهتمام: رونالد بريتون، محامٍ، كينجز بنش ووك، تمبل، لندن.

الفصل الثاني

القضية الأولى

رفع سبارجو رأسه إلى المفتش بحركةٍ سريعة. وقال: «أعرف هذا الرجل.»

بدا على المفتش الاهتمام.

وسأل: «مَن؟ السيد بريتون؟»

«نعم، أعمل في صحيفة «ووتشمان»، كما تعلم، مساعدًا لرئيس التحرير. أخذتُ من هذا الرجل مقالًا منذ عدة أيام ... مقالًا عن «الوجهات المثالية لهُوَاة التخييم». جاء إلى المكتب ومعه المقال. إذن قلتَ إن هذه كانت في جيب القتيل؟»

رد المفتش: «وُجِدت في ثقب في جيبه، حسبما فهمت؛ إذ لم أكن موجودًا بنفسي. ليست شيئًا ذا أهمية، لكنها قد تساعد في الاستدلال على هُويته.»

أخذ سبارجو قُصاصة الورق الرمادية وتفحَّصها عن قُرب. بدَت له من نوعية الورق الذي يكون عادةً في الفنادق والنوادي؛ وقد قُطِعت بلا اعتناء من ورقةٍ أكبر.

سأل في تأمُّل: «ماذا ستفعلون للتعرُّف على هُوِية هذا الرجل؟»

هز المفتش كتفَيه.

وقال: «المعتاد على ما أظن. سيُذاع الخبر كما تعلم. أظنُّك ستَرويه بأسلوبك كذلك، في صحيفتك، صحيح؟ وسينقله آخَرون. وسنضعُ الإعلانَ المعتاد. ثم سيأتي شخصٌ للتعرُّف على هُوِية الرجل. و...»

دلف إلى المكتب رجلٌ هادئ يخلو وجهُه من أيِّ تعبير، يرتدي ملابسَ غير لافتة، ربما يبدو تاجرًا خرج يتمشَّى، وأومأ إلى المفتش وهو يقترب من مكتبه، بينما كان يمدُّ يدَه نحو قُصاصة الورق التي وضعها سبارجو من يده للتو.

قال الرجل بينما ينظر إلى ساعته: «سأتوجَّه إلى كينجز بنش ووك لمقابلة السيد بريتون. الساعة قارَبت العاشرة ... أظنه سيكون هناك الآن.»

فقال سبارجو كأنما يُحدِّث نفسه: «أنا أيضًا ذاهبٌ إلى هناك. نعم سأذهب إلى هناك.»

نظر الوافدُ الجديد إلى سبارجو ثم إلى المفتش. وأومأ المفتشُ نحو سبارجو.

وقال: «السيد سبارجو، صحفي في صحيفة «ووتشمان»، كان موجودًا عند العثور على الجثة. وهو يعرف السيد بريتون.» ثم أومأ مشيرًا إلى الشخص ذي الوجه الخالي من التعبير. وقال لسبارجو: «هذا المحقِّق راثبري من سكوتلاند يارد. وقد جاء ليتولَّى هذه القضية.»

قال سبارجو بنبرةٍ رتيبة: «حقًّا؟ حسنًا.» وواصَلَ باقتضابٍ مفاجئ: «ماذا ستفعل حيال بريتون؟»

رد راثبري: «سأستدعيه لمعايَنة الجثة. ربما يعرف الرجل، وربما لا يعرفه. على أي حال، وجدنا اسمَه وعُنوانه، أليس كذلك؟»

قال سبارجو: «تفضَّل معي. سأمشي معك إلى هناك.»

استغرق سبارجو في تفكيرٍ عميق طوالَ مشيه في شارع تيودور، والتزم مُرافِقُه أيضًا الصمتَ على نحوٍ يَشِي بأن قلة الكلام عادتُه ودأبه. لم يَنْبِس سبارجو بكلمة إلا عندما كان الاثنان يصعدان درَجًا قديمًا ذا درابزين في مقدمة المنزل المقصود في كينجز بنش ووك الذي يوجد فيه مكتب رونالد بريتون في مكانٍ ما.

التفت سبارجو للمحقِّق فجأةً وقال: «هل تعتقد أن ذلك العجوزَ قد قُتِل من أجل ما كان يحمله؟»

رد راثبري مبتسمًا: «أريد أولًا أن أعرف ما كان يحمله قبل أن أُجيبك عن هذا السؤال يا سيد سبارجو.»

قال سبارجو شاردَ الذهن: «نعم. أظن ذلك. ربما لم يكن معه شيء، صحيح؟»

ضحك المفتش، وأشار إلى لوحٍ طُبِعت عليه عدةُ أسماء.

وقال: «لا نعرف أيَّ شيءٍ بعدُ يا سيدي، باستثناء أن السيد بريتون في الطابَق الرابع. أستنتج من ذلك أنه لم يمضِ وقتٌ طويل منذ تناوُله عَشاءَه.»

قال سبارجو: «أوه، إنه شاب ... شابٌّ يافع. أعتقد أنه في الرابعة والعشرين تقريبًا. التقيتُ به منذ ...»

وفي هذه اللحظة قطع حديثَهما صوتٌ واضح لضحكِ فتياتٍ جاء من أعلى الدَّرَج. بدا أن فتاتَين تضحكان، ثم تداخَلَ مع صوتِ ضحكِهما الأنثويِّ الرقيق صوتُ ضحكٍ ذكوري.

قال راثبري: «يبدو أن دراسةَ القانون أمرٌ مبهج للغاية هنا. وها هو مكتب السيد بريتون. والباب مفتوح.»

كان الباب الخارجي البلوطي المُفضِي إلى مكتب رونالد بريتون مفتوحًا على اتساعه، وكان الباب الداخلي مُوارَبًا، فتمكَّنَ سبارجو والمفتشُ من إرسالِ نظرِهما من فُرجته إلى داخل مكتب السيد رونالد بريتون ورؤيته بالكامل. كانت خلفيةُ الغرفة تتكوَّن من كتبِ القانون، وحُزَمِ الأوراق المربوطة معًا بشرائطَ ورديةِ اللون، وصورٍ لقانونيِّين بارزين مُؤطَّرة بأُطُر سوداء، ورأَيَا أمامهما فتاةً جميلة عيناها تُشِعان حيويةً، تجلس على كرسيٍّ وترتدي شَعرًا مستعارًا وثوبَ المحاماة، تلوِّح بكتلةٍ من الورق المكرمش، وتُلقِي خُطبةً عصماءَ على قاضٍ خيالي ومحلَّفين خياليين، في حين كان شابٌّ ظهرُه موجَّهٌ نحو الباب، وفتاةٌ أخرى تستند بأريحية إلى كتفه، يُتابِعان الأولى في استمتاع.

كانت تقول: «أقولها لكم أيُّها المحلَّفون الموقَّرون، أقولها لكم بثقة، وأغلبُ ظني أن بينكم بلا شك مَن هو أخٌ أو زوج أو أب، هل يُمكِنكم أن تُقدِموا — وضمائرُكم قريرة — على الحكم على موكِّلي بظلمٍ بيِّن وأذًى لا جبرَ له و... و...»

قال الشاب: «فكِّري في المزيد من الصفات، بكل قوة وعُنفوان، أَمطِريهم بها. يُعجِبهم ذلك، إنهم ... انتبهي!»

كان المحقِّق حينئذٍ يَطرق الباب الداخلي، ثم مدَّ رأسه من ورائه. فانتفضتِ الشابةُ التي كانت تخطب قافزةً من كرسيِّها على عجَل، وتركتِ الأخرى ذراعَ الشاب الموحِيةَ بالأمان، وانطلقتْ ضحكةٌ أنثوية خفيفة، وصدر حفيفٌ من قماش التنُّورة، وانطلقتا إلى غرفة داخلية، في حين تقدَّمَ السيد رونالد بريتون في بعض الحرَج لتحيةِ الضيف الذي قاطَعَهم.

وقال بسرعة: «تفضَّل، تفضَّل! لقد كنتُ ...»

بتَر جملتَه ما إن رأى سبارجو، ومدَّ يدَه وهو ينظر إليه مندهشًا.

وقال: «أوه! ... السيد سبارجو؟ كيف حالك؟ كنا ... كنتُ ... كنا نتسلَّى فحسب، سأذهب إلى المحكمة بعدَ بِضع دقائق. كيف يُمكِنني مساعدتُك سيد سبارجو؟»

تراجَعَ إلى الباب الداخلي وهو يتحدَّث، ثم أغلقه والتفتَ إلى الرجلَين ثانيةً يُنقِّل نظره بينهما. كان المحقِّق، بدوره، ينظر إلى المحامي الشاب. كان شابًّا طويلَ القامة، نحيفَ الجسم، حسَنَ الملامح، له حضورٌ طاغٍ، مُهندمًا تمامًا لا تَشُوب ملابسَه شائبةٌ، يبدو عليه

يُسْر الحال، فاستنتج المحقِّقُ من هذه الأمور أن السيد بريتون من الشباب الموفوري الحظِّ الذين يمتهنون مهنةً، لكنهم لا يعتمدون عليها كمصدرٍ أساسي لكسْبِ القُوت. ثم التفتَ إلى الصحفيِّ ونظر إليه.

رد سبارجو على بريتون ببطء: «كيف حالك؟ أنا … الأمرُ أنني جئتُ إلى هنا مع السيد راثبري. السيد راثبري يُريد لقاءَك. المحقِّق راثبري … من نيو سكوتلاند يارد.»

نطق سبارجو بجُمَل التعارُف الرسمية هذه كما لو كان يُكرِّر درسًا. لكنه كان يُراقِب وجهَ المحامي الشاب. والتفت بريتون إلى المحقِّق ورمَقَه بنظرةٍ مفاجئة.

وقال: «أوه! أنت تودُّ أن …»

كان راثبري يُفتِّش في جيبه عن قُصاصة الورق الرمادية التي كان قد أودَعَها بعنايةٍ في دفتر ملاحظاتٍ أكَل عليه الدهرُ وشَرِب. وقال: «أودُّ أن أسألك سؤالًا يا سيد بريتون. في الساعة الثانية وخمسٍ وأربعين دقيقةً من صباح اليوم، عُثِر على رجل … رجل مُسِن … ميتًا في زقاقِ ميدل تمبل، وأغلبُ الظنِّ أنه قُتِل. كان السيد سبارجو في المكان عندما عُثِر على الجثة.»

صحَّحه سبارجو قائلًا: «بل بعد العثور عليها بقليل، بدقائقَ قليلة.»

واصَلَ راثبري بلهجتِه الرسمية العملية: «عندما فُحِصت الجثةُ في المشرحة، لم يُعثَر على أي شيء يُستدَلُّ به على هُوِية الرجل. يبدو أن الرجل تعرَّضَ للسرقة. لم يكن معه أيُّ شيء إلا قصاصةَ الورق هذه … عُثِر عليها في ثقبٍ في بطانة الصديري الذي كان يرتديه. وهي تحمل اسمَك وعُنوانك يا سيد بريتون. أتودُّ إلقاء نظرة؟»

أخذ رونالد بريتون القصاصةَ ونظر إليها مقطِّبًا ما بين حاجبَيه.

وتمتم: «يا إلهي! هذا صحيح … وغريب. ما شكل هذا الرجل؟»

نظر راثبري إلى ساعةٍ على رف المدفأة.

وقال: «هلا جئتَ لإلقاءِ نظرةٍ عليه يا سيد بريتون! المكان قريب.»

رد بريتون وهو ينظر إلى الساعة هو الآخَر: «الأمر أن … في الحقيقة … لديَّ قضية منظورة، في محكمة السيد جاستيس بورو. لكن دورها لن يحينَ قبل الساعة الحاديةَ عشرة، هل …»

قال راثبري: «الوقتُ كافٍ يا سيدي؛ لن يستغرقَ الأمر أكثرَ من عشر دقائق للوصول إلى هناك وإتمام المهمة ثم العودة ثانيةً … نظرة واحدة تكفي. ألم تتعرَّف على خطِّ اليد؟»

لم يزَل بريتون ممسِكًا بالقصاصة بين أصابعه. نظر إليها مجددًا عن كثب.

وأجاب: «نعم. لا أعرف هذا الخطَّ على الإطلاق. لا يمكنني تخيُّل مَن قد يكون هذا الرجل الذي يحمل قُصاصةً عليها اسمي وعُنواني. ظننته قد يكون محاميًا ريفيًّا ما، يسعى للحصول على خدماتي المهنية ...» وابتسم في خجلٍ إلى سبارجو، وواصَل: «لكن في الثالثة ... الثالثة صباحًا؟!»

قال راثبري: «يظن الطبيب أنه مات قبل العثور عليه بنحو ساعتَين ونصف الساعة.»

التفت بريتون إلى الباب الداخلي.

وقال: «سوف ... سوف أُخبر السيدتَين بأني سأُغادر ربعَ ساعة. سيذهبان إلى المحكمة معي ... حصلتُ على قضيتي الأولى بالأمس.» وضحك بصبيانيَّة وأجالَ نظَره بين زائِرَيه يَمنةً ويَسرة. ثم واصَل: «ليستْ قضيةً كبيرة ... بل بسيطةٌ ... لكني وعدتُ خطيبتي وأختَها أنهما يُمكِنهما الحضور. لحظة واحدة.»

دلف إلى الحجرة المجاوِرة ثم عاد بعد لحظة يَعتمرُ قبعةً حريرية جديدة أنيقة. بدأ سبارجو، الشابُّ الذي لم يَعتَدْ قطُّ التدقيقَ في تفاصيل مَلْبسه، يُقارِن ملابسَه بالهندام المفرِط الذي بدا على ذلك الشابِّ الصغير، ولم تَفُتْه ملاحظةُ أناقةِ ملابس الشابتَين اللتين دلفتا إلى الغرفة الداخلية على عجَل؛ أناقة تليق بحي مايفير الراقي لا شارع فليت. كان بريتون قد أثار فضولَه بالفعل، وكذلك الفتاتان اللتان سمعهما تتحدَّثان خلف الباب الداخلي.

قال بريتون: «حسنًا، هيا. لِنذهبْ إلى هناك مباشَرةً.»

كانت مَشْرحة الموتى التي قادهما راثبري إليها باردةً كئيبة تشذُّ عن الابتهاج العامِّ الذي يحمله ذلك الصباحُ الصيفي. ارتعدَ سبارجو رغمًا عنه وهو يدخلها ويُلقِي نظرتَه الأولى في أرجائها. لكنَّ المحاميَ الشاب لم يُبدِ أيَّ دلالة على التأثُّر أو الانشغال؛ نظر حوله بسرعة ووصل بحذرٍ إلى جانب الجثة التي كان المحقِّق يرفع عن وجهها الغِطاءَ القماشي. نظَر بريتون إلى الوجه بثباتٍ وجدية متأملًا ملامحَه الجامدة. ثم تراجَعَ وهزَّ رأسه.

وقال في حَسْم: «كلا. لا أعرفه ... لم ألتقِ به قط، لم أرَه في حياتي.»

أعاد راثبري وضْعَ الغِطاء القماشي على وجه الرجل.

وقال: «لم أتوقَّع أن تعرفه. أعتقد إذن أننا سنُضطرُّ إلى اتباع الإجراءات المعتادة. وسيتعرَّف عليه أحدهم.»

قال بريتون: «تقول إنه قُتِل؟ هل هذا أكيد؟»

وكز راثبري الجثةَ بإبهامه.

وقال باقتضاب: «مؤخرةُ الجمجمة مهشَّمة. يقول الطبيب إنه ضُرِب من الخلف على الأغلب ... ضربةً شديدة. أشكرك شكرًا جزيلًا يا سيد بريتون.»

قال بريتون: «أوه، لا عليك. حسنًا، تعرف أين يُمكِنك العثورُ عليَّ إن احتَجْتَ إليَّ. أثار الأمرُ فضولي. إلى اللقاء ... إلى اللقاء يا سيد سبارجو.»

أسرع المحامي الشابُّ بالانصراف، والتفتَ راثبري إلى الصحفي.

وقال: «لم أتوقَّع أن يُثمِر ذلك عن أي نتيجة. ومع ذلك كان ينبغي فِعلُه. هل ستكتب عن ذلك للصحيفة؟»

أومأ سبارجو بالموافَقة.

واصَلَ راثبري: «لقد أرسلتُ رجلًا إلى متجر فيسكي صانع القبعات الذي اشتُرِيَت تلك القبعة منه. قد نصل إلى معلومةٍ ما من هناك ... احتمال. إذا أردتَ مقابلتي هنا في الثانية عشرة فسأُخبرك بكلِّ ما أتوصَّل إليه. أمَّا الآن فسأذهب لتناوُلِ الإفطار.»

قال سبارجو: «سأقابلك هنا في الثانية عشرة.»

وراقَبَ راثبري يسلك منعطفًا، في حين سلكَ هو منعطفًا آخَرَ بسرعة. وذهب إلى مقر صحيفة «ووتشمان»، وكتب بعض السطور، ووضعَها في مظروفٍ لعناية محرِّر فترة النهار، ثم خرج ثانيةً. بطريقةٍ أو بأخرى قادَته قدَماه إلى شارع فليت، وقبل أن يُدرك ماهيَّةَ ما كان يفعله وجَدَ نفسَه في طريقه إلى المحكمة.

الفصل الثالث

القبعة

لم يعرف سبارجو بالتحديد ما قاده إلى مشهد المحاكمة هذا، فراح يتجوَّل بلا هدفٍ في القاعة الكبيرة والممرات المجاورة حتى ظنه أحدُ الموظفين تائهًا، فسأله عما إذا كان يقصد مكانًا بعينه في المبنى. حدَّق سبارجو في الرجل لحظةً كمَن لا يفهم السؤال. ثم استُنفِرَت قُواه العقلية من جديد.

وسأل فجأةً: «ألَا يترأَّس السيد جاستيس بورو إحدى المحاكم هذا الصباح؟»

رد الموظَّف: «رقم سبعة. أيُّ قضية قضيتك؟ متى دورها؟»

أجابه سبارجو: «ليست لديَّ قضية. أنا صحفي.»

أشار الموظف بإصبعه.

وقال بتلقائية: «بعد هذا المنعطف ... اسلك أولَ ممرٍّ يمينًا ثم الثانيَ يسارًا. ستجد أماكنَ متاحة كثيرة ... ليس هناك أحداثٌ مهمة هذا الصباح.»

استدار الرجل ومضى في طريقه، واستأنفَ سبارجو تَجْوالَه الذي بدا بلا هدفٍ في الممرات الكئيبة الرتيبة.

وتمتم: «أُقسِم بشرفي إني لا أعرف حقًّا ما الذي أتى بي إلى هنا. لا شأنَ لي هنا.»

عندئذٍ سلك منعطَفًا فوجد رونالد بريتون أمامه مباشَرة. كان المحامي الشابُّ الآن يضعُ على رأسه الشَّعرَ المستعار ويرتدي ثوبَ المحاماة، ويحمل حُزمةً من الورق مربوطةً بشريط وردي، ويُرافِق شابتَين كانتا تضحكان وتتحدثان وهما معه. رمَقهم سبارجو في تأمُّل، وحدَّد بقريحته أي الشابتَين كانت مَن سمعها هو وراثبري تَجْأر بخُطبتها الهَزْلية؛ ليست الكُبرى التي تمشي بجوار رونالد بريتون ويبدو عليها ما يُشبه إحساسَ التملُّك، بل إنها الصُّغرى ذاتُ العينَين الضاحكتَين والابتسامةِ المفعَمة بالحيوية، أدركَ فجأةً أن فكرةً

كانت في أعماقه، بل أملٌ يَحْدوه أن يراها مجددًا ... لكن لماذا؟ لم يكن وقتَها يستطيع أن يُخمِّن السبب.

واجَه سبارجو ثلاثتَهم، فرفع قبعته على نحوٍ تلقائي. وتوقَّف بريتون في بعض الفضول. ولاح في عينَيه سؤال.

قال سبارجو: «نعم. أنا ... في الحقيقة ... تذكَّرتُ أنك قلتَ إنك قادمٌ إلى هنا، فجئتُ في أَثَرِك. أريد أن أتحدَّث معك ... عندما يَسمح وقتُك ... أريد أن أسألك بعض الأسئلة. أسئلة لها علاقة بالقتيل.»

أومأ بريتون بالموافَقة. وربَّتَ على ذراع سبارجو.

وقال: «اسمع. عندما أفرغ من قضيتي هذه يُمكِنني أن أمنحك كلَّ ما يكفيك من الوقت. هل يُمكِنك الانتظارُ قليلًا؟ هل يُمكِنك؟ حسنًا، هلا أسديتَ لي معروفًا! كنت أصطحب هاتين الفتاتَين إلى الشُّرفة ليُشاهِدا المحاكَمة، هناك، أعلى الدَّرَج، ليس لديَّ الكثيرُ من الوقت، هناك محامي إجراءاتٍ في انتظاري. فَلْتَصْحبهما أنت ... يا لك من رجل طيب! وعندما تنتهي القضية عُدْ بهما إلى هنا، وسنتحدث معًا. سأُعرِّفك بهما، بلا رسميَّات. الآنسة إيلمور ... جيسي إيلمور. السيد سبارجو ... من صحيفة «ووتشمان». سأنصرف الآن!» وانعطف بريتون على الفور، وأصدر ثوبُه حفيفًا وهو يسلك المنعطَف، ووجد سبارجو نفسَه يُحدِّق في الفتاتَين المبتسمتَين. وجد حينها أنهما جميلتان وجذَّابتان، وأن إحداهما تبدو أكبرَ من الأخرى بثلاث أو أربع سنوات.

قالت الكبرى: «هذه قلةُ مبالاةٍ من رونالد. ربما لا تُناسِب خُطتُه خطتَك يا سيد سبارجو؟ أرجو ألَّا ...»

قال سبارجو: «أوه، لا مشكلةَ على الإطلاق!» وشعر بغباءٍ لم يعهده. ثم واصَل: «ليس لديَّ شيءٌ آخَر أفعله. لكن إلى أين قال السيد بريتون أنكما تُريدان الذَّهاب؟»

قالت الصغرى بحماس: «إلى شُرفة قاعة المحكمة السابعة. من هذا المنعطف ... أعتقد أني أعرف الطريق.»

تعجَّبَ سبارجو من سرعةِ تطوُّر الأمور هذا الصباحَ واستحثَّ نفسه لتولِّي دور المرشد، فقاد الشابتَين إلى مقدمة إحدى الشرفات العامة التي يُمكِن من خلالها للمتفرِّغين والمهتمين مُشاهَدة وسماع أحداث المحاكمة التي تجري في قاعات المحكمة السيئة التهوية والإضاءة، التي تأخذ فيها العدالةُ مجراها. لم يكن في تلك الشرفةِ بعينها غيرُهم، استغرب

الحارسُ المرابط خارِجَها أن يودَّ أيُّ شخصٍ دخولها، وفتح البابَ من فوره، ونادى سبارجو، وهبط الدَّرَجَ حتى قابَله في منتصفه.

وهمس من وراء يدِه المرفوعة: «لا شيءَ يجري هنا هذا الصباح. لكن هناك قضية مُخالفة مثيرة في القاعة الخامسة … يُمكِنني تدبُّر ثلاثة مقاعدَ جيدة لكم إذا أردتَ.»

رفَض سبارجو العرضَ المُغرِي، وعاد إلى رفيقتَيه. كان قد قدَّر في ذلك الوقت أن الآنسة إيلمور في نحو الثالثة والعشرين، وأختها في نحو الثامنةَ عشرة؛ واستقرَّ رأيه أن بريتون شابٌّ محظوظ بصُحْبة هذه الزوجةِ المستقبَلية الساحرة الجمال، وأختِها التي لا تقلُّ عنها حُسنًا. وجلس في مقعدٍ بجوار الآنسة جيسي إيلمور، وأخذ يتلفَّت في انبهارٍ ظاهر مما حوله.

همس قائلًا: «أفترض أن الكلام مسموحٌ إلى حين دخول القاضي، صحيح؟ هل هذه القضية الأولى للسيد بريتون حقًّا؟»

ابتسمَت رفيقة سبارجو قائلة: «الأولى على الإطلاق … وهو مسئولٌ عنها بالكامل. وهو متوتِّر للغاية … وكذلك أختي متوترة. ألستِ كذلك يا إيفيلين؟»

نظرت إيفيلين إيلمور إلى سبارجو، وابتسمَت في هدوء.

وقالت: «أعتقد أنه من الطبيعي أن يتوتر أيُّ شخص عند ظهوره الأول في أيِّ مكان. ومع ذلك، أظن أن رونالد مُفعمٌ بالثقة، والقضية ليست بالكبيرة كما يقول، إنها دونَ هيئة محلَّفين حتى. أخشى أنك ستجدُها رتيبةً يا سيد سبارجو … تتعلَّق بسندٍ إذني.»

رد سبارجو: «لا بأس، شكرًا لك.» ووجد نفسه بلا وعي يلجأ إلى إحدى طرقه المفضَّلة في رفع الحرج. «أحبُّ الاستماعَ للمحامين دائمًا، جَعْبتُهم لا تخلو أبدًا مما يُمكِن قوله عن … عن …»

قالت جيسي إيلمور: «عن لا شيء. ولكن مهلًا … هذا حال الصحفيين أيضًا، أليس كذلك؟»

همَّ سبارجو بأن يقول إن الكثير يُمكِن أن يُقال ردًّا على ذلك، لكن الآنسة إيلمور لفتَت انتباهَ أختِها فجأةً إلى رجلٍ دخل قاعة المحكمة للتو.

وقالت: «انظري يا جيسي! ها هو السيد إيلفيك!»

نظر سبارجو إلى الشخص الذي أشارت إليه فوجَده عجوزًا ذا وجهٍ كبير حليق، بِنْيته ممتلئة بعضَ الشيء، يضع الشعرَ المستعار وثَوبَ المحاماة ويمشي مشيًا وئيدًا نحو مقعدٍ في ركنٍ خارجَ المكان المهيب الذي لا يُسمَح لأحدٍ غير مستشار الملك بالجلوس

فيه. جلس في الكرسي على نحوٍ يَشِي بحرصه على راحته، وعدَّل مِن وضع جِلسته إلى الزاوية التي تمنحه أكبرَ قدرٍ من الراحة، ووضع على عينه اليمنى نظارةً أحاديةَ العدسة وتلفَّتَ حوله. كان بالقرب منه القليلُ من زملائه في العمل، فضلًا عن ستةٍ من محامِي الإجراءات والكَتَبة يتحاوَرون بعضهم مع بعض، وكذلك بعض موظَّفي المحكمة. لكن صاحب النظارة الأحادية لم يهتمَّ بأحدٍ من هؤلاء وعلَّق عينَيْه بالفتاتَين ما إن لمَحَهما. ثم انحنى في أدبٍ جمٍّ نحوهما، ورسم على وجهه العريضِ ابتسامةً ودودة، ولوَّح بيده البيضاء.

سألت الآنسة إيلمور الصغرى: «هل تعرف السيد إيلفيك يا سيد سبارجو؟»

أجاب سبارجو: «أظنني رأيتُه في مكانٍ ما بالقرب من تمبل. بل متأكدٌ أني رأيته.»

قالت جيسي: «مسكنه في بيبر بلدنجز، يُقيم فيه حفلاتِ شاي في بعض الأحيان، هو وصيُّ رونالد ومعلِّمه ومُرشِده وكلُّ شيء بالنسبة إليه، أظنه جاء إلى هذه المحكمة ليسمع تلميذه.»

همست الآنسة إيلمور: «ها هو رونالد.»

وقالت أختها: «ها قد أتى سيادته شديدَ التجهُّم. الآن يا سيد سبارجو يبدأ العمل.»

الحقيقة أن السيد سبارجو لم يولِ اهتمامًا كبيرًا لما كان يجري في الأسفل. كانت القضية التي بدأ الشابُّ بريتون العمل عليها تِجارية تتضمَّن بعض الحديث عن الحقوق والممتلَكات المرتبطة بسندٍ إذني، بدا للصحفي أن بريتون أبلى فيها بلاءً ممتازًا، وأظهر إلمامًا بالتفاصيل الماليَّة، واستعدادًا وثقةً كبيرَين في حديثه. لكن اهتمام سبارجو برفيقتَيه، لا سيما الصغرى، كان أكبرَ من اهتمامه به بكثير، وكان يُفكر في كيفية توطيد العلاقة بهما فورَ علمه بأن ممثِّل الدفاع وافقَ على الانسحاب لإدراكه انعدامَ فرصه في الفوز، وأن السيد جاستيس بورو كان بالفعل يُصدِر حكمه في صالح رونالد بريتون.

بعد ذلك بدقيقة كان يخرج من الشُّرفة وراء الأختَين.

وقال في شرودِ ذهن: «جيد جدًّا، جيد جدًّا بالفعل. أعتقد أنه سرد الحقائق في وضوحٍ وإيجاز بالِغَين.»

وفي هذه الأثناء، كان رونالد بريتون في الطابق السفلي يتحدث مع السيد إيلفيك في الممر. وأشار بإصبعه إلى سبارجو وهو قادمٌ برفقة الفتاتَين؛ فخمَّن سبارجو أن بريتون كان يتحدث عن جريمة القتل وعن صلة سبارجو بها. ولما اقترب الثلاثة منه تحدَّث بريتون.

قال: «السيد سبارجو، مساعد تحرير في صحيفة «ووتشمان». وهذا السيد إيلفيك يا سيد سبارجو. كنتُ أخبره للتو أنك رأيت المجنيَّ عليه بعد العثور عليه بقليل.»

رمَق سبارجو السيد إيلفيك بنظرة سريعة، ولاحظ الاهتمامَ الشديدَ الباديَ عليه. أولاه المحامي العجوز كاملَ اهتمامه.

وقال: «سيدي! أرأيتَ ذلك المسكين؟ صريعًا على الأرض … في المدخل الثالث في زقاق ميدل تمبل؟ المدخل الثالث، صحيح؟»

أجابه سبارجو ببساطة: «نعم، رأيته، كان المدخل الثالث.»

قال السيد إيلفيك متفكرًا: «هذا غريب! أعرف رجلًا يسكن هذا المنزل. بل إني زرتُه ليلة أمس، ولم أُغادر حتى قرب منتصف الليل. وكان اسم السيد رونالد بريتون وعُنوانه في جيب ذلك الرجل ذي الحظِّ العاثر؟»

أومأ سبارجو بالإيجاب. ونظر إلى بريتون، وأخرج ساعته. ثم خطر بباله ألا يلعبَ دور المخبر للسيد إيلفيك.

ردَّ بإيجاز: «هذا صحيح.» ثم رمق بريتون بنظرة ذات مغزًى وأضاف: «أتساءل إن كان بإمكانك منحي الآن بعضَ الدقائق القليلة كما طلبت؟»

أجاب رونالد بريتون وهو يُومئ بالموافَقة: «نعم، نعم! أفهمك.» وخاطب إيفيلين: «إيفيلين، سأتركك أنت وجيسي مع السيد إيلفيك، فأنا مضطرٌّ إلى الانصراف.»

استبقى السيد إيلفيك سبارجو مرةً أخرى.

وقال منفعلًا: «سيدي! أتعتقد أنه يُمكنني رؤية الجثة؟»

أجاب سبارجو: «إنها في المشرحة. لا أعرف قواعدَهم.»

ثم غادَر مع بريتون. ولم يتحدَّثا حتى عبَرا شارع فليت ووصلا إلى زقاق تمبل الأهدأ، وهناك نطق سبارجو أخيرًا.

وقال: «ما أردت أن أُخبرك به هو أني، منذ وقت طويل، بوصفي صحفيًّا، أردت أن أتولى جريمة قتل مهمة. وأعتقد أن هذه هي. أريد أن أخوضَ في تفاصيلها مباشَرةً وبعناية. وأعتقد أنه يُمكنك مساعدتي.»

سأل بريتون في هدوء: «وما أدراك أنها جريمةُ قتل؟»

أجاب سبارجو بلا انفعالٍ: «إنها جريمةُ قتلٍ بالفعل. أشعر بذلك. بغريزتي ربما. سأُفتِّش عن الحقيقة. ويبدو لي أن …»

بترَ جُملتَه ورمق رفيقه بنظرةٍ حادة.

وقال على الفور: «يبدو لي أن الدليل يكمن وراء تلك القُصاصة. تلك القُصاصةُ وذاك الرجلُ حلقتان في سلسلةٍ تربط بينك وبين ... شخص آخَر.»

وافَقه بريتون قائلًا: «هذا محتمل. أتريد أن تصل إلى ذلك الشخص الآخَر؟»

أجاب سبارجو: «أريدك أن تُساعدني في العثور على الشخص الآخَر. أعتقد أن هذه القضية كبيرة، كبيرة جدًّا، وأريد أن أتولَّاها. ولا أثق في أساليب الشرطة كثيرًا. بالمناسبة، سأُقابل راثبري بعد قليل. ربما يكون قد سمع بشيء. أتودُّ مرافَقتي؟»

أسرع بريتون إلى مكتبه في كينجز بنش ووك، وترك ثوبَ المحاماة والشعر المستعار، ورافَق سبارجو إلى مخفر الشرطة. وبينما كانا على وشك الدخول وجَدا راثبري في طريقه للخروج.

قال راثبري: «أوه! لديَّ شيء قد يُفيد يا سيد سبارجو. قلت لك إني أرسلتُ رجلًا إلى متجر فيسكي صانعِ القبعات! حسنًا، لقد عاد الرجل. القبعة التي كان يرتديها المجنيُّ عليه اشتُرِيت بعد ظهر الأمس، وأرسلت إلى السيد ماربري، في الغرفة رقم ٢٠ بفندق أنجلو أورينت.»

سأل سبارجو: «أين يقع هذا الفندق؟»

أجاب راثبري: «حي ووترلو، مبنًى صغير على ما أعتقد. سأذهب إلى هناك. هل ستُرافِقني؟»

رد سبارجو: «نعم، بالطبع. والسيد بريتون أيضًا يريد المجيء.»

قال بريتون: «إن لم يكن في مجيئي ما يُعطِّلكما.»

ضحك راثبري.

وقال: «حسنًا، ربما نتمكَّن من معرفة شيء عن قصاصة الورق تلك.» وأشار إلى أقرب سائق سيارة أجرة.

الفصل الرابع

فندق أنجلو-أورينت

كان المبنى الذي توقَّف عنده سبارجو ورفيقاه بعد قليل مبنًى قديمَ الطراز مجاورًا لمحطة قطارات ووترلو، وهو صرْحٌ غُفْل لا سِمةَ مميزة لواجهته، يعود مظهره إلى منتصف العصر الفكتوري، ويُذكِّر الناظرَ إليه بالعصور المبكرة للسفر على السكك الحديدية. يصعب أن يجد المرءُ في لندن مبنًى أكثرَ منه تنافُرًا مع فكرة الفنادق الحديثة، قال رونالد بريتون ذلك وهو يقطع الطريقَ مع رفيقَيه.

قال راثبري: «ومع ذلك كان الكثيرون قديمًا يُفضِّلون هذا الفندق عند سفرهم إلى ساوثهامبتون أو عودتِهم منها. وأكاد أجزمُ أن المسافرين القدامى العائدين من الشرق بعد غيابٍ لعدة سنوات لا يزالون يَفِدون إلى هذا الفندق. لاحِظا أنه قريبٌ من المحطة، والمسافرون يميلون لحطِّ رِحالهم في أقربِ مكانٍ بعد قطعهم آلافَ الأميال بالسُّفن البخارية والقطارات. انظرا هنا!» كانوا قد عبَروا عتبةَ الفندق أثناء حديث المحقِّق، وعندما دخلوا قاعةً مربعة كثيرة الأثاث أومأ برأسه مشيرًا إلى مَشربٍ على اليسار فيه عددٌ من الرجال، منهم الواقفون ومنهم الجالسون، يبدو من مظهرهم العامِّ وقبعاتهم المائلة ووجوههم التي لفحتها الشمس فأكسبَتها اللونَ البرونزي، أنهم كانوا في المستعمَرات، أو ممَّن قضَوا مدةً طويلة في حياتهم تحت سماء الشرق. فضلًا عن أن لكنة المستعمرين بدَت في أصوات الأحاديث المتداخِلة بينهم، وفاحت في جوِّ المكان رائحةُ تبغٍ تدل على سومطرة أو تيروشينابيلي، وهز راثبري رأسه في ثقة وقال: «أراهِنُك على أي شيء أن الرجل كان من المستعمرين يا سيد سبارجو. حسنًا، والآن، أظن أن هذا هو صاحب المكان وزوجته.»

كان في مواجَهتهم مكتبٌ في مؤخرة القاعة، وكان رجلٌ وامرأة يُتابعانهم من نافذةٍ مفتوحة فوق منضدة كان عليها سجلُّ النزلاء. كانا في منتصف العمر؛ الرجلُ لحيمٌ ذو وجهٍ مستدير يبدو عليه بعض الاعتداد بنفسه، ربما كان رئيسًا للخَدَم يومًا ما؛ والمرأةُ

طويلةُ القامة، نحيفةُ القَوام، دقيقةُ الملامح، عيناها حادَّتان تَحدِج بهما الوافِدين بنظراتٍ متفحصة تَسبُر أغوارَهم. توجَّه راثبري إليهما في ثقةٍ وأريحية.

وسأل: «هل أنت صاحبُ هذا المبنى يا سيدي؛ السيد وولترز؟ وأنتِ السيدة وولترز على ما أعتقد؟»

انحنى صاحب المبنى انحناءةً متصلبة ورمقَه بحدة.

ثم سأله: «كيف يُمكِنني مساعدتُك سيدي؟»

رد السيد راثبري وهو يسحب بطاقةَ عمل: «مسألة عمل بسيطة يا سيد وولترز. يمكنك أن تعرف مَن أنا مِن هذه البطاقة ... المحقِّق الرقيب راثبري من سكوتلاند يارد. وهذا السيد فرانك سبارجو، صحفي، وثالثُنا السيد رونالد بريتون، محامٍ.»

لما سمعتِ السيدةُ أسماءَهم وصفاتهم أشارتْ إلى بابٍ جانبي وأومأت لراثبري ورفيقَيه بالدخول. تبعوا إشارةَ إصبَعِها إلى غرفة خاصة صغيرة. أغلق وولترز بابَي الغرفة ونظر إلى زائره الرئيسي.

سأل وولترز: «ما الأمر يا سيد راثبري؟ هل مِن خطب؟»

أجاب راثبري فيما يُشبه اللامبالاة: «نريد بعض المعلومات.»

واستأنف حديثه قائلًا: «هل نزَلَ لديكم أمسِ شخصٌ يُدعى ماربري ... رجلٌ مُسِن، حليقُ الوجه، ذو شعر رمادي؟»

جفَلَتِ السيدة وولترز ونظرتْ إلى زوجها.

قالت: «ألم أقُلْ لك؟ كنتُ أعلم أنهم سيُجْرون تحقيقًا. نعم، هناك سيد يُدعى ماربري استأجر غرفةً هنا صباحَ أمسِ، بعد وصول قطار الظهيرة من ساوثهامبتون مباشَرةً. استأجر الغرفةَ رقم ٢٠. لكنه لم يستخدمها الليلةَ الماضية، بل خرج في وقتٍ متأخر جدًّا ولم يَعُد منذ ذلك الحين.»

أومأ راثبري برأسه. واستجابةً لإشارةٍ من مالك الفندق، سحب كرسيًّا وجلس، ثم نظر إلى السيدة وولترز.

وسألها: «ما الذي جعلك تظنين أنَّ تحقيقًا سيُجرى يا سيدتي؟ هل لاحظتِ شيئًا ما؟»

بدا على السيدة وولترز بعضُ الارتباك لهذا السؤال المباشِر. ونفخ زوجُها مزمجرًا.

ثم تمتم: «لم يكن هناك شيءٌ جديرٌ بالملاحظة. لكن هذه طريقتها في الحديث، هذا كل ما هنالك.»

وقالت صاحبة الفندق: «سبب قولي ذلك أن السيد ماربري أخبرنا أنه لم يَزُر لندن منذ أكثرَ من عشرين عامًا، وأنه لا يتذكَّر أيَّ شيء عنها، بل لم يعرف الكثيرَ عنها يومًا. وبالطبع عندما خرج في ذلك الوقت المتأخر ولم يَعُد خمَّنتُ أنَّ مكروهًا أصابه، وأن أسئلةً ستُثار حول الأمر.»

قال راثبري: «أصبتِ يا سيدتي، تفكيرٌ سليم. الأمر أن مكروهًا أصابه بالفعل. لقد مات. ليس ذلك فحسب، بل هناك سببٌ قوي للاعتقاد أنه قُتِل.»

تلقَّى السيد وولترز وقرينتُه الخبرَ بذهول وذعر طبيعيَّين، وعرض مالكُ الفندق على زوَّاره بعض المرطبات. فرفض سبارجو وبريتون متعلِّلَين باضطرارهما إلى العمل بعد الظهيرة، أمَّا راثبري فقد قَبِل العرضَ بتلقائية.

قال وهو يرفع كأسه: «خالص احترامي لكما. والآن، لِمَ لا تُخبراني إذن بما تعرفانه عن هذا الرجل؟ يجدر بي أن أُخبركما أيضًا يا سيد وولترز ويا سيدتي أن السيد ماربري عُثِر عليه ميتًا في زقاق ميدل تمبل في الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقةً من صباح اليوم، ولم يُعثَر معه على أيِّ شيء غير ملابسه وقُصاصةٍ ورقية رماديةِ اللون تحمل اسمَ هذا الرجل وعنوانَه، وهذا الرجل لا يعرف عنه شيئًا على الإطلاق، وقد تتبَّعتُ أثرَه إلى هنا لأنه اشترى قبعةً من صانع قبعاتٍ في الطرَف الغربي من المدينة أمس، وطلب إرسالَها إلى فندقكما.»

قالت السيدة وولترز بسرعة: «هذا صحيح، وخرج معتمرًا تلك القبعةَ ليلة أمس. لا نعلم الكثير عنه. فكما قلت لك، جاء إلى هنا قرابةَ الثانيةَ عشرة والربع من صباح أمس، وحجز الغرفة رقم ٢٠. كان معه حمَّال يحمل صندوقًا وحقيبة ... موجودان في الغرفة ٢٠ الآن بالطبع. أخبرني أنه كان قد نزل في هذا الفندق منذ أكثرَ من عشرين عامًا وهو في طريقه إلى أستراليا ... كان ذلك بالطبع قبل أن نتولَّى إدارتَه بوقتٍ طويل. ووقَّع في السجلِّ باسم جون ماربري.»

قال راثبري: «هلا سمحتِ لنا بإلقاء نظرة!»

أحضر وولترز السجلَّ وفتحه على صفحة اليوم السابق، ومالوا جميعًا يتفقَّدون ما كتبه الرجل الميت.

قال راثبري: «جون ماربري، كولومبدجي، نيو ساوث ويلز. كنت أتساءل ما إذا كان الخطُّ مماثلًا للذي وُجد على قصاصة الورق تلك يا سيد بريتون. لكن يُمكنك أن ترى أنه غير مماثل، بل مختلفٌ تمامًا.»

وافَقه بريتون بقوله: «مختلف تمامًا.» كان هو الآخر يتفحَّص الخطَّ باهتمامٍ بالغ. ولاحظ راثبري فحصه الدقيق للخط، وسأل سؤالًا آخَر:

«هل رأيتَ هذا الخط من قبلُ؟»

أجاب بريتون: «كلا، لم أرَه قط. ومع ذلك يبدو مألوفًا جدًّا.»

قال راثبري: «إذن فالاحتمال الأرجحُ أنك رأيته من قبلُ بالفعل. والآن لنتعرَّف على المزيد عما كان يفعله ماربري هنا. فقط أخبراني بكل ما تعرفان، السيد والسيدة وولترز.»

قال وولترز: «زوجتي تعلم معظم التفاصيل. أما أنا فلم أرَ الرجل إلا لمامًا ... ولا أتذكر أني تحدثتُ معه.»

قالت السيدة وولترز: «لا. لم تتحدَّث معه بالفعل، لم تلتقِ به كثيرًا.» وواصَلت: «أنا مَن صاحبته إلى غرفته. تحدث قليلًا ... قال إنه وصل إلى ساوثهامبتون لتوِّه قادمًا من ملبورن.»

سأل راثبري: «هل ذكر اسم سفينته؟ لا مشكلة إن لم يكن قد ذكرها، هذا لا يهم؛ لأننا يمكننا الوصولُ إلى تلك المعلومة.»

قالت السيدة وولترز: «أعتقد أن الاسم مكتوب على أغراضه. هناك بعض الملصَقات من ذلك النوع. طلب طهي ريشةِ لحم له على الفور؛ لأنه كان ينتوي الخروج. تناول ريشة اللحم ثم خرج في تمام الواحدة، وقال لي إنه يتوقع أن يضلَّ طريقه لأنه لم يكن يومًا خبيرًا بدُروب لندن؛ لذا لم يتوقَّع أن يعرفها على الإطلاق الآن. خرج من هنا، رأيته، نظر حوله ثم مشى نحوَ طريق بلاكفرايرز. وبعد الظهيرة وصلت القبعة التي تحدَّثت عنها من متجر فيسكي. لذا استنتجت بطبيعة الحال أنه مرَّ بطريق بيكاديلي. لكنه لم يَعُد هو نفسه إلا في العاشرة. ثم إنه كان برفقة رجلٍ آخَر.»

قال راثبري: «حقًّا؟ رجل آخر؟ هل رأيتِه؟»

ردت السيدة وولترز: «لم أكَدْ أراه؛ فقد توجَّها إلى الغرفة ٢٠ على الفور، ولمحت الرجل لمحة سريعة وهما يصعدان الدَّرَج. كان رجلًا طويلَ القامة، قويَّ البِنية، لحيته بيضاء، مهندمَ الملبس حسَبما رأيت، يرتدي قبعةً ووشاحًا حريريًّا أبيضَ حول عنقه، ويحمل مظلة.»

قال راثبري: «وصعدا إلى غرفة ماربري، ثم ماذا؟»

قالت: «بعد ذلك طلب السيد ماربري ويسكي وصودا. وأكَّد على طلب قنينة من الويسكي، فحُمِلت إليه هي والصودا. ولم أسمع شيئًا آخرَ حتى منتصف الليل تقريبًا،

ثم أخبرني الحارس أن نزيل الغرفة ٢٠ خرج، وسأله عما إذا كان هناك حارسٌ يعمل بالليل، وبالطبع يوجد حارس يعمل ليلًا. وخرج في الحاديةَ عشرةَ والنصف.»

سأل راثبري: «والرجل الآخَر؟»

أجابت صاحبة الفندق: «الرجل الآخر خرج معه، قال حارس البهو إنهما توجَّها نحو المحطة. وكان هذا آخِرَ ما رأى أيُّ شخص في هذا المبنى من السيد ماربري. وبالطبع لم يَعُد.»

قال راثبري مبتسمًا في هدوء: «بالطبع سيدتي، إذن أفترِضُ أن علينا معايَنةَ الغرفة ٢٠ هذه، لنرى ما تركه فيها.»

قالت السيدة وولترز: «كل شيء تُرِك على حاله. لم يُلمَس شيء.»

بدا لاثنين من الزوَّار أنه لم يكن في الغرفة ما هو جديرٌ بأن يلمسه أحد؛ فعلى منضدة الزينة كانت هناك بعض أغراض الزينة العادية، ليس من بينها ما له جودةٌ أو قيمة تُذكَر، يبدو أن الرجل الميت كان يكتفي بالضروريات البسيطة. وكان في الغرفة معطفٌ معلَّق على مشجب، ففتَّش راثبري جيوبَ المعطف في هدوء، وبالهدوء نفسِه فحص الصندوق والحقيبة اللذَين وَجَد قُفلَيهما مفتوحَين، وضع كل ما كان فيهما من أغراض على السرير، وفحص كلَّ غرض منها على حِدةٍ بعناية. لم يجد ما يُستدَل به على هُوِية مالك الأغراض الميت.

ثم قال مُنْهيًا مهمته: «ها نحن ذا! أترون، هذه الأغراض لا تختلف في قيمتها كدليلٍ عن الملابس التي كانت عليه. لا توجد أوراق، ولا يوجد شيء يُستدَل به على هُوِيته أو ما كان عازمًا على فعله أو من أين جاء، يُمكِننا التوصُّل لهذه المعلومات بطرق أخرى، لكنه من النادر أن يُسافر رجلٌ دونَ أي شيء يُستدَل به على هُوِيته. فبخلاف أنَّ بعض هذه الملابس الداخلية اشتُرِيَت من ملبورن، لا نعرف شيئًا عنه. مع ذلك لا بد أنه كان يحمل معه أوراقًا وأموالًا.» والتفتَ إلى السيدة وولترز فجأةً وسألها: «هل أخرج حافظةَ نقوده في حضورك؟»

أجابت صاحبة الفندق فورًا: «نعم، جاء إلى الحانة ليتناولَ مشروبًا بعد أن كان في غرفته، وأخرج حفنةً من العملات الذهبية وهو يدفع ثمن المشروب، بل ملأ يده منها، لا بد أنها كانت بين الثلاثين والأربعين عملة من فئتَي السوفرن ونصف السوفرن.»

تمتم راثبري: «وبالرغم من ذلك لم يُعثَر معه على بنس واحد عندما عُثِر عليه.»

قالت صاحبة الفندق: «لاحظتُ شيئًا آخر. كان يرتدي ساعة وسلسلة ذهبيتَين فاخرتَين، وخاتَمًا رائعًا في خنصر يُسْراه، خاتمًا ذهبيًّا، مرصَّعًا بماسة كبيرة.»

قال المحقق متفكرًا: «نعم، لاحظتُ أنه كان يرتدي خاتمًا، وأنه كان ضيقًا عليه بعضَ الشيء. إذن لم يتبقَّ إلا شيءٌ واحد ينبغي أن أسأل عنه: هل لاحظَتْ عاملةُ تنظيف الغرف أيَّ أوراق ممزَّقة تركها، أو أنه مزَّق أيَّ خطابات، أيَّ شيء من هذا القبيل؟»

جاءت عاملةُ تنظيف الغرف، وأفادت بأنها لم تُلاحِظ شيئًا من هذا القبيل، بل على العكس، فقد ترك نزيل الغرفة رقم ٢٠ غرفتَه مرتَّبةً للغاية. وبعد ذلك قال راثبري إنه ليس لديه أسئلة ولا أقوال أخرى في ذلك الحين، وودَّع صاحبَ فندق أنجلو أورينت وزوجته، وانصرف يتبعه الشابان.

سأل سبارجو: «ماذا بعدُ؟» وهم يسيرون في الشارع.

أجاب راثبري: «المهمة التالية أن نجد الرجل الذي غادَر ماربري هذا الفندق برفقته الليلةَ الماضية.»

سأل سبارجو: «وكيف يُمكِننا ذلك؟»

رد راثبري: «لا أعرف في الوقت الراهن.»

ثم أومأ بلا اهتمام، ومضى في طريقه، وبدَت عليه رغبةٌ في البقاء بمفرده.

الفصل الخامس

سبارجو يقرِّر التخصُّص

تُرِك المحامي والصحفي بفظاظة على الرصيف المزدحم، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر. وضحك بريتون.

وقال: «لا يبدو أننا حصلنا على الكثير من المعلومات. لم أتوصَّل إلى جديد يُذكَر.»

قال سبارجو: «بل توصَّلتَ إلى جديد. أنا على الأقل فعلت. فالآن أعرف أن الرجل الميت يُدعى جون ماربري، وجاء من أستراليا، ولم يصل إلى ساوثهامبتون إلا صباحَ أمس، وأنه كان الليلةَ الماضية برفقةِ رجلٍ لدينا أوصافُه؛ وهو رجلٌ طويلُ القامة، ذو لحية بيضاء، مُهندَمُ الملبس، يُفترض أنه رجلٌ نبيلُ المَحتِد.»

رفع بريتون كتفَيه.

وقال: «هذه الأوصاف تنطبق على مائةِ ألفِ رجلٍ في لندن.»

رد سبارجو: «بالضبط، هذا صحيح. لكننا نعرف أنه كان أحدَ هؤلاء المائة ألف، أو نصف المليون حتى. المهم أن نجد ذلك الرجل بالتحديد ... الرجل الصحيح.»

قال بريتون: «وتعتقد أنه يُمكِنك ذلك؟»

رد سبارجو: «أعتقد أني سأبذل قُصارى جهدي.»

هز بريتون كتفَيه مجددًا.

وقال: «ماذا عساك ستفعل؟ أستذهب إلى كلِّ رجلٍ تنطبق عليه الأوصاف وتقول له: «سيدي، هل أنت مَن كان برفقة جون ماربري في فندق أنجلو ...»؟»

قاطَعه سبارجو فجأةً قائلًا:

«اسمع! ألم تقُل إنك تعرف رجلًا يعيش في ذلك الشارع الذي وُجِد ماربري في مدخله؟»

أجاب بريتون: «نعم، لم أقل ذلك. السيد إيلفيك هو مَن قال ذلك. ولكن على أي حال أنا أعرف الرجلَ المقصود، إنه السيد كاردلستون، مُحامٍ آخَر. هو والسيد إيلفيك صديقان، ويهوَيان جمعَ الطوابع ... وأنا أكاد أجزمُ أن السيد إيلفيك كان هناك الليلةَ الماضية يتفحَّص غنيمةً جديدة حصل عليها كاردلستون. لماذا تسأل؟»

رد سبارجو: «أودُّ أن آخذَ جولةً وأطرحَ بعض الأسئلة، هلا تكرَّمتَ ب...»

أجاب بريتون في حماس: «سآتي معك! فأنا مهتمٌّ بهذه القضية مثلك تمامًا يا سبارجو! أودُّ أن أعرف مَن يكون السيد ماربري هذا، وكيف وصلَتِ القُصاصةُ التي تحمل اسمي وعُنواني إليه. لو كنتُ ذائعَ الصيت في مهنتي لَكان ...»

قاطَعه سبارجو وهما يركبان سيارةَ أجرة: «نعم، لَفسَّرَ ذلك الكثيرَ. يبدو لي أننا سنُوقِع بالقاتل من خلال قصاصةِ الورق أسرعَ بكثير من المسار الذي يسلكه راثبري. نعم، هذا ما أعتقده.»

نظر بريتون إلى رفيقه في اهتمام.

وقال: «لكنك لا تعرف مسار راثبري.»

قال سبارجو: «بل أعرف. ذهب راثبري يتحرَّى عن هُوِية الرجل الذي غادَر ماربري فندقَ أنجلو أورينت برفقته. هذا هو مساره.»

سأل بريتون: «وخُطتُك أنت هي ...؟»

قال سبارجو: «أريد أن أتعرَّف على دلالة قصاصة الورق بالكامل، وهُوِيَّة مَن كتبها. أريد أن أعرف لماذا كان ذلك العجوز في طريقه إليك عندما قُتِل.»

جفَلَ بريتون.

وقال باندهاش: «يا إلهي! لم يخطر ذلك ببالي، هل تظنُّه فعلًا كان قادمًا إليَّ عندما تعرَّض للاعتداء؟»

رد سبارجو: «بالتأكيد. ألم يكن معه عُنوان في زقاق تمبل؟ ألم يكن هناك في تمبل؟ بالطبع كان يُحاوِل العثورَ عليك.»

قال بريتون: «لكن، في تلك الساعة المتأخرة؟»

قال سبارجو: «بصرف النظر عن الساعة. كيف تُفسِّر إذن وجودَه في تمبل إن لم يكن قادمًا إليك؟ أعتقد أنه كان يسأل عن الطريق. لهذا أريد أن أطرح بعضَ الأسئلة في ذلك الشارع.»

بدا لسبارجو أن عددًا كبيرًا من الناس — الكثير منهم من السُّعاة — كانوا يُريدون طرْحَ الأسئلة عن الرجل الميت. وكان الوقت وقتَ الغداء، فاكتظَّ الجزء من زقاق ميدل تمبل

الذي عُثِر فيه على الجثة بالفضوليِّين والباحثين عن الإثارة، فقد كان نبأ الجريمة قد ذاع، وبالرغم من أنه لم يكن هناك شيءٌ ليراه أحدٌ سِوى الأرضيةِ الصمَّاء التي كانت الجثة مُسجاةً عليها، فقد كان حولَ المدخل عددٌ من الأفواهِ الفاغرة والأعينِ المحدِّقة يَفُوق أيَّ عددٍ منها رآه سبارجو لأيام عديدة. وزاد الإزعاج لدرجةٍ اضطُر معها شاغِلو المساكن المجاورة إلى طلبِ شرطيٍّ لإبعاد الفضوليِّين، وعندما قَدِم سبارجو ورفيقُه أنفسُهما عند المدخل كان الشرطي يتلقَّى تقريعًا وتذكيرًا بواجباته على لسانِ رجلٍ ذي وجهٍ ناحل يرتدي ملابسَ مهترئةً قديمةَ الطِّراز، ويعتمر قبعةً حريرية عتيقة، وبدا أن الرجل قد انزعج للغاية من الضجيج غيرِ المرغوب فيه.

قال الرجل: «اطرُدهم جميعًا إلى الشارع! أبعِدْهم عن هنا أيها الشرطي، أخرِجْهم إلى شارع فليت أو إلى إمبانكمنت أو إلى أيِّ مكان، المهم أن تُخلِّص هذا المكانَ منهم. هذه مَهْزلة، إزعاج، وضجيج …»

همس بريتون: «هذا هو العجوز كاردلستون. دائمًا غاضِب، ولا أعتقد أننا سنعرف منه شيئًا.» كان العجوز يتراجع صاعدًا الدَّرَجَ الحجري ويلوح بمظلة قديمة مثله. واصَل بريتون وهو يتجه نحوه: «السيد كاردلستون، كنتُ قادمًا لمقابَلتك يا سيدي. هذا هو السيد سبارجو، صحفي، وهو مهتمٌّ كثيرًا بجريمة القتل. إنه …»

قال السيد كاردلستون: «لا أعرف شيئًا عن جريمة القتل هذه يا سيدي! ولا أتحدَّث إلى الصحفيِّين أبدًا … إنهم ثُلَّة من المتطفِّلين يا سيدي، مع احترامي. لكني لم أعلم أن جريمةَ قتلٍ ارتُكِبت، وأعترض على احتشادِ ثُلةٍ من السُّعاة والمتسكعين في الشارع أمام بابي. هي جريمةُ قتلٍ إذن! أغلب الظن أن الرجل تعثَّر على هذا الدَّرَج وسقط وانكسرَت رقبته، مخمور، على الأغلب.»

فتح بابه الخارجي وهو يتكلم، وتبعه بريتون بابتسامة مطمئنة وإيماءة لسبارجو، إلى داخل مسكنه في الطابق الأول، وأشار بريتون لسبارجو ليتبعَهما.

قال بريتون: «قال لي السيد إيلفيك إنه كان معك حتى ساعةٍ متأخرة من مساءِ أمسِ يا سيد كاردلستون. ألم يسمع أيٌّ منكما شيئًا مثيرًا للريبة؟»

سأل السيد كاردلستون غاضبًا: «وأي شيء مثير للريبة عسانا أن نسمع في تمبل يا سيدي؟ أتمنى أن يظل تمبل خاليًا من هذه الأشياء أيها الشاب بريتون. أمضيت مع معلمك الموقَّر أمسيةً هادئة نفعل أشياءَنا الهادئة المعتادة، وعندما انصرف كان كلُّ شيء ساكنًا كالقبور يا سيدي. لكني لا أعرف ما الذي ربما كان يجري في المساكن التي تعلو

مسكني أو تُحيط به. لحُسْن الحظ أن الحوائط لدينا سميكة، متينة. رأيي يا سيدي أن الرجل سقط وانكسرَت رقبته على الأغلب. أمَّا ما كان يفعله هنا فلا علمَ لي به.»

قال بريتون وهو يغمز لسبارجو ثانيةً: «إنه مجردُ تخمينٍ يا سيد كاردلستون. لكن كل ما عُثِر عليه مع ذلك الرجل كان قُصاصةً من الورق مكتوبًا عليها اسمي وعُنواني. وهذا كل ما نعرف عنه تقريبًا، بالإضافة إلى أنه كان قد وصل لتوه من أستراليا.»

التفتَ السيد كاردلستون فجأةً إلى المحامي الشابِّ، ورمَقه بنظرة حادَّة ثاقبة.

قال متعجبًا: «حقًّا؟ ماذا تقول؟ أتقول إن هذا الرجل كان يحمل معه اسمَك وعُنوانك؟! اسمك وعنوانك أنت؟! وأنه جاء من ... أستراليا؟»

قال بريتون: «هذا صحيح. هذا كل ما نعرف.»

نحَّى السيد كاردلستون مِظلتَه، وأخرج مِنديلًا ذا ألوانٍ فاقعة، وتمخَّط متفكرًا.

وقال: «هذا غريب. هل يعرف إيلفيك كل ذلك؟»

نظر بريتون إلى سبارجو كما لو كان يسأله عن التغيُّر الذي بدا على انفعالات السيد كاردلستون. فالتقط سبارجو طرَفَ خيط الحديث.

وقال: «كلا. كل ما يعرفه السيد إيلفيك هو أن اسمَ السيد رونالد بريتون وعنوانَه كانا على قصاصةِ ورق عُثِر عليها مع الجثة. السيد إيلفيك ...» وهنا توقَّف سبارجو ونظر إلى بريتون، ثم واصَلَ وهو يُعيد اتجاهَ نظره ببطءٍ إلى المحامي العجوز: «السيد إيلفيك تحدَّث عن الذَّهاب لمعايَنة الجثة.»

قال السيد كاردلستون متحمسًا: «حقًّا! أيُمكن رؤيتُها؟ إذن سآتي لرؤيتها. أين هي؟»

فبادَره بريتون.

وقال: «لكن سيدي العزيز! لماذا؟»

أمسك السيد كاردلستون مظلتَه من جديد.

وقال: «لديَّ فضولٌ مبرَّر لحلِّ لغزِ ما حدث على بابي. كما أني أعرف عدةَ رجال زاروا أستراليا. وهناك احتمال — مجرد احتمال أيها الشابَّان — أن يكون الرجلُ واحدًا ممَّن لي معرفةٌ سابقة بهم. دُلَّاني على مكان هذه الجثة.»

نظر بريتون إلى سبارجو في حيرة، كان واضحًا أنه لا يفهم التحوُّلَ المفاجئ في سير الأمور. لكن سبارجو أسرعَ باغتنامِ الفرصة. وبعد ذلك بدقيقةٍ كان يقود السيد كاردلستون عبر دُروبِ تمبل متجهًا إلى بلاكفرايرز. وحين انعطفوا إلى شارع تيودور صادَفوا السيد إيلفيك.

قال السيد إيلفيك: «أنا ذاهبٌ إلى المشرحة. أظنك ذاهبًا إلى هناك كذلك يا كاردلستون، صحيح؟ هل اكتُشِف أيُّ جديد أيها الشاب؟»

رد سبارجو محاوِلًا إصابةَ هدفٍ لا علمَ له به: «اسم الرجل هو ماربري، وكان من أستراليا.»

أبقى عينَيه معلقتَين بالسيد إيلفيك، لكنه لم يلاحظ عليه أيَّ مفاجأة كالتي بدَت على السيد كاردلستون قبله. بدت على السيد إيلفيك اللامبالاة.

قال إيلفيك: «حقًّا؟ ماربري؟ ومن أستراليا. حسنًا ... أريد أن أرى الجثةَ إذن.»

انتظر سبارجو وبريتون خارج المشرحة في حين دخل الرجلان الكبيران. وعندما خرجا لم يُفيدا بشيء.

قال السيد إيلفيك في هدوء: «لا نعرف الرجل. فكما قال لك السيد كاردلستون سابقًا — حسَبما علمت — لقد كنا نعرف رجالًا زاروا أستراليا، ونظرًا إلى أن هذا الرجل كان يتجوَّل في تمبل كما هو واضح، ظننَّاه واحدًا منهم عاد من سفره. لكننا لم نتعرَّف عليه.»

وقال السيد كاردلستون: «لم نتعرَّف عليه.»

غادَرا معًا كتفًا إلى كتف، ونظر بريتون إلى سبارجو.

وقال: «كما لو كان أحد على الأرض يتوقَّع أن يتعرَّفا عليه! ماذا ستفعل الآن إذن يا سبارجو؟ عليَّ الانصراف.»

كان سبارجو يدسُّ عصا المشي التي يستخدمها في صدع في الرصيف متفكرًا، ثم قطع تأمُّلَه فجأةً وقال:

«أنا؟ سأذهب إلى المكتب.» واستدار فجأةً ومشى مباشَرةً إلى غرف التحرير في مقر صحيفة «ووتشمان»، ودلف إلى واحدةٍ منها كان يجلس فيها سكرتير رئيس التحرير.

قال سبارجو: «حاوِلْ أن تُرتِّب لي موعدًا لدقائقَ قليلة مع رئيس التحرير.»

رفع السكرتير الخاصُّ نظره إليه.

وسأل: «هل الأمر مهم؟»

أجاب سبارجو: «خطير! رتِّبِ الموعد.»

ما إن انفرد سبارجو بالرجل الأهمِّ الذي كان يعرف سِماته الشخصيةَ من قبلُ، حتى مضى في حديثه ولم يُهدِر أيَّ وقت.

قال سبارجو: «سمعتَ عن جريمة القتل التي وقعَتْ في زقاق ميدل تمبل، صحيح؟»

ردَّ رئيس التحرير باقتضاب: «الحقائق المؤكَّدة فحسب.»

واصَل سبارجو: «كنتُ في المكان عندما عُثِر على الجثة.» ولخَّص له ما فعَله. ثم قال: «أنا متأكد من أن الأمرَ بالغُ الغرابة. إنه لغزٌ بكل ما تحمل الكلمة من معنًى. أريد أن أُكرِّس انتباهي له. أريد التخصص فيه. يمكنني أن أبنيَ عليه قصةً صحفية لم نحظَ بمثيلٍ لها منذ وقتٍ طويل، طويل جدًّا. أعطِني إياها. اسمح لي بتغطيتِها، وأعطني عمودَين في عدد صباح الغد كبداية. سأجعل منها قصةً ضخمة.»

نظر رئيس التحرير من فوق مكتبه إلى وجه سبارجو الذي يعلوه الحماس.

وقال: «ماذا عن أعمالك الأخرى؟»

رد سبارجو: «كل شيء على ما يُرام. أنا متقدِّم بأسبوعٍ كامل في كتابة المقالات والاستعراضات. يُمكِنني الجمعُ بين العملَيْن.»

شبك رئيس التحرير أطرافَ أصابعه معًا.

وقال: «هل لديك فكرةٌ عن الأمر أيها الشاب؟»

أجاب سبارجو: «لديَّ فكرة عظيمة.» وحدَّق في رئيس التحرير بإصرار، حتى ابتسم الرجل. أضاف سبارجو: «ولهذا أريد أن أُعطيها أنا. ليس الأمر تفاخرًا أو ثقةً زائدة … لكني متأكدٌ أني سأُبْلي فيها بلاءً أفضلَ من أي شخص غيري.»

فكَّر رئيس التحرير لحظةً وجيزة.

ثم قال: «هل تريد كشفَ هُوية مَن قتل ذلك الرجل؟»

أومأ سبارجو بالموافَقة مرتَين.

وقال مُصرًّا: «سأعرفه.»

أمسك رئيس التحرير قلمَ رصاصٍ وانحنى على مكتبه وقال:

«حسنًا. امضِ في ذلك. وسأمنحُك العمودَين.»

غادَر سبارجو في هدوء إلى ركنه الأثير. وأمسك رِزمةً من الأوراق وبدأ الكتابة. كان عازمًا على إظهار كيفية تحقيق الإنجاز.

الفصل السادس

شاهدٌ على اجتماع

دخل رونالد بريتون غرفةَ سبارجو بمقرِّ صحيفة «ووتشمان» صباحَ اليوم التالي، يحمل في يده نسخةً من العدد الحاليِّ للصحيفة. ولوَّحَ بها نحوَ سبارجو في حماسٍ صِبياني بعض الشيء.

وقال: «هكذا يكون العمل يا سبارجو! أهنِّئك. نعم، هكذا يكون العمل بكل تأكيد!»

كان سبارجو يُقلِّب بعض الأعداد المرفوضة في رَتابةٍ ويتثاءب.

ثم سأل بلا اهتمام: «ماذا تعني؟»

قال بريتون: «أسلوبك في كتابة القصة الصحفية. إنه أفضل مائةَ ألفِ مرة من الأسلوب التقليدي في سردِ قصصِ جرائم القتل. يكاد يكون فيه بعضُ الرومانسية!»

قال سبارجو: «ليس سوى أسلوبٍ جديد لنقل الأخبار.» وأمسك بنسخة من صحيفة «ووتشمان» ونظر إلى عمودَيه اللذين أصبحا ثلاثةَ أعمدة، وتأمَّل بعينٍ ناقدة الكلماتِ المكتوبةَ وصورةَ الرجل الميت المنشورة والرسمَ الكروكي لمدخل المبنى القائم في زقاق ميدل تمبل، والنسخةَ المطابقة لأصل القصاصة الرمادية. وواصَل: «نعم، ما هي إلا طريقة جديدة. السؤال هو: هل ستُحقِّق النتيجة المرجوَّة؟»

سأل بريتون: «أيَّ نتيجةٍ ترجو منها؟»

أخذ سبارجو علبةَ سجائر من درجه المبعثر، وقدَّمها لزائره، وأخذ منها سيجارة، ثم مال إلى الخلف في كرسيِّه ورفع قدمَيه حتى وضعهما على المكتب.

ردَّ بلا انفعال: «النتيجة المرجوَّة؟ حسنًا، النتيجة المرجوة هي اكتشاف القاتل في النهاية.»

قال بريتون: «وأنت تسعى إلى ذلك؟»

قال سبارجو: «نعم، هذا تحديدًا ما أسعى إليه.»

سأله بريتون: «لا تسعى فقط إلى كتابة الأخبار المثيرة إذن، صحيح؟»

قال سبارجو متعمدًا الحديثَ ببطء: «أنا أسعى إلى كشف قاتل جون ماربري. وسأكشفه.»

قال بريتون: «لكن الأدلة قليلة حتى الآن على ما يبدو. لا أجد شيئًا مفيدًا. ماذا عنك؟»

نفخ سبارجو دخان سيجارته فوقَه في دوَّامة محمَّلة بالرائحة.

وقال: «أريد أن أعرف الكثير. أنا متعطِّش للأخبار. أريد أن أعرف مَن هو جون ماربري. وأريد أن أعرف ماذا فعل بين خروجه من فندق أنجلو أورينت حيًّا يُرزَق، وبين العثورِ عليه في زقاق ميدل تمبل صريعًا مصابًا في جمجمته. وأريد أن أعرف من أين له بتلك القصاصة الورقية. والأهم من كل ذلك يا بريتون، أريد أن أعرف صلتَه بك!»

ونظر إلى المحامي الشابِّ متفحصًا، وأومأ بريتون بالإيجاب.

وقال: «نعم. أُقر بغرابة ذلك، لكني أعتقد أن ...»

قال سبارجو: «تعتقد ماذا؟»

قال بريتون: «أعتقد أنه رجلٌ كانت لديه مسألةٌ قانونية تَشغَله، أو يتوقَّع أن ينخرط فيها في المستقبل، وأن أحدهم زكَّاني لديه.»

ابتسم سبارجو بقليلٍ من السخرية.

وقال: «هذا جيد. كانت قضيتك الأولى والوحيدة بالأمس. وشهرتك لم تتخطَّ الحدودَ وتبلغ الآفاقَ بعدُ يا صديقي! وعلاوةً على ذلك، أليس من قواعد اللباقة الصارمة أن يتواصل الموكِّلون معكم يا معشر محامِي المرافعات من خلال محامِي الإجراءات؟»

رد بريتون في أريحية: «ملحوظتان صحيحتان تمامًا، فبالطبع لستُ ذائعَ الصيت، ومع ذلك أعرف عدةَ قضايا فُوتِح فيها محامي المرافعات وطُلِب منه تزكية محامي الإجراءات. ربما حاوَل شخص ما أن يُسدِي إليَّ معروفًا، فأعطى ذلك الرجلَ عنواني.»

قال سبارجو: «هذا وارد. لكنه ما كان ليأتيَ لاستشارتك في منتصف الليل. يا بريتون! كلما فكَّرتُ في الأمر، زاد يقيني بأن لغزًا رهيبًا يكمن وراء هذه القضية! لهذا طلبتُ من رئيس التحرير أن يسمح لي بالكتابة عنها كما فعلت هنا. كل أملي أن هذه الصورة — ولو كانت لوجه رجلٍ ميت — وهذه النسخة المطابقة للأصل من القصاصة، سيُؤديان إلى ظهورِ شخصٍ ما يمكنه أن ...»

وفي تلك اللحظة دخل الغرفةَ أحدُ الشباب المتجولين بالملابس الرسمية في دهليز مقرِّ صحيفة «ووتشمان» ذي الأعمدة الرخامية، وكانت على وجهه نظرةٌ لا يُخطِئها الناظرُ تقول إن في جَعبته أخبارًا طارئة.

تمتم سبارجو بتعليقٍ هامشي: «أراهِن أني أعرف ما الأمر.» وقال للساعي: «حسنًا، ما الأمر؟»

اقترب الساعي إلى المكتب.

وقال: «سيد سبارجو، يوجد في الأسفل رجلٌ يقول إنه يريد مقابَلَةَ شخصٍ ما للحديث عن جريمة القتل المنشورة في عدد هذا الصباح من الصحيفة. وقد كلَّفني السيد باريت بإخبارك.»

سأل سبارجو: «ومَن يكون هذا الرجل؟»

رد الساعي: «يرفض الإفصاحَ يا سيدي. أعطيتُه نموذجًا ليملأه، لكنه قال إنه لن يكتب شيئًا ... قال إن كل ما يريد هو مقابَلة الرجل الذي كتب الخبرَ المنشور في الجريدة.»

قال سبارجو: «أحضِرْه إلى هنا.» ولما خرج الساعي التفت إلى بريتون وابتسم. وقال: «كنت أعرف أن شخصًا سيظهر عاجلًا أو آجلًا. لذا تناوَلتُ فطوري متعجلًا وجئت في العاشرة، والآن، بكم تُراهِن على أن تكون المعلومات التي لدى ذلك الرجلِ قيِّمة؟»

رد بريتون: «بلا شيء. أغلب الظن أنه مهووسٌ أو ساعٍ لمواكَبة الخبر، لديه نظريةٌ يريد أن يعرضها.»

من المظهر الخارجي وللوهلة الأولى، بدا الرجل الذي أدخَلَه الساعي بعد لحظاتٍ قليلة مماثِلًا لما توقَّع بريتون. كان رجلًا ريفيًّا طويلَ القامة نحيفًا في منتصف العمر، شعره أصفر، عيناه زرقاوان، يرتدي بنطالًا رماديًّا ومعطفًا أسودَ هما أفضل ملابسه على ما يبدو، ويضع رابطةَ عنق متعددة الألوان. بهَرَته روعةُ مبنى صحيفة «ووتشمان» وفخامته، فخلع قبعته اللبادية المستديرة وهو يسير في إثر الساعي، ولما وَطِئت قدَماه السجادةَ الثخينة المترفة المفروشة على أرضية غرفة سبارجو، انحنى برأسه المجرد من القبعة للشابَّين. وجالت عيناه الزرقاوان المفتوحتان على اتساعهما في المكان المحيط به في ذهولٍ من فخامة مقر الصحيفة الحديث.

قال سبارجو: «كيف حالك سيدي؟» وأشار بإصبعه إلى أحد الكراسي الوثيرة التي يشتهر بها مكتبُ صحيفة «ووتشمان». وقال: «قِيل لي إنك تريد لقائي؟»

أومأ الزائرُ برأسه المكسوِّ بالشعر الأصفر مجددًا وجلس على طرَفِ الكرسي، ووضع قبعته على الأرض، ثم أخذها من جديد، وحاوَل أن يُثبتها على ركبته، ونظر إلى سبارجو في براءةٍ وخجل.

وقال بلهجة ريفية: «ما أريد أن أراه يا سيدي هو الرجل الذي كتب الخبرَ المنشور في صحيفتكم عن جريمة القتل التي وقعَتْ في زقاق ميدل تمبل.»

قال سبارجو: «أنت تنظر إليه الآن. أنا ذلك الرجل.»

ابتسم الزائر بلباقة.

وقال: «حقًّا سيدي؟ كانت قراءة الخبر ممتعةً بالتأكيد. ما اسمك سيدي؟ معرفةُ اسم مَن أُحدِّثه تمنحني حريةً أكبر في الحديث معه دائمًا.»

قال سبارجو: «وأنا أيضًا. اسمي سبارجو ... فرانك سبارجو. ما اسمك أنت؟»

أجاب الرجل: «اسمي ويبستر سيدي، ويليام ويبستر. أنا مُزارع في مزرعة وان آش في جوسبرتون بأوكشاير. أنا وزوجتي ...» ووزع السيد ويبستر ابتساماته على مستمعَيه ثم واصَل: «أنا وزوجتي حاليًّا في إجازة في لندن، نجد لندن مبهجةً للغاية، طقسها وكل ما فيها.»

قال سبارجو: «هذا صحيح، وأردتَ أن تُقابلني للحديث عن جريمة القتل يا سيد ويبستر، صحيح؟»

قال ويبستر: «نعم سيدي. أعتقد، وأظن اعتقادي صحيحًا، أن لديَّ ما يمكنك نشره في صحيفتك. الأمر يا سيد سبارجو حدث على النحو الذي سأشرع في سرده، إذا سمحتَ لي بحكيه بطريقتي الخاصة.»

قال سبارجو: «هذا بالتحديد هو ما أريد.»

قال السيد ويبستر: «للتأكيد، ما كنتُ لأتمكَّن من حكيه بطريقة أخرى. الأمر أني قرأتُ صحيفتَكم هذا الصباح وأنا أنتظر فطوري ... تتأخَّر وجبةُ الإفطار كثيرًا في هذه الفنادق ... وعندما قرأتُ الخبر ورأيت الصور قلت لزوجتي: «فور أن أتناول فطوري سأذهب إلى حيث تُطبَع هذه الصحيفة لإخبارهم بما لدي.» فقالت: «حقًّا؟ وماذا لديك لتخبرهم به؟ أريد أن أعرف.» وهذا ما حدث بالضبط يا سيد سبارجو.»

قال سبارجو: «السيدة ويبستر سيدة ذات مبادئ جادة. وماذا لديك لتُخبرنا به؟»

نظر السيد ويبستر إلى داخل قبعته، ثم إلى خارجها، وابتسم ابتسامةَ مَن يعلم شيئًا.

وقال: «سيدي، أمسِ خرجَت زوجتي إلى منطقةٍ يُسمونها كلافام لتناوُل الشاي والعشاء مع صديقةٍ قديمة لها تسكن هناك، وأرادتا أن تتحدَّثا بكلام السيدات لبعض

الوقت، فلم أُرافِقهما. فخطر ببالي أن أذهب لزيارة مجلس العموم. وكان جارٌ لي قد قال لي إنَّ كل ما عليَّ فعله هو أن أخبر الشرطيَّ الموجود لدى الباب أني أريد لقاءَ عضو البرلمان الذي يُمثِّلني. لذا، عندما وصلتُ إلى هناك، قلتُ لهم إني أريد لقاء ممثِّلي في البرلمان السيد ستونوود، لا شكَّ أنك سمعت عنه؛ هو يعرفني جيدًا، فسمحوا لي بالمرور، وكتبتُ له على بطاقة، وطلبوا مني الجلوس ريثما يعثرون عليه. فجلستُ في ساحة فخيمة لم يكن فيها إلا القليلُ من الناس يذهبون ويجيئون، وكانت فيها صورٌ جميلة جديرة بالمشاهدة، فأخذت أشاهدها، ثم بدأتُ ألاحظ الأشخاص القريبين مني، المنتظرين مثلي. وأقول لك يقينًا سيدي — كما هو يقيني أني رجل مُعمَّد — إن الرجل الذي نشرتم صورتَه في الصحيفة — الذي قُتِل — كان جالسًا بجواري! عرَفتُ صورته ما إن رأيتُها هذا الصباح.»

كان سبارجو يخطُّ على رِزمة من الورق بعضَ الخطوط التي لا معنى لها، ثم نظر إلى زائره فجأة.

وسأل: «متى حدث ذلك؟»

رد السيد ويبستر: «بين التاسعة والربع، والتاسعة والنصف سيدي. ربما في التاسعة وعشرين دقيقة، وربما في التاسعة وخمسٍ وعشرين دقيقة.»

قال سبارجو: «واصِلِ الحديثَ رجاءً.»

قال السيد ويبستر: «تحدَّثتُ مع هذا الرجل الميت لبعض الوقت. طوالَ المدة التي يستغرقها الأمر للقاء عضو البرلمان. ذكرتُ له أني لم تسبق لي زيارة المكان. فردَّ قائلًا: «ولا أنا، جئتُ بدافع الفضول.» ثم ضحك، ضحك ضحكةً غريبة سيدي. وبعد ذلك مباشَرةً حدث ما أنا على وشك إخبارك به.»

قال سبارجو: «تفضَّل.»

واصَل ويبستر: «حسنًا يا سيدي، جاء رجلٌ من الساحة الكبيرة التي كنا نجلس فيها؛ رجلٌ طويلُ القامة، حسَنُ الملامح، له لحية رمادية. لم تكن على رأسه قبعة، وكان يحمل الكثير من الأوراق والوثائق في يده، فظننته أحدَ أعضاء البرلمان. وفجأةً هبَّ الرجل الذي كان يجلس بجواري من مكانه وانتفض متعجبًا، و…»

رفع سبارجو يدَه. ثم نظر إلى زائره بتمعُّن.

وسأله: «هل أنت متأكِّد تمامًا مما سمعتَه يقول حين انتفض؟ متأكِّد تمامَ التأكُّد؟ لأني أظنك ستخبرنا بما قال عندما انتفض متعجبًا.»

رد ويبستر: «لن أخبرك إلا بما أنا متأكِّد منه سيدي، ما قاله عندما هبَّ منتفِضًا هو: «يا إلهي!» قالها بحدَّة، ثم ذكر اسمًا، لم أسمعه جيدًا، لكنه بدا مثل دينسوورث أو بينسوورث أو شيءٍ من هذا القبيل، ذكر أحدَ هذين الاسمَين، أو اسمًا شبيهًا لهما على أي حال. ثم أسرع إلى الرجل الآخَر ووضع يدَه على ذراعه فجأةً.»

سأل سبارجو في هدوء: «وماذا فعل الرجل؟»

قال ويبستر: «بدَتْ عليه المفاجأةُ يا سيدي. لقد انتفض. وحدَّق في الرجل. ثم تصافَحا. وبعد أن تحدَّثا معًا قليلًا بودِّية غادَرا معًا وهما يُواصِلان الحديث. وبالطبع لم أرَ أيًّا منهما بعد ذلك. لكني عندما رأيت صحيفتكم هذا الصباحَ سيدي، والصورة المنشورة فيها، قلت لنفسي: «هذا هو الرجل الذي كنت أجلس بجواره في ساحة مجلس العموم!» لا شك في ذلك يا سيدي!»

سأل سبارجو: «إذا رأيتَ صورةً لذلك الرجل الطويل ذي اللحية الرمادية، فهل يُمكِنك التعرُّف عليه منها؟»

أجاب السيد ويبستر: «بكل تأكيد سيدي. لقد راقَبتُه عن كثب.»

قام سبارجو وذهب إلى خِزانة وأخذ منها مجلدًا كبيرًا، وأخذ يُقلِّب أوراقَه عدةَ دقائق.

وقال: «تعالَ إلى هنا رجاءً يا سيد ويبستر.»

قطع المزارع الغرفةَ كما طلب منه.

قال سبارجو: «هناك مجموعةٌ كاملةٌ من صور أعضاء مجلس العموم الحاليِّ هنا. اختَرْ منها صورةَ الرجلِ الذي رأيتَه. خذ وقتَك وتأكَّد.»

ترك الزائر يُقلِّب صفحات الألبوم وعاد إلى بريتون.

وهمس: «ها نحن نقترب، ولو قليلًا. صحيح؟»

سأل بريتون: «مِمَّ نقترب؟ لا أرى ...»

قاطعَ تعبيرٌ مفاجئ عن التعجُّب أصدَره المزارعُ جملةَ بريتون.

أجاب ويبستر: «هذا هو، يا سيدي! هذا هو الرجل، يُمكِنني تمييزُه في أي مكان!»

اتجه الشابَّان إليه عبر الغرفة. وكان المزارع يُشير بإصبعه الغليظة إلى صورةٍ مكتوبٍ تحتها: الموقَّر ستيفن إيلمور، عضو البرلمان عن بروكمينستر.

الفصل السابع

السيد إيلمور

شعر سبارجو باندهاش بريتون، نظرًا لقوة ملاحظته وقدرته على المراقبة الدقيقة؛ أما سبارجو نفسه فقد حافَظ على رِباطة جأشه. وألقى على الصورة التي كان يشير إليها ويبستر نظرةً سريعة.

وقال: «حقًّا؟ أهذا هو؟»

رد ويبستر: «هذا هو الرجل يا سيدي. أُقسم بحياتي إنه هو. لا أجد صعوبةً في تمييزه يا سيد سبارجو.»

سأل سبارجو بحزم: «هل أنت متأكد تمامًا؟ الكثير من رجال مجلس العموم يُطلقون لِحاهم، والكثير من تلك اللِّحى رمادية.»

لكن ويبستر أومأ برأسه مؤكدًا.

وكرَّر: «إنه هو يا سيدي. أنا متأكد من ذلك كتأكُّدي من أن اسمي ويليام ويبستر. هذا هو الرجل الذي رأيته يتحدث مع الرجل الذي نشرتم صورتَه في صحيفتكم. لا يمكنني قولُ أكثرَ من ذلك سيدي.»

قال سبارجو: «جيد جدًّا. أشكرك بشدة. سألتقي بالسيد إيلمور. اترك لي عُنوانك في لندن يا سيد ويبستر. إلى متى ستظل في المدينة؟»

أجاب المزارع: «عنواني هو فندق بيتشكروفت في بلومزبري يا سيدي، وسأظلُّ هناك أسبوعًا آخَر. أتمنى أن أكون قد أفدتُ يا سيد سبارجو. كما أقول لزوجتي ...»

قاطَع سبارجو زائرَه بأدبٍ وانحنى له وهو يُودِّعه. والتفت إلى بريتون الذي لم يزَل يُحدِّق في ألبوم الصور.

وقال له سبارجو: «أرأيت؟ ماذا قلتُ لك؟ ألم أقل لك إني سأحصل على بعض الأخبار؟ وها قد جاءت.»

أومأ بريتون بالموافَقة. وبدا عليه التفكير.

وقال موافقًا: «نعم، أنت محقٌّ يا سبارجو!»

قال سبارجو: «إذن؟»

قال بريتون: «السيد إيلمور هو حَمِي المستقبلي كما تعرف.»

رد سبارجو: «أعرف ذلك جيدًا. ألم تُعرِّفني بابنتَيه أمس فقط؟»

سأل بريتون: «لكن كيف عرَفتَ أنهما ابنتاه؟»

ضحك سبارجو وهو يجلس إلى مكتبه.

وأجاب: «الغريزة … الحَدْس. ومع ذلك لا تقلق، على الأقل الآن. لقد توصَّلت إلى جديد؛ ماربري — لو كان هذا الاسمُ الذي نعرف به الرجل الميت اسمَه الحقيقي — كان برفقة السيد إيلمور تلك الليلة. جيد!»

سأل بريتون: «وماذا ستفعل بهذه المعلومة؟»

رد سبارجو: «ماذا سأفعل؟! سأقابل السيد إيلمور بالتأكيد.»

كان يُقلِّب صفحات دليل أرقام الهاتف والعناوين بإحدى يدَيه، وكانت اليد الأخرى قد قبضت على سماعة الهاتف الموجود على مكتبه.

قال بريتون: «اسمع. أعلم أين يكون السيد إيلمور في الثانية عشرة دومًا: نادي إيه آند بي، أتلانتيك آند باسيفيك، في حي سانت جيمس. يُمكنني أن أرافقك إذا أردت.»

ألقى سبارجو نظرةً سريعة على الساعة، ثم وضع سماعة الهاتف.

وقال: «حسنًا. الساعة الآن الحادية عشرة. عليَّ إنجاز مهمةٍ ما. سألتقي بك خارج نادي إيه آند بي في الثانية عشرة تمامًا.»

قال بريتون: «سأكون هناك في الموعد المحدد.» ثم توجَّه إلى الباب ووضع يده عليه، ثم التفت وسأل: «ماذا تتوقَّع من … مما سمعناه لتوِّنا؟»

هز سبارجو كتفَيه.

ورد: «انتظر حتى نسمع ماذا سيقول السيد إيلمور. أُخمِّن أن ماربري هذا كان أحدَ معارفه القدامى.»

أغلق بريتون الباب وانصرف، ولما أصبح سبارجو وحده بدأ يُحدِّث نفسه قائلًا:

«يا إلهي! دينسوورث أو بينسوورث، أحدهما، أو شيء من هذا القبيل. شيء ممتاز أن يكون صديقنا المزارِع قويَّ الملاحظة لهذه الدرجة. ولماذا قد يُعرَف السيد ستيفن إيلمور

باسم دينسوورث أو بينسوورث أو شيء من هذ القبيل؟ مَن يكون السيد ستيفن إيلمور؟ ما الذي لا أعلمه عنه؟»

توجَّهَت أصابع سبارجو على نحوٍ غريزي إلى واحد من المراجِع الموضوعة على مكتبه، وقلَّب الصفحات في سلاسةٍ ناتجة عن طول الدُّربة إلى صفحةٍ جالت فيها عيناه بالسلاسة نفسِها. وقرأ بصوت عالٍ:

> إيلمور، ستيفن، عضو بالبرلمان عن بروكمينستر منذ ١٩١٠. أماكن السكن: ٢٣ ساحة سانت أوسيث، كينسينجتون، بوينا فيستا، جريت مارلو. عضو في نادي أتلانتيك آند باسيفيك ونادي سيتي فينتشررز. مهتم بالتجارة في أمريكا الجنوبية.

وضع سبارجو المرجع وتمتم: «إممم! هذا ليس مفيدًا جدًّا. ومع ذلك، انتهينا من خطوة. وحان وقت أخذ الخطوة التالية.»

راجَع سبارجو ألبوم الصور، وأخذ منه صورةَ السيد إيلمور ببراعة، ووضعها في مظروف، ثم أودعَ المظروفَ في جيبه، وخرج من المكتب، ثم أوقَفَ سيارة أجرة، وطلب من السائق توصيله إلى فندق أنجلو أورينت. كانت هذه هي المهمة التي أخبر بريتون بها، وأراد سبارجو أن يُنجزها وحده.

كانت السيدة وولترز في مكتبها ذي النافذة المنخفضة عندما دخل سبارجو البهو؛ تعرَّفَت عليه على الفور، وأشارت إليه للدخول إلى مكتبها.

قالت السيدة وولترز: «أتذكَّرك؛ أتيتَ مع المحقق ... السيد راثبري.»

سأل سبارجو: «هل رأيتِه منذ ذلك الحين؟»

ردَّت السيدة وولترز: «كلا، وكنت أتساءل ما إذا كان سيأتي مرةً أخرى؛ لأن ...» بترت جملتها عند هذا الحد ونظرَت إلى سبارجو في تساؤل، ثم سألته: «أنت صديقه، أليس كذلك؟ أظنك تعرف كلَّ ما يعرف عن الأمر، صحيح؟»

رد سبارجو في ثقةٍ وهدوء: «هو وأنا نعمل على هذه القضية معًا. يُمكِنك إخباري بأي شيء تريدين إخبارَه به.»

فتَّشت العجوز في جيبها وأخرجتْ حافظةَ نقودٍ قديمة، ومن أحد جيوب الحافظة أخرجتْ غرضًا صغيرًا ملفوفًا بمنديلٍ ورقي.

وقالت وهي تفتح المنديل: «وجدنا هذه في الغرفة ٢٠ هذا الصباح، كانت تحت منضدة الزينة. الفتاة التي عثرَت عليها أحضرتها لي. ظننتُها قطعةَ زجاج، لكن وولترز

يقول إنه لن يُفاجَأ لو تبيَّن أنها ماسة، وبعدما وجدناها أخبرني النادل الذي حمل الويسكي إلى الغرفة ٢٠ بعدما جاء السيد ماربري مع الرجل الآخَر، أنه عندما دخل الغرفةَ كان الرجلان ينظران إلى ورقةٍ مليئة بأشياء مثل هذه. هلَّا ألقيتَ نظرة.»

لمس سبارجو الحجرَ اللامع بإصبعه.

وقال: «هذه ماسة، بكل تأكيد، ضعيها في مكانٍ آمِن يا سيدة وولترز، سأقابل راثبري بعد قليل وأخبره بها. والآن، بخصوص الرجل الآخَر، قلتِ لنا إنك رأيتِه، هل يُمكِنك التعرف عليه؟ أعني على صورته؟ هل هو هذا الرجل؟»

أدرك سبارجو من التعبير الذي ارتسم على وجه السيدة وولترز أنها كانت متأكدةً من أنه هو بلا شك، شأنها شأن ويبستر.

قالت: «أوه، نعم! هذا هو الرجل الذي جاء مع السيد ماربري، يُمكِنني تمييزُه من بين ألف شخص. أي شخص يُمكِنه تمييزه، ربما يمكنك أن تطلب من حارس البهو والنادل الذي ذكرتُه لتوِّي أن يُلقِي كلٌّ منهما نظرةً على الصورة.»

رد سبارجو: «سأقابل كلًّا منهما وحده، وأسأله ما إذا كان قد شاهَد رجلًا يُشبه الذي في هذه الصورة من قبلُ.»

تعرَّف الرجلان على صاحب الصورة على الفور ودون أيِّ مساعدة، ثم أجرى سبارجو محادَثةً أخرى مقتضبة مع صاحبة الفندق، وبعدها انطلق إلى نادي أتلانتيك آند باسيفيك، فوجد رونالد بريتون ينتظره على الدَّرَج. ولم يذكر سبارجو شيئًا عن مهمته الأخيرة، ودخلا معًا الناديَ وسألا عن السيد إيلمور.

نظر سبارجو إلى الرجل الذي دخل غرفة الزوَّار بعد لحظاتٍ في اهتمامٍ فاق المعتاد. كان يعرف السيد إيلمور بالفعل من صورته، لكنه لم يتذكَّر رؤيتَه في الواقع من قبلُ؛ كان نائب بروكمينستر واحدًا من عددٍ آخِذٍ في التناقُص من المشرِّعين المعتادين على العمل مُتوارين في هدوءٍ في اللجان، والائتمار بأمر الحزب، ولا يفرضون أنفسَهم على بؤرة الأحداث ولا يغتنمون كل سانحةٍ لنشر آرائهم. والآن بعد أن قابَله سبارجو بشحمه ولحمه تبيَّن أنه كما توقَّع؛ رجل بارد الأعصاب متحفِّظ، يبدو كمَن نشأ في مدرسةٍ ديدنُها القمعُ والصرامة، وتعلَّم ألَّا يُهدِر كلماته هباءً. لم يَبدُ عليه اهتمامٌ كبير بسبارجو عندما عرَّفه بريتون به، وكان وجهه خاليًا من أي تعبير عندما فرَغ سبارجو من شرحه لسبب الزيارة، الذي تحرَّى فيه الإيجاز.

قال بلا اكتراث: «نعم، صحيح تمامًا أني التقيتُ بماربري، وأمضيت معه القليل من الوقت في الأمسية التي تحدَّث عنها مخبرك. التقيتُ به في بهو مجلس العموم كما قال لك. وفُوجِئت برؤيته. لم أكُن قد التقيتُ به منذ ... عددٍ لا أعلمه من السنوات.»

توقَّف ونظر إلى سبارجو وبدا كأنه يتساءل عما ينبغي أن يقولَه أو لا يقوله للصحفي. التزم سبارجو الصمتَ وانتظر. وبعد قليل واصَل إيلمور:

«قرأتُ الخبر الذي كتبتَه في «ووتشمان» هذا الصباح، وكنت أتساءل الآن عندما فاجأتَني بزيارتك، عما إذا كان عليَّ التواصُل معك أو مع الشرطة. الأمر أن ...» وتوقَّف فجأةً ثم واصَل: «... أظنك تريد المعلومات من أجل صحيفتك، صحيح؟»

رد سبارجو: «لن أطبع شيئًا لا تريدني أن أطبعه. إذا أردتَ أن تُمدَّني بأي معلومات.»

قال السيد إيلمور: «حسنًا، لا أُمانع! الأمر أني لا أعلم شيئًا تقريبًا. ماربري رجلٌ كانت تربطني به ... علاقةُ عمل، من نوعٍ ما، منذ سنوات كثيرة. لا بد أنَّ عشرين عامًا انقضَت منذ آخِر مرة رأيته فيها، وربما أكثر من عشرين عامًا. وعندما جاء إليَّ في البهو تلك الليلة، بذلتُ مجهودًا لتذكُّره. وعندما التقى بي حينها طلب مني المشورة، ولما لم يكن هناك الكثيرُ لفعله في مجلس العموم تلك الليلة، ولأنه كان في يومٍ ما بمثابةِ صديقٍ لي تقريبًا، سِرت معه إلى فندقه نتجاذب أطرافَ الحديث. وأخبرني أنه جاء من أستراليا صباحَ ذلك اليوم. والشيء الأساسي الذي أراد استشارتي فيه كان الألماس. الألماس الأسترالي.»

قال سبارجو: «لم أعلم من قبلُ أن الألماس يمكن العثور عليه في أستراليا.»

ابتسم السيد إيلمور ببعض التهكُّم.

وقال: «ربما، لكن الألماس يُعثَر عليه في أستراليا من وقتٍ لآخَر، منذ عرَفها الأوروبيون، ويرى الخبراء أن كمياتٍ كبيرةً منه سيُعثَر عليها يومًا ما. على أي حال، كان ماربري قد حصل على بعض الألماس الأسترالي، وأراني إيَّاه في فندقه، أراني عددًا من الماسات. وفحصناها في غرفته.»

سأل سبارجو: «وماذا فعل بها بعد ذلك؟»

قال إيلمور: «وضعها في جيب الصديري، في كيس صغير للغاية من الجلد كان قد أخرجها منه. كانت نحو ستَّ عشرةَ ماسةً أو عشرين على الأكثر، وكانت صغيرة كلها. نصحتُه باستشارة خبير، وذكرت له اسم ستريتر. والآن يمكنني أن أخبرك كيف وصله عنوانُ السيد بريتون.»

أصاخ الشابان السمع. وعلى نحوٍ لا إرادي أحكمَ سبارجو قبضتَه على القلم الرصاص الذي كان يكتب به الملاحظات.

واصَل السيد إيلمور: «وصَلَه مني أنا. والخطُّ الذي كُتِب به على القصاصة خطي وأنا أكتب متعجِّلًا. أراد الحصول على مشورة قانونية. ونظرًا إلى قلة علمي بالمحامين، أخبرته أنه إذا زار السيد بريتون فسيتمكَّن من توصيله بمحامي إجراءات فذٍّ على أعلى مستوًى. كتبت له عنوان السيد بريتون على قصاصةِ ورقٍ قطعها من خطابٍ كان في جيبه. بالمناسبة، لاحظتُ أنه عندما عُثِر على جثته، لم يكن معه أي أوراق أو أموال، بالرغم من أني متأكد أني عندما تركتُه كان معه الكثير من الذهب، فضلًا عن تلك الماسات، ومِلْء جيبه من الخطابات.»

سأل سبارجو: «أين تركته يا سيدي؟ أظنكما غادَرتما الفندقَ معًا، أليس كذلك؟»

رد إيلمور: «بلى. لقد تمشينا لبعض الوقت عندما غادَرنا الفندق، ونظرًا إلى أننا كنا قد التقينا لتوِّنا، كان هناك الكثير لنتحدَّث بشأنه، وكانت ليلةً جميلة. عبرنا جسر ووترلوو وبعدها بوقتٍ قصير تركني. هذا كل ما أعرف. تصوُّري أنه …» وهنا توقَّف لحظة، وانتظر سبارجو صامتًا.

ثم واصَل إيلمور: «تصوُّري — الذي أعترف أنه ليس له أساسٌ قوي — أن ماربري استُدرِج إلى المكان الذي عُثِر عليه فيه، وأنه تعرَّض للسطو وقُتِل على يد شخصٍ كان يعرف أن معه أشياءَ قيِّمة. تعرُّضُه للسرقة على الأقل هو الحقيقةُ الأكيدة على أيِّ حال.»

قال بريتون في حرج: «خطرَتْ لي فكرة، ربما لا تكون راجحةً، لكنها خطرَتْ لي على أي حال، وهي أن أحد المسافرين مع ماربري ربما تعقَّبَه طوال اليوم، وزقاق ميدل تمبل يكون موحشًا بالليل كما تعرف.»

لم يعلق أحدٌ على هذا الاقتراح، وبينما كان سبارجو ينظر إلى السيد إيلمور هبَّ البرلماني واقفًا ونظر نحو الباب.

وقال: «حسنًا، هذا كل ما يمكنني إخبارك به يا سيد سبارجو. ليس كثيرًا كما لاحظت. وبالطبع سيُفتح تحقيقٌ بشأن ماربري، وسأُضطَر إلى أن أحكي كلَّ ذلك مجددًا. ولا أمانع في أن تنشر ما أخبرتُك به.»

ترك سبارجو بريتون مع حَمِيه المستقبليِّ وتوجَّه إلى مقر الشرطة في سكوتلاند يارد. كان قد تعاهَد هو وراثبري على أن يخبر كلٌّ منهما الآخَرَ بما يتوصَّل إليه من مُستجدات، وكان في جَعبته الآن ما يخبره به.

الفصل الثامن

سكرتير شركة صناديق الإيداع الآمِنة

وجد سبارجو راثبري يجلس وحدَه في غرفة صغيرة كئيبة بعض الشيء، كانت قلةُ أثاثها وإحساسُ السرية الغريبُ الذي تبعثه في النفس سِمتَين مميزتَين لها. وكانت هناك منضدةُ كتابةٍ وكرسيٌّ صُلب أو اثنان، وكانت على الحائط خريطةٌ للندن استحال لونها أو كاد، ووَجد كذلك القليلَ من الصور الباهتة لبعض العصابات البارزة في عالم الجريمة، وعددًا مُقارِبًا من المراجع البادي عليها تأثيرُ كثرةِ تقليبِ صفحاتها. وعندما دخل سبارجو على المحقق وجده جالسًا إلى الطاولة وفي فمه سيجار غير مشتعل، ومنهمكًا في رسمِ رموزٍ غير مفهومة على قصاصات من الورق على نحوٍ لم يَبدُ له هدف محدد. ولما دخل الصحفي رفع راثبري نظره إليه، ومدَّ يده يُصافحه.

وقال: «أهنئك على ما نشرته في «ووتشمان» هذا الصباح، وجدتُ قراءتَه ممتعة، حسنًا فعلوا أنْ كلَّفوك أنت بهذه المهمة، أظنك تمضي قُدُمًا فيها بلا هوادة يا سيد سبارجو، صحيح؟»

جلس سبارجو في الكرسيِّ الأقرب إلى يمين راثبري. وأشعل سيجارة، ونفث دفقة أو دفقتَين من دُخَانها، وأومأ برأسه على نحوٍ يوحي بالرد بنعم على سؤال راثبري.

وقال: «اسمع، اتفقنا بالأمس على أن نعتبر نفسَينا شريكَين في هذه المهمة، إن جاز التعبير، صحيح؟ لا بأس في ذلك.» أومأ راثبري بالإيجاب في هدوء بالغ، وواصَل سبارجو: «فهل أحرزتَ أيَّ تقدُّم؟»

دسَّ راثبري إبهامَيه في فتحتَي ذراعَي الصديري الذي كان يرتديه ومال للخلف في كرسيه، وهزَّ رأسه نافيًا.

ورد: «بصراحة، لم أُحرِز تقدمًا، بالطبع هناك الكثير من الأشياء التي تجري حاليًّا على النحو الروتيني الرسميِّ المعتاد، ورجالُنا خرَجوا يطرحون الكثير من الأسئلة، نسأل عن رحلة ماربري إلى إنجلترا، لكن كل ما نعلم حتى الآن هو أنه كان بلا شكٍّ مسافرًا على متن العبَّارة التي رسَت في ساوثهامبتون كما قال للقائمين على فندق أنجلو أورينت، وأنه نزل من السفينة كالمعتاد، وظنه الناس استقلَّ قطارًا إلى البلدة، وهو ما حدث فعلًا. هذا كل ما لدينا، وليس فيه أيُّ فائدة. أبرَقْنا إلى ميلبورن نطلب أيَّ معلومات عنه من هناك، لكني لا أتوقَّع أن يفيد ذلك كثيرًا.»

قال سبارجو: «حسنًا، وماذا تفعل أنت، أعني أنت نفسك؟ لأننا إذا كنا سنتبادل المعلومات، فعليَّ أن أعرف إلامَ يسعى شريكي، فالآن مثلًا بدا أنك كنتَ ترسم.»

ضحك راثبري وقال:

«في الحقيقة، عندما أريد التفكير في أمرٍ ما آتي إلى هذه الغرفة، فهي هادئةٌ كما تُلاحِظ، وأشخبط أيَّ شيء على الورق وأنا أفكر، كنت أفكر في خطوتي التالية، و…»

سأل سبارجو: «وهل عرَفتَ خطوتك التالية؟»

قال راثبري: «أريد أن أعثر على الرجل الذي رافَق ماربري إلى ذلك الفندق، يبدو لي أن …»

أشار سبارجو بإصبعه إلى شريكه وقال:

«أنا وجدته، وكان هذا السببَ في كتابة تلك المقالة؛ للعثور عليه. كنت أعرف أنها ستقود إليه. لم أتدرَّب على عملكم قط، لكني كنت أعرف أن تلك المقالة ستقود إليه، وهذا ما حدث.»

رمق راثبري الصحفيَّ بنظرةِ إعجابٍ وقال:

«رائع! ومَن يكون؟»

أجاب سبارجو: «سأخبرك بالقصة باختصار: هذا الصباحَ جاءني رجل يُدعى ويبستر، مُزارِع في زيارة للندن، وقال إنه كان في مجلس العموم الليلةَ الماضية وشاهَد لقاءً بين ماربري ورجل كان على ما يبدو عضوًا في البرلمان، وشاهَدهما يخرجان معًا. فعرضتُ عليه ألبومًا يضمُّ صورًا لأعضاء البرلمان الحاليِّين، فتعرَّف فورًا على صورةِ أحدهم بوصفها صورةَ الرجل المقصود. فأخذتُ الصورة إلى فندق أنجلو أورينت، وتعرَّفتِ السيدةُ وولترز أيضًا على صاحب الصورة وأنه هو مَن جاء إلى الفندق مع ماربري ثم مكث معه في غرفته بعضَ الوقت ثم غادَر معه. الرجل هو ستيفن إيلمور، نائب بروكمينستر.»

أطلق راثبري صافرةً حادَّة عبَّرتْ عما شعر به.

وقال: «أعرفه! بالتأكيد … أتذكَّر وصْفَ السيدة وولترز له الآن. لكن أوصافه مألوفة؛ طويل القامة، له لحية رمادية، حسَن الهندام. علينا إذن أن نقابل السيد إيلمور على الفور.»

قال سبارجو: «قابَلتُه، فقد زوَّدَتني السيدة وولترز بالمزيد من الأدلة. لقد وجَدوا هذا الصباحَ ماسةً منفردة على أرضية الغرفة ٢٠، وبعد أن وجدوها تذكَّر النادل الذي أخذ المشروبات إلى ماربري وضيفه تلك الليلةَ أنه عندما دخل الغرفة كان الرجلان ينظران إلى ورقة مليئة بأشياءَ مشابِهة. فذهبتُ لرؤية السيد إيلمور. أتعرف الشابَّ بريتون محاميَ المرافعات؟ التقيتَ به بصحبتي، هل تتذكَّره؟»

رد راثبري: «الشاب الذي عُثِر على اسمه وعنوانه مع ماربري. أتذكَّره.»

واصَل سبارجو: «بريتون هو خطيبُ ابنةِ إيلمور، وقد أخذني بريتون إلى النادي الذي ينتسب إيلمور إلى عضويته. وهناك قدَّم إيلمور سردًا واضحًا ومباشرًا للأمر وسمح لي بنشره. وسرْدُه هذا يوضِّح الكثيرَ من الأمور. كان إيلمور يعرف ماربري منذ أكثرَ من عشرين عامًا. ثم انقطعت عنه أخباره. ثم التقيا بالصدفة في بهو مجلس العموم في المساء السابق للجريمة. وقال له ماربري إنه يودُّ استشارته بشأن الماسات الأسترالية النادرة. فعاد معه إلى فندقه وأمضى معه بعضَ الوقت، ثم خرجا معًا حتى وصلا إلى جسر ووترلو، وهناك تركه إيلمور وعاد إلى منزله. أما قُصاصة الورق الرمادية فقد أصبح لها تفسيرٌ هي الأخرى؛ كان ماربري يبحث عن عنوان محامي إجراءاتٍ بارع، ولم يعرف إيلمور واحدًا، فقال لماربري إنه لو زار الشابَّ بريتون لَدلَّه عليه ووضعه على المسار الصحيح، فدوَّنَ ماربري عُنوانَ بريتون. هذه رواية إيلمور، لكن بها إضافة مهمة: يقول إيلمور إنه عندما ترك ماربري كان مع ماربري عددٌ من هذه الماسات في كيسٍ من الجلد، فضلًا عن الكثير من الذهب، ومِلْء جيبه من الخطابات والأوراق. لكنه عندما عُثِر عليه صريعًا في زقاق ميدل تمبل لم يكن معه شيء.»

توقَّف سبارجو وأشعل سيجارة جديدة.

ثم قال: «هذا كل ما أعرف. ماذا تستنتجُ منه؟»

مال راثبري في كرسيِّه بحركته التي يبدو أنها المفضَّلة لديه، وحدَّق في السقف المترَّب فوقه.

وقال: «لا أعرف. لكن هذا يدفع التحقيقَ قُدمًا بالتأكيد، إيلمور وماربري افترقا عند جسر ووترلو … في وقتٍ متأخر جدًّا. وجسرُ ووترلو قريبٌ جدًّا من زقاق ميدل تمبل،

لكن كيف وصل ماربري إلى زقاق ميدل تمبل دونَ أن يراه أحد؟ لقد طرحنا كلَّ ما أمكنَ من أسئلة، ولا يُمكِننا اقتفاءُ أثره بأي شكل، هناك دليلٌ على ذَهابه إلى هناك يتمثَّل في قصاصة الورق التي تحمل عنوان بريتون، ولكنْ حتى قاطِنو المستعمرات يعرفون أنْ ليس ثمةَ عملٌ يجري في ميدل تمبل في منتصف الليل، صحيح؟»

قال سبارجو: «حسنًا، لقد فكَّرتُ في احتمالٍ أو اثنين. قد يكون الرجل ممَّن يُحبون التجوُّلَ في الليل. وربما لاحَظ الأضواءَ الكثيرة القادمة من زقاق ميدل تمبل في تلك الساعة — وهذا وارد جدًّا — وربما يكون قد دخل الزقاقَ دونَ أن يُلاحِظه أحد، وهذا محتمَل. أنا نفسي تمشَّيت في زقاق ميدل تمبل ذات مرة بعد منتصف الليل، ولم أجد صعوبةً في دخوله أو الخروجِ منه. ومع ذلك، إذا كان ماربري قد قُتِل لسرقةِ ما كان يحمل معه، فكيف التقى بقاتِله أو قاتِليه هناك؟ فالمجرمون لا يتسكَّعون في زقاق ميدل تمبل.»

هز المحقِّق رأسَه نافيًا. ثم أخذ قلمَه الرصاص وطفق يرسم المزيدَ من الرموز غير المفهومة.

وفجأةً سأل: «ما فرضيتُك يا سيد سبارجو؟ أظنك كوَّنتَ فرضية.»

رد سبارجو بخشونة: «وهل كوَّنتَ أنت فرضية؟»

أجاب راثبري في تردد: «كلا، لم أكن قد كوَّنتُ فرضية حتى هذه اللحظة. ولكن الآن … الآن بعد ما أخبرتَني به، أظن بمقدوري الآن تكوين فرضية. يبدو لي أنه بعدما ترك ماربري إيلمور، تجوَّلَ ماربري وحدَه بلا هدفٍ محدد، وأنه استُدرِج إلى ميدل تمبل، وهناك قُتِل وسُرِق ما معه. يوجد الكثير من المداخل والمخارج، والممرات والزوايا الغريبة في هذه المنطقة القديمة يا سيد سبارجو، وإذا كان القاتل يعرف المنطقة جيدًا، فسيسهل عليه الاختباء إلى حين يُمكِنه الفرار في الصباح. ربما كان واحدًا ممَّن يمكنهم الدخول إلى المساكن والمكاتب … فكِّرْ إلى أي مدًى يسهل لواحدٍ من هؤلاء — فور أن يقتلَ ضحيتَه ويسرق مقتنياته — أن يكمن مُختبِئًا لساعات بعد ذلك؟ مَن يعلم؟ ربما كان الرجل الذي قتل ماربري على بُعد عشرين قدمًا منك عندما رأيتَ الجثة ذاك الصباح. أليس هذا صحيحًا؟»

وقبل أن يُبدِي سبارجو رأيَه في هذه الفرضية، دخل موظف الغرفة وهمس ببضعِ كلمات في أذن المحقِّق.

فقال راثبري: «أدخِلْه على الفور.» والتفتَ إلى سبارجو والرجل في طريقه للخروج من الغرفة وابتسم ابتسامةً ذات مغزًى. وقال: «هناك شخصٌ يودُّ الإدلاءَ بإفادةٍ حول قضية ماربري. لنأمُلْ أن تكون معلوماتٍ مفيدة.»

ابتسم سبارجو ابتسامتَه الغريبة.

وقال: «اللافت من رأيي أن كل ما على المرء فِعله لجمع الأخبار هو جذْبُ انتباه الجمهور وإثارةُ فضولهم. والأهم بعد ذلك هو أن تتحرَّى عن المعلومات ما إنْ تحصل عليها. مَن عساه يكون هذه المرة؟»

عاد الموظف برفقةِ رجلٍ يبدو عليه الهندام، يرتدي معطفًا طويلًا وقبعة حريرية، لا يُخطئ الناظر إليه سِمات رجل المدينة الواضحة عليه. نظر الرجل إلى راثبري في تأمُّل وألقى نظرةً خاطفة على سبارجو، وما إن جلس حتى التفتَ إلى المحقِّق على نحوٍ يَشِي بأنه هو تحديدًا مَن يريد الحديث معه.

وقال: «أفهم أنك الضابط المسئول عن قضيةِ قتْلِ ماربري. وأعتقد أن بإمكاني تزويدَك بمعلومات قيِّمة في هذا الشأن. قرأتُ سردًا للواقعة في صحيفة «ووتشمان» هذا الصباح، ورأيت صورةَ الرجل المقتول، في البداية كنت سأتوجَّه لمقرِّ صحيفة «ووتشمان» للإدلاء بما لديَّ من معلومات، لكنني في النهاية قرَّرت التواصُلَ مع الشرطة بدلًا من الصحافة، فقد رأيت أن الشرطة أكثرُ مسئوليةً.»

قال راثبري: «جزيل الشكر لك يا سيدي.» وحدج سبارجو بنظرة سريعة. ثم واصَل: «ما اسم سيادتك؟»

أخرج الزائر بطاقةَ تعارُف ووضعها وهو يرد: «اسمي مايرست، إي بي مايرست، سكرتير شركة لندن آند يونيفرسال لصناديق الإيداع الآمِنة. أظن أنَّ بإمكاني الحديثَ بأريحية ...» ورمق سبارجو بطرفِ عينه. ثم واصَل: «معلوماتي سرية.»

أمال راثبري رأسَه وشبك أصابعه.

وأجاب: «يُمكِنك الحديثُ بأريحية تامة يا سيد مايرست. إذا كان لما ستخبرنا به تأثيرٌ في سير قضية ماربري، فمن المرجَّح أنك ستُضطرُّ إلى تَكراره على الملأ كما تعرف يا سيدي. ولكن في الوقت الراهن كل ما ستقوله سيُعَدُّ سريًّا.»

قال مايرست: «ما سأخبركما به له تأثيرٌ أكيد على القضية. نعم يمكنني الجزم بذلك. الأمر أنه في الحادي والعشرين من يونيو، قرابةَ الساعة الثالثة بعد الظهر، جاء إلى شركتنا غريبٌ قال إن اسمه جون ماربري، وإن عنوانه فندق أنجلو أورينت في ووترلو، وطلب استئجارَ خزينةٍ صغيرة. وأوضح لي أنه يريد أن يُودِع في تلك الخزينة علبةً جلدية صغيرة أتى بها معه، وكان مظهرها عتيقًا جدًّا بالمناسبة. وأريتُه خزينةً تُطابِق ما طلب، وأخبرته بقيمتها الإيجارية، وبقواعد المكان، فاستأجر الخزينةَ ودفع إيجارَ سنةٍ مقدمًا على الفور،

وأودع العلبة الجلدية، حجمها نحو قدَمٍ مربَّعة. وبعد تجاذُب أطراف الحديث بيني وبينه عن التغيرات التي طرأت على لندن، وقوله إنه لم يرَها منذ سنوات عديدة حسَبما فهمتُ منه، أخذ مفتاحَه وانصرف. أعتقد أن هذا الرجل هو بلا شك السيد ماربري الذي عُثِر عليه قتيلًا.»

قال راثبري: «لا شكَّ في ذلك على الإطلاق يا سيد مايرست. أنا ممتنٌّ لك على المجيء إلى هنا. والآن يمكنك المواصَلة سيدي. هل أخبرك ماربري بأي شيءٍ عن محتويات العلبة؟»

رد سكرتير الشركة: «كلا، كلُّ ما قال هو إنه يريد منا إيلاءَها عنايةً فائقة.»

سأل راثبري: «ألم يُلمِّح حتى إلى ما كان فيها؟»

قال مايرست: «كلا، لكنه كان شديدَ الحرص على ألَّا تتعرَّضَ للحريق أو السطو أو العبث بأي شكلٍ آخَر، أراد طمأنةَ نفسه على ذلك. وبدا عليه ارتياحٌ شديد عندما أدرك أنه يستحيل لأحدٍ غيره أخذ ممتلكاته من خزينته.»

قال راثبري وهو يغمز لسبارجو: «نعم! مفهوم، بلا شك. وماذا عن ماربري نفسِه يا سيدي؟ ما انطباعُك عنه؟»

فكَّر السيد مايرست في هذا السؤال بعمق.

وأخيرًا أجاب: «انطباعي عن السيد ماربري أنه على الأرجحِ رجلٌ زار أماكنَ غريبة. وقبل أن ينصرف قال عن عُلْبته الجلدية ما يُمكِنني أن أسمِّيه عبارةً مميزة.»

قال راثبري: «عن عُلْبته الجلدية؟! وماذا كانت العبارة يا سيدي؟»

رد مايرست: «قال: «هذه العُلْبة في أمانٍ الآن. لكنها كانت قبل ذلك في أمانٍ أكبر. فقد كانت مدفونةً على عمقٍ كبير لسنواتٍ عديدة!»»

الفصل التاسع

تاجر الطوابع النادرة

كرَّر السيد مايرست وهو يرمق الرجلَين بنظرات متفحصة: «كانت مدفونة على عُمقٍ كبير لسنوات عديدة.» وواصَل: «أعتبر هذه العبارة عبارة مميزة جدًّا، وعميقة المغزى، أيها السيدان!»

دسَّ راثبري إبهامَيه في فتحتَي الذراعين بالصديري مرةً أخرى، وأخذ يتأرجح إلى الأمام والخلف في كرسيِّه. ثم نظر إلى سبارجو. وأدرك بخبرته في الرجال أن كلَّ ما لدى سبارجو من غرائز صحفية كانت قد استُثيرت، وأنه الآن لا يُطيق صبرًا لتقفِّي أثر الخيط الجديد إلى منتهاه.

قال راثبري: «مميزة! مميزة يا سيد مايرست! ما رأيك يا سيد سبارجو؟»

التفت سبارجو ببطء، وتفحَّص مايرست بعناية للمرة الأولى منذ دخوله عليهما. استمر الفحص عدةَ ثوانٍ؛ ثم تحدث سبارجو.

سأل بهدوء: «وماذا كان ردُّك على ذلك؟»

نقل مايرست نظره من سبارجو إلى راثبري. وقرَّر راثبري أن الوقت قد حان لإطلاع الزائر على ما لم يكن يعلم.

فقال مبتسمًا: «يجدر بي أن أخبرك يا سيد مايرست أن هذا هو السيد سبارجو من صحيفة «ووتشمان». هو مَن كتبَ المقالة التي تناولَت قضيةَ ماربري التي تحدَّثت عنها عندما دخلت. يُمكِنك أن تخمن أن السيد سبارجو شديدُ الاهتمام بالأمر، وأني أنا وهو — كلٌّ في اختصاصه — نعمل معًا. لذلك ... هل تفهمني؟» فنظر مايرست إلى سبارجو بانطباع مختلف. وبينما كان ينظر إليه، كرَّر سبارجو عليه السؤال.

«سألتك: ماذا كان ردُّك على ذلك؟»

تردَّد مايرست.

ثم رد: «لا أظنني رددتُ عليه. لم أقل شيئًا مهمًّا.»

سأل سبارجو: «ألم تسأله عمَّا كان يعني؟»

رد مايرست: «كلا، لم أسأله على الإطلاق.»

قام سبارجو من كرسيه فجأةً.

وقال وعلى وجهه شبح ابتسامة تهكُّم: «إذن فقد فوَّتَّ إحدى أفضلِ الفرص التي سمعتُ عنها! ربما تكون قد سمعتَ تلك القصة ...»

ثم توقَّف، كما لو كان لا طائلَ يُرتجى من المواصَلة، والتفتَ إلى راثبري الذي كان ينظر إليه في استمتاع.

وقال: «اسمع يا راثبري. هل من الممكن أن نُرتِّب لفتح تلك العُلْبة؟»

أجاب راثبري وهو ينهض: «يجب فتحها. لا بد من فتحها. فأغلب الظن أن الدليل الذي نبحث عنه موجودٌ بداخلها. سأطلب من السيد مايرست أن يأتيَ معي لنأخذ الخطوة الأولى لفتحها. سيكون عليَّ استصدارُ أمرٍ بذلك. ربما نتمكَّن من استصداره اليوم، وسيكون جاهزًا صباحَ الغد على أي حال.»

سأل سبارجو: «هل يمكنك أن تُرتِّب للسماح بحضوري عندما يَصدر الأمر؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ حسنًا يا راثبري، سأنصرف الآن، اتصل بي أو مُرَّ بي إذا جدَّ جديد، سأخبرك أنا أيضًا بأي جديد.»

ودون أي كلمة أخرى انصرف سبارجو متعجلًا، وعاد إلى مكتب «ووتشمان» بسرعة. وهناك كان في انتظاره المساعدُ الذي كُلِّف بانتظار أوامره في هذه المهمة الجديدة، ولما تقابلا أعطاه المساعد بطاقةَ تعارفٍ رسمية.

وقال: «جاء هذا الرجل لزيارتك منذ ساعة تقريبًا يا سيد سبارجو. يظن أن لديه ما قد يُفيدك في قضية ماربري، وقال إنه لا يستطيع الانتظار، ربما يمكنك الذَّهاب إليه عندما تأتي.»

أخذ سبارجو البطاقةَ وقرأ عليها:

السيد جيمس كريديه
تاجر نوادر التمغات
٢٠٢١، ستراند

وضع سبارجو البطاقة في جيب الصديري وخرج مجددًا، وتساءل عن سببِ عدمِ قدرة السيد جيمس كريديه على وصف نفسه بتاجر الطوابع النادرة، أو إحجامِه عن ذلك

أو رفضِه له، فهذه الصياغة أبسط. ذهب إلى شارع فليت، وسرعان ما وجد المتجرَ في العنوان المكتوب على البطاقة، كان واضحًا من النظرة الأولى على المتجر من الخارج أن السيد كريديه قد اعتزل العمل الذي كان يُزاوِله في ذلك المتجر في الماضي، أيًّا كان ذلك العمل؛ إذ كانت على النافذة لافتاتٌ مطبوعة حديثًا تُعلِن أن المتجرَ معروضٌ للإيجار. ولما دخل سبارجو وجد رجلًا قصيرَ القامة ممتلئَ الجسد متقدمًا في السن، يُشرِف على حَزْم ما تبقَّى من بضاعته ونقلها. نظر الرجل إلى الصحفيِّ بعينَين لامعتَين متسائِلتَين.

قال سبارجو: «السيد كريديه؟»

أجاب تاجر التمغات: «نعم سيدي. وسيادتك؟»

قال سبارجو: «السيد سبارجو من صحيفة «ووتشمان». جئتَ لزيارتي.»

فتح السيد كريديه بابَ غرفة صغيرة خلف المتجر الصغير للغاية، وأشار بيده إلى زائره يدعوه للدخول. فتبعه سبارجو وأغلق الباب برِفق.

قال السيد كريديه بتَرْحاب: «سعدتُ بلقائك يا سيد سبارجو. تفضَّل بالجلوس سيدي ... الوضع مُربِك هنا ... أُصفِّي أعمالي كما ترى. نعم ذهبتُ لزيارتك، فبعد قراءتي خبرَ صحيفة «ووتشمان» عما حدث لماربري، ومشاهدتي صورةَ الرجل القتيل في أعمدتك، أظن أن بإمكاني تزويدَك ببعض المعلومات.»

سأل سبارجو باقتضاب: «معلومات مفيدة؟»

حدج السيد كريديه زائرَه بطرف عينه الثاقبة. ثم سعل.

وقال: «أنت مَن يُحدِّد ذلك عندما تسمع ما لدَيَّ. لكن رأيي، مع أخذِ كلِّ شيء في الاعتبار، أنها مفيدة. الأمر أني أبقيتُ متجري مفتوحًا حتى أمس، كان كل شيء يجري كالمعتاد، كما تعرف، والبضاعة في نافذة العرض وكل شيء، بحيث يعلم كلُّ مَن يمر بالمتجر أن العمل جارٍ، بالرغم من أني في حقيقة الأمر على وشك التوقُّف عن العمل، بل توقَّفت.» وأضاف ضاحكًا: «في الليلة الماضية، لكن، أَلَنْ تُدوِّن ما أقوله لك؟»

رد سبارجو: «أُدوِّنه. أدوِّن كلَّ كلمة فيه. في رأسي.»

ضحك السيد كريديه وفرَك يدَيه معًا.

وقال: «كان الصحفيون أيامَ شبابي يُخرِجون قلمَ رَصاصٍ ودفترَ ملاحظات حالما يتمكَّنون من ذلك. لكنكم، شباب اليوم ...»

وافَقه سبارجو: «أنت مُحق. هلا أخبرتني بمعلوماتك!»

قال السيد كريديه: «حسنًا، لنواصِل إذن. بعد ظهر أمسِ جاء إلى متجري المدعو ماربري. و...»

سأله سبارجو: «في أي ساعةٍ تحديدًا؟»

أجاب السيد كريديه: «في تمام الثانية حسَب ساعة سانت كليمنت دينس. يمكنني أن أُقسِم على ذلك عشرين مرة. كان كما وصفتَه أنت بالضبط — في ملبسه وكل شيء — لقد عرَفتُ الصورة فورَ رؤيتها. وكان يحمل عُلْبة صغيرة ...»

سأل سبارجو: «عُلْبة من أي نوع؟»

رد السيد كريديه: «عُلْبة جلدية غريبة، بالية وقديمة الطِّراز، صندوق صغير للغاية في الواقع، حجْمُه نحو قَدَمٍ مربعة؛ لا مثيلَ لها أبدًا هذه الأيام. وكانت مهترئة جدًّا؛ لذا جذبَت انتباهي. وضعها على المنضدة ونظر إليَّ. وقال: «أنت تاجر طوابع؟ طوابع نادرة؟» فردَدتُ عليه: «نعم.» فقال وهو يفتح قُفل العُلْبة: «لديَّ شيء هنا أريد أن أُريَك إياه، إنه ...»»

قال سبارجو: «توقَّف لحظة! من أين أخرج المفتاحَ الذي فتح به العُلْبة؟»

رد السيد كريديه: «كان واحدًا من عدة مفاتيح كانت معه في سلسلة مفاتيحه، وأخرج السلسلةَ من جيب بنطاله الأيسر. أنا أنتبه لهذه الأمور أيها الشاب! على أي حال، فتح العُلْبة. فبدَتْ لي مليئة بالورق، لكنها كانت تحتوي في الأعلى على الكثير من الأوراق التي تبدو أوراقًا رسمية مربوطة بشريطٍ أحمر. ولأبرهن لك على قوة ملاحظتي؛ لاحظتُ على الأوراق بُقعًا من شِدَّة قِدَمها، وكان لون الشريط الأحمر قد استحال ورديًّا باهتًا.»

تمتم سبارجو: «جيد ... جيد! ممتاز! واصِل الحديث، يا سيدي.»

واصَل السيد كريديه: «وضع يده تحت الورقة العليا وسحب مظروفًا. وأخرج من المظروف عددًا من الطوابع الاستعمارية الشديدة النُّدرة والباهظةِ القِيمة، أول ما صدر منها على الإطلاق. وقال: «جئت لتوِّي من أستراليا، وكنت قد وعدت صديقًا شابًّا لي من هناك أن أبيعَ له هذه الطوابع في لندن، وبينما كنت أمرُّ من هنا لمحتُ متجرك. أتريد شراءَها؟ وكم ستدفع ثمنًا لها؟»»

تمتم سبارجو: «واضح!»

وافَقه السيد كريديه: «بدا لي ممَّن لا يُهدِرون كلماتهم. على أي حال، لم يكن هناك شكٌّ في الطوابع ولا في قيمتها الباهظة. لكن كان عليَّ أن أوضِّح له أني كنتُ على وشك اعتزال المهنة في اليوم نفسِه، ولم أُرِد إبرام ولو صفقةً واحدة؛ لذا لم يكن بوسعي فعل شيء. فقال: «ومع ذلك لا بد أن هناك الكثيرين ممَّن يعملون في مهنتك نفسِها، ربما يمكنك

أن تُرشِّح لي شركة جيدة، أليس كذلك؟» فأجبته: «يمكنني أن أرشِّح لك عشرًا على الأقل من الشركات الممتازة. لكني سأفيدك بأفضلَ من ذلك. سأعطيك اسمًا وعنوانًا لمشترٍ خاص لا شكَّ لديَّ أنه سيَسعد بشراء هذه المجموعة منك لقاءَ ثمنٍ باهظ». فقال لي: «اكتب الاسم والعنوان، أشكرك على تعاونك.» ونصحته بالسعر الذي ينبغي أن يتقاضاه، وكتبتُ اسمَ الرجل الذي قصدته وعُنوانه على ظهر بطاقة من بطاقاتي.»

سأل سبارجو: «وما اسمُ الرجل وعنوانُه؟»

قال السيد كريديه: «السيد نيكولاس كاردلستون، ٢ بنايات بيلكوكس، زقاق ميدل تمبل. السيد كاردلستون من أشدِّ المتحمِّسين لجمع الطوابع وأنجحهم في أوروبا. وكنت أعلم أن هذه المجموعة من الطوابع لم تكن في حوزته.»

قال سبارجو: «أعرف السيد كاردلستون، فقد عُثِر على ماربري مقتولًا أسفلَ درَجِه.»

قال السيد كريديه: «صحيح. وهذا يجعلني أُخمِّن أن ماربري كان في طريقه للقاء السيد كاردلستون عندما هُوجِم وقُتِل وسُرِقت متعلقاته.»

علَّق سبارجو نظرَه بتاجر الطوابع.

وقال: «ماذا إذن؟ هل ذهب ماربري للقاء الرجل العجوز في مسكنه في زقاق ميدل تمبل ليعرض عليه أن يبيع له تمغاته النادرة ... بعد منتصف الليل؟ لا أظن ذلك!»

رد السيد كريديه: «حسنًا، أنت تُفكِّر وتُجادِل بطريقةٍ عصرية لا شكَّ أنها أفضلُ بكثير. لكن كيف تفسِّر أني أعطيتُ ماربري عنوانَ كاردلستون، ثم عُثِر على الأول قتيلًا أسفل دَرَج الثاني بعد ذلك بساعات قليلة؟»

رد سبارجو: «لا أجد تفسيرًا لذلك. أنا أحاول التوصُّل إلى التفسير.»

لم يُعلِّق السيد كريديه على هذا الرد. ونظر إلى زائره من أعلى إلى أسفل للحظة، وكوَّن فكرةً عن قدراته، ثم قدَّم له سيجارةً فجأةً. فقبلها سبارجو وشكره في اقتضاب، ولم يستأنف الحديث إلا بعد أن أنهى نصفَها.

قال: «كما قلت، أحاول التوصُّل إلى التفسير. وسأتوصَّل إليه. وأنا ممتنٌّ لك للغاية يا سيد كريديه على ما أخبرتَني به. والآن هل لي أن أسألك سؤالًا أو اثنين؟»

أجاب السيد كريديه في تَرْحاب: «بل سَلْ ألفَ سؤال!»

قال سبارجو: «جيد جدًّا. هل قال ماربري إنه سيزور كاردلستون؟»

أجاب السيد كريديه: «نعم، قال إنه سيزوره في أقرب فرصة ... ذلك اليوم.»

سأل سبارجو: «وهل أخبرت كاردلستون بما أخبرتَني به لتوِّك؟»

رد السيد كريديه: «نعم، منذ ساعة فقط، وأنا عائدٌ من مكتبك في الحقيقة. التقيتُ به في شارع فليت وأخبرته.»

قال سبارجو: «وهل كان قد تلقَّى مكالمة من ماربري؟»

رد السيد كريديه: «كلا، لم يسمع بالرجل ولا رآه قط. على الأقل لم يسمع به قبل أن يسمع بجريمة القتل. قال لي إنه هو والسيد إيلفيك صديقه — وهو جامعُ طوابعَ آخَرُ — ذهبا لمعايَنة الجثة، لعلهما يتعرَّفان على القتيل، لكنهما لم يتعرَّفا عليه.»

قال سبارجو: «أعرف ذلك. فقد قابَلتهما في المشرحة. إمممم! حسنًا، سؤال أخير: عندما تركك ماربري، هل وضَع الطوابعَ في العُلْبة كما كانت؟»

رد كريديه: «كلا، وضعها في جيب الصديري الأيمن، وأغلق قُفلَ عُلْبته القديمة، ومشى يُؤرجِحها في يده اليسرى.»

ذهب سبارجو إلى شارع فليت دون أن يرى أحدًا. ظل يُتمتم ويتمتم حتى وصل إلى غرفته في مقر الصحيفة. كان يتمتم بكلمتَين اثنتَين، ويُعيدهما مرارًا وتَكرارًا:

«ست ساعات ... ست ساعات ... ست ساعات! تلك الساعات الست!»

في الصباح التالي صدرت صحيفة «ووتشمان» بأربعة أعمدة بها مستجداتُ قضية ماربري، وفوق الأعمدة الأربعة كُتِب بخطٍ واضح أسودَ كبير:

مَن شاهَدَ جون ماربري ما بين الساعةِ الثالثة وخمس عشرة دقيقة والساعةِ التاسعة وخمس عشرة دقيقة في الليلة السابقة لمقتله؟

الفصل العاشر

العُلْبة الجلدية

لم يُفصِح سبارجو لأحدٍ بمدى تفاؤُلِه بأن يجلب له ذلك السؤالُ الجاذب للانتباه أيَّ معلومات من التي يسعى وراءها. كان من الأكيد أن الآلاف من الأَعْيُن قد وقعت على جون ماربري خلال المدَّة التي حدَّدها سبارجو في ذلك السؤال، المشكلة الآن هي: مَن بالتحديد من أصحاب تلك الأَعْيُن سيتذكَّره؟ وولترز وزوجته كان لديهما سببٌ لتذكُّره، كريديه كان لديه سببٌ لتذكُّره، وكذلك مايرست، وويليام ويبستر أيضًا. لكن يبدو أن أحدًا لا يتذكَّره بين مغادرتِه شركةَ لندن آند يونيفرسال لصناديق الإيداع الآمنة في الثالثة والربع، وجلوسِه إلى جانب ويبستر في مجلس العموم في التاسعة والربع، باستثناء السيد فيسكي صانع القبعات، وحتى هذا لم يكَدْ يتذكَّره لولا أن اشترى ماربري قبعةً قماشية عصرية من متجره. على أي حال، انتصف نهار ذلك اليوم دونَ أن يأتيَ أحد للإبلاغ عن تذكُّره إياه. لا بد أن يكون قد اتجهَ غربًا بعد زيارته لمايرست؛ لأنه اشترى قبعتَه من متجر فيسكي، ولا بد أنه اتجهَ إلى الجنوب الغربي في نهاية المطاف؛ لأنه ظهر في ويستمينستر. لكن، إلى أين عساه ذهب غيرَ هذه الأماكن؟ وماذا فعل؟ وإلى مَن تحدَّث؟ ظلت هذه الأسئلة بلا إجابات.

كان الشابُّ رونالد بريتون يَقْضي ساعةً بين الظهر والعصر متكاسلًا في غرفة سبارجو في مقر صحيفة «ووتشمان»، وهي الساعة التي لا يُنجِز فيها حتى المشغولون من الرجال شيئًا، وحينئذٍ قال: «هذا يُظهِر كيف أن المرء قد يتجوَّل في لندن كما لو كان نملةً تضلُّ سبيلَها فتنضمُّ إلى كومةِ نملٍ غير كومتها دون أن يُلاحِظ ذلك أحد.»

قال سبارجو: «يجدر بك قراءةُ بعضِ أساسيات علم الحشرات يا بريتون، أنا أيضًا لا أعلم عنه الكثير، لكني أعلم جيدًا أن النملة إذا سارت في أرجاءِ مستعمرةِ نملٍ لا تنتمي إليها، فإنها لا تلبث أن تَهلِكَ بعد ذلك بثوانٍ؛ نتيجةً لتطفُّلها.»

قال بريتون: «أنت تعرف ما أقصد، لندن كومة نمل، أليست كذلك؟ لا تُؤثِّر فيها زيادةُ نملةٍ بشرية واحدة أو نقصانها. لا بد أن ماربري هذا فعل الكثيرَ خلال هذه الساعات الست. لا شكَّ أنه ركب حافلة، وهذا مؤكَّد تقريبًا. واستقل سيارة أجرة، وهذا مؤكَّد أكثر لأنها شيء غريبٌ عليه. ولا بد أنه أراد شربَ بعض الشاي على أي حال، ولا شكَّ أنه أراد أن يتناول مشروبًا آخَر. ولا بد أنه ذهب إلى مكانٍ ما ليشربَ الشاي أو المشروب الآخر. ولا بد كذلك أنه اشترى أشياءَ من أحد المتاجر، هكذا يفعل قاطِنو المستعمرات دومًا. ومن الأكيد أنه ذهب إلى مكانٍ ما ليتناول عشاءَه. ومن الأكيد أيضًا أنه … ولكن، ما فائدةُ سردِ هذه الأمور في هذه القضية؟»

رد سبارجو: «ما هو إلا سرْدٌ للبديهيات.»

واصَل بريتون: «ما أعنيه هو أنه من المؤكَّد أن عددًا كبيرًا من الأشخاص رأَوه، ومع ذلك مرَّت ساعات طويلة منذ صدر عدد الصحيفة في الصباح ولم يأتِ أحدٌ ليُخبرنا بشيء. عندما تفكِّر في الأمر يتبادر إلى الذهن سؤالٌ عما قد يجعلهم يتذكَّرونه. مَن قد يتذكَّر رؤيةَ رجلٍ عادي يرتدي بِذْلة رمادية من الصوف؟»

كرَّر سبارجو: «رجل ذو مظهر عادي يرتدي بِذْلة رمادية من الصوف. وصْفٌ جيد. تذكَّر أنك لا تملك حقَّ المؤلف الاستئثاري. سيكون هذا عنوانًا رئيسيًّا جيدًا.»

ضحك بريتون. وقال: «أنت غريبُ الأطوار يا سبارجو. هل تعتقد حقًّا أنك تقترب من اكتشاف أي شيء؟»

رد سبارجو: «أقترب من اكتشافِ شيءٍ من خلال كل شيء أُنجِزَ حتى الآن. لا يمكنك أن تتولى مهمة كهذه دون أن تتوصَّل إلى شيءٍ جديد مما لديك.»

قال بريتون: «لا أرى في الأمر لغزًا كبيرًا. فقد شرح السيد إيلمور سببَ وجود عنواني مع الجثة، وأوضح تاجرُ الطوابع كريديه أن …»

رفع سبارجو نظره فجأةً.

وقال بنبرة حادة: «ماذا؟»

رد بريتون: «أوضَحَ سببَ العثور على ماربري حيث عُثِر عليه. بالطبع، أفهم الأمرَ كلَّه! كان ماربري يتجوَّل في شارع فليت، ودخل زقاق ميدل تمبل بالرغم من تأخُّر الوقت

فقط ليرى أين يسكن العجوز كاردلستون، وهناك هُوجِم وقُتِل. الأمر واضح بالنسبة إليَّ. المهم الآن أن نعرف مَن ارتكب الجريمة.»

وافَقه سبارجو: «نعم، هذا هو المهم الآن.» وأخذ يُقلِّب أوراقَ دفتر اليوميات الذي كان على مكتبه. وقال: «بالمناسبة، في الحادية عشرة من صباح الغد تنعقد جلسةُ المحاكَمة المؤجَّلة. هل ستحضرها؟»

أجاب بريتون: «بكل تأكيد سأذهب. بل سأصطحب أيضًا الآنسةَ إيلمور وأختَها. فقد انتهت مناقَشةُ التفاصيل المروعة في الجلسة الأولى، ولن يُناقَش غدًا سوى الأدلة الجديدة، ونظرًا إلى أنهما لم يسبق لهما دخول محكمة الوَفَيَات ...»

قاطَعه سبارجو: «سيكون السيد إيلمور الشاهِدَ الرئيسي غدًا. أتوقَّع أن يتمكَّن من الإفصاح عن أكثرَ مما أخبرني به بكثير.»

هز بريتون كتفَيه.

وقال: «لا أرى أن هناك المزيدَ ليُفصح عنه.» وأضاف وهو يضحك ضحكةً خبيثة: «لكن، أظنك تريد كتابةَ المزيد من المقالات الجيدة، أليس كذلك؟»

ألقى سبارجو نظرةً سريعة على ساعته، ثم نهض وأخذ قبعته. وقال: «سأخبرك بما أريد. أريد أن أعرف مَن كان جون ماربري. هذا ما سيصنع المقال الجيد. أريد أن أعرف مَن كان منذ عشرين عامًا، بل منذ خمسة وعشرين أو أربعين عامًا. هل فهمتَ قصدي؟»

سأل بريتون: «وهل تعتقد أن السيد إيلمور يستطيع أن يُخبرنا بذلك؟»

أجاب سبارجو: «السيد إيلمور هو الشخص الوحيد الذي التقيتُ به حتى الآن وأَقرَّ بأنه كان يعرف جون ماربري في الماضي. لكنه لم يُخبِرني بالكثير. ربما سيخبر قاضيَ الوَفَيَات ومحلَّفيه بالمزيد. والآن سأنصرف يا بريتون، فلديَّ موعد.»

ترك سبارجو بريتون وانصرف وحده متعجلًا، وقفز إلى داخل سيارة أجرة أسرعَتْ به إلى شركة لندن آند يونيفرسال لصناديق الإيداع الآمنة.

وعند زاوية مبنى الشركة وجد راثبري في انتظاره.

فقال سبارجو وهو يقفز خارجًا من السيارة: «حسنًا؟ كيف جرَت الأمور؟»

أجاب راثبري: «كل شيء على ما يُرام. يُمكِنك الحضور؛ حصلت على التصريح اللازم. ونظرًا إلى عدم وجودِ أقاربَ معروفين، لن يحضر سوى مسئولٍ أو اثنين وأنت ومسئولي شركة صناديق الإيداع الآمنة، وأنا. هيا ... لقد حان الوقت.»

قال سبارجو: «كأننا سننبش قبرًا.»

ضحك راثبري. وقال: «في الحقيقة نحن سننبش أسرارَ رجلٍ ميت بالتأكيد. هذا ما يبدو أننا مُقبِلون عليه على الأقل. أتوقَّع يا سيد سبارجو أننا سنجد دليلًا ما في هذه العُلْبة الجلدية.»

لم يردَّ سبارجو. ودخلا الشركة فدلُّوهما إلى غرفةٍ كان فيها السيد مايرست، ورجلٌ تبيَّن أنه رئيس مجلس إدارة الشركة، والمسئولون الذين ذكرهم راثبري. وبعد لحظةٍ سمع سبارجو رئيسَ مجلس إدارة الشركة يشرح أنَّ لدى الشركة نُسَخًا من مفاتيح كل الخزائن، وأن التصاريحَ اللازمة صدرت بالفعل من جهات الاختصاص، وأن الحاضرين سيتوجَّهون بعد قليلٍ إلى الخزينة التي استأجرها الراحِلُ جون ماربري حديثًا، وسيأخذون منها المقتنيات التي أودَعَها هو بنفسه فيها، وهي عُلْبة جلدية صغيرة، وسيُحضِرونها بعد ذلك إلى هذه الغرفة وسيفتحونها في حضورهم جميعًا.

استكثر سبارجو المزاليج والقضبان التي ظلَّت أقفالها تُفتَح وقتًا طويلًا حتى وصل هو ورِفاقُه إلى الخزينة التي كان قد استأجرها حديثًا السيدُ الراحِل جون ماربري الذي لم يَعُد هناك شكٌّ الآن في وفاته. ولما وقع نظره عليها ظنها للوهلة الأولى صغيرةً جدًّا لدرجةٍ تجعل العثورَ على أي شيءٍ مهم فيها أمرًا مستبعَدًا. لقد بدَت في الحقيقة كخزينة خشبية عادية لا سِمةَ تميِّزها من بين الخزائن العديدة التي كانت في الغرفة الصغيرة المُحكمة، ولم يَسَع سبارجو عندما رآها إلا أن يتذكَّر الخزينةَ التي كان يحتفظ فيها أيامَ المدرسة بمتعلقاته الشخصية وحلوى تارت المربى والنقانق والحلوى الصلبة المهرَّبة من دكان الحلويات. كان اسم ماربري قد كُتِب عليها حديثًا بدهان لم يَكَد يجف. ولما فتح رئيسُ مجلس إدارة الشركة البابَ الأمامي لمعبد الأسرار هذا — أيْ باب الخزينة الخشبي — ظهر وراءه بابٌ فولاذي منيع، فماجت صدورُ المشاهدين بالترقُّب.

قال رئيس مجلس إدارة الشركة في حزم: «نسخة المفتاح من فضلك يا سيد مايرست، نسخة المفتاح!»

ارتسمتْ على هيئة مايرست جديةٌ لم تقلَّ عن جديةِ رئيسه، وأخرج مِفتاحًا غريبَ الشكل، فرفع رئيسُ مجلس إدارة الشركة يدَه كما لو كان على وشك إطلاقِ سفينةٍ حربية في رحلتها الأولى، وانفتح الباب الفولاذي ببطء. فظهرت العُلْبة الجلدية وراءه في كوَّةٍ مساحتُها قَدَمان مربَّعتان.

وبينما كان الجَمْع من الرجال يعودون أدراجَهم إلى غرفة السكرتير في صفٍّ واحد، شعر سبارجو بأنهم صاروا أشبهَ ما يكون بموكبٍ جنائزي مهيب. تقدَّمَ الرَّكْبَ رئيسُ

مجلس إدارة الشركة بصحبةِ مسئولٍ رفيعٍ كان قد جلب معه التصاريحَ اللازمة من هيئات الحَلِّ والعَقْد المختصة، ثم تبعهما مايرست حاملًا العُلْبة، ثم رجلان آخَران هما مسئولان قانونيَّان مكلَّفان بمُراقَبة الأعمال الرسمية والشرطية، وسار راثبري وسبارجو في مؤخرة الموكب. همس سبارجو بفكرة للمحقِّق فأومأ راثبري متفهمًا.

وقال: «لنأمُل أن نشاهد شيئًا ذا قيمة!»

كان في غرفة السكرتير رجلٌ ينتظر، وما إنْ دخل عليه الرجلان اللذان كان يتقدَّمان الموكبَ حتى لمس مقدمةَ رأسه محييًا في احترام. وضع مايرست العُلْبَةَ على الطاولة، فهز الرجلُ المنتظر المفاتيحَ مُحدِثًا رنينًا، وتحلَّقَ أعضاءُ الموكب الآخَرون حول الطاولة.

قال رئيس مجلس إدارة الشركة بنبرة جدية: «نظرًا إلى أننا لا نملك مفتاحًا لهذه العُلْبة بطبيعة الحال، كان من واجبنا أن نستعين بمساعَدةِ محترفٍ في فتحها، تفضَّلْ يا جوبسون!»

ولوَّح بيده، فتقدَّمَ حامِلُ المفاتيح في حماس. وفحص قُفلَ العُلْبة بعينَين خبيرتَين، كان من السهل ملاحظةُ تلهُّفه للانكباب عليها. نظر سبارجو إلى العُلْبة متفكرًا. كانت كما وُصِفت له تقريبًا؛ عُلْبة مربَّعة صغيرة قديمة من جلد البقر، متينة للغاية، ومهترئة للغاية ومبقَّعة من الخارج، لها مقبض يَبرز من غِطائها، يبدو من مظهرها أنها كانت مخبَّأةً في مكانٍ ما زمنًا طويلًا.

صدر صوتُ طقَّة، وانفتحت العُلْبة، فتراجع جوبسون إلى الوراء.

وقال: «ها قد انفتحت، تفضَّل يا سيدي.»

أشار رئيس مجلس إدارة الشركة إلى المسئول الرفيع.

وقال: «هلا تفضَّلتَ بفتح العُلْبة يا سيدي. انتهت مهمتنا عند هذا الحد.»

وبينما كان المسئول الرفيع يمدُّ يدَه إلى الغطاء، تحلَّقَ الرجال الآخَرون واشرأبَّت أعناقهم، وطفَر الترقُّب من أعيُنهم. رُفِع الغطاء، وانطلقت من أحدهم تنهيدةٌ عميقة. وقرَّب سبارجو رأسَه وعينَيه.

العُلْبة فارغة!

فارغة، كفراغ أي شيء فارغ! هكذا خاطَب سبارجو نفسه، لم يكن في العُلبة شيء، حرفيًّا. كانوا جميعًا يحدِّقون إلى داخل عُلْبة عادية أكَلَ عليها الدهرُ وشَرِب، مبطَّنة بنسيجٍ قطني قديمِ الطِّراز، كالذي كان أسلافنا في منتصف العصر الفيكتوري يألفونه، ومع ذلك لا شيءَ فيها.

قال رئيس مجلس إدارة الشركة: «يا إلهي! إن هذا ... يا للهول! لا شيءَ في العُلْبة!»

قال المسئول الرفيع المستوى بلا انفعال: «هذا واضح.»

نظر رئيس مجلس إدارة الشركة إلى السكرتير.

وقال بنبرةٍ كسيرة كمَن حُرِم من مفاجأة رائعة كان يُمنِّي نفسَه بها: «كنتُ أتصوَّر أن العلبة ذاتُ قيمةٍ كبيرة يا سيد مايرست. قيمة كبيرة!»

سعل مايرست.

وقال: «لا يَسَعني سوى أن أُكرِّر ما قلته سابقًا يا سيد بنجامين. لقد قال السيد الراحل ماربري عن وديعته إن قيمتَها كبيرةٌ عنده، ولم يتركها من يده حتى وضعها في الخزينة. وبدا عليه أنه يعتبرها ذاتَ قيمةٍ لا تُضاهى.»

قال رئيس مجلس إدارة الشركة: «لكننا فهمنا من إفادة السيد كريديه التي أدلى بها لصحيفة «ووتشمان» أن العُلْبة كانت مليئةً بالأوراق و... وأشياء أخرى. لقد رأى كريديه فيها أوراقًا قبل أن تُجلَب إلى هنا بساعة تقريبًا.»

بسَط مايرست كفَّيه.

وقال: «لا يَسَعُني سوى أن أُكرِّر ما قلته يا سيد بنجامين. لا أعرف أكثر من ذلك.»

قال رئيس مجلس إدارة الشركة: «لكن، لِمَ قد يُودِع رجلٌ علبةً خاويةً في خزانة؟ لا أف...»

وهنا تدخَّل المسئول الرفيع.

وقال: «هذه العلبة خالية لا شك. هل حملتَها بنفسك في أي وقتٍ يا سيد مايرست؟»

ابتسم مايرست في ترفُّع.

وقال: «لقد قلتُ بالفعل يا سيدي إن المتوفَّ منذ لحظةِ دخوله هذه الغرفةَ حتى وضع العلبة في الخزينة التي استأجرها، لم يترك العلبةَ من يدَيه.»

عمَّ الصمت لحظات. ثم التفت المسئول الرفيع إلى رئيس مجلس الإدارة.

وقال: «حسنًا. لقد أجرينا التحقيق. يا راثبري، خذ العلبةَ معك وحرِّزها في سكوتلاند يارد.»

لذا خرج سبارجو مع راثبري ومعهما العلبة، وأدرك أنه عثر للمقالة التي أصبحت تُنشَر يوميًّا في صحيفته على مادةٍ صحفية ممتازة، ولو اكتنفها الغموض.

الفصل الحادي عشر

استجواب السيد إيلمور

في اليوم التالي، وبينما جلس سبارجو يُنصِت لإجراءات جلسة المحاكَمة المؤجلة، كانت التفاصيل الكاملة لما أصبح يُعرَف حول العالم بقضية جريمة قتل ميدل تمبل تتكرَّر على مسامعه للمرة الألف. لم تكن هناك تفصيلة واحدة في القصة لم يكن مُلمًّا بها بالكامل. كان الإجراءُ الأول أمام قاضي الوَفَيَات ذا طبيعة رسمية بحتة، كان شاملًا ومُرهِقًا؛ وكان ممثلُ التاج البريطاني حاضرًا، فضلًا عن اثنَي عشر رجلًا صالحًا من أبناء لندن المخلِصين، حضروا ليُنصِتوا ويتوصَّلوا إلى نتيجة حول الكيفية التي لقي بها المدعوُّ جون ماربري حتفه. وعلى الرغم من أن سبارجو كان يُحيط علمًا بكل التفاصيل، فقد وجد نفسه يُرتِّب الأدلة على نحوٍ احترافي، ويلاحظ كيف كتبَت شهادةُ كلِّ شاهدٍ جديد فصلًا جديدًا من القصة، إن جاز التعبير. كانت القصة نفسها تسير على نحوٍ سَلِس وطبيعي ومتتابِع فيما يُشبه الأقسام المرتَّبة. وجلس سبارجو يُنصِت ويرتِّب تلك الأقسام:

(١) أثبت حارس ميدل تمبل والضابط دريسكول العثورَ على الجثة.

(٢) أفاد الطبيب الشرعي بسبب الوفاة: تعرُّض الرجل لضربة شديدة من الخلف بأداة ثقيلة، وتُوفِّي على الفور.

(٣) أثبتت الشرطة وموظَّفو المشرحة أنه عند فحص الجثة لم يُعثَر بين طيَّات ملابس الرجل على شيءٍ سوى قصاصة الورق الرمادية التي أصبحت الآن مشهورة.

(٤) أثبت راثبري أنه بتتبُّع أثر قبعة القتيل القماشية العصرية الجديدة التي اشتراها من متجر فيسكي الشهير في الطرف الغربي، قادت القبعة البحثَ إلى فندق أنجلو أورينت في حي ووترلو.

(٥) السيد وولترز وزوجته شهِدا بوصول ماربري إلى فندق أنجلو أورينت، وأفادا بما فعل خلال وجوده فيه وتَجْواله حوله.

(٦) أثبت أمين حسابات سفينة وامبارينو أن ماربري أبحرَ على نحوٍ طبيعي من ميلبورن إلى ساوثهامبتون على متن السفينة كأي مسافر ملتزم بالقواعد، ولم يُثِر انتباهَ أي أحد، وغادَر السفينة في ساوثهامبتون في وقتٍ مبكر من صباحِ ما تبيَّنَ أنه آخِر يوم في حياته بطريقة طبيعية تمامًا.

(٧) أفاد السيد كريديه بلقائه بماربري لمناقَشة أمر الطوابع.

(٨) أفاد السيد مايرست بزيارة ماربري لشركة صناديق الإيداع الآمنة، وثبت بالفحص الرسمي أن العلبة التي أودَعَها هناك كانت خالية.

(٩) أعاد ويليام ويبستر سرْدَ قصة لقائه بماربري في إحدى ساحات مجلس العموم، وذكر أنه شهِد لقاءً بين ماربري والرجل الذي بات ويبستر يعرف الآن أنه السيد إيلمور، عضو البرلمان.

أدى كلُّ ذلك إلى مثول السيد إيلمور نائب البرلمان في منصة الشهود. وكان سبارجو يعلم ويشعر بأن هذا هو ما كان يترقَّبه الحشد الذي غصَّت به قاعة المحكمة. فبفضل مقالاته المتميزة الواقعية والنابضة بالحياة في صحيفة «ووتشمان»، بات الجميع مُلِمًّا الآن بالأدلة التي قدَّمها الشهود التسعة الذين وقفوا في منصة الشهود قبل مثول السيد إيلمور بها. وكانوا أيضًا مُلِمِّين بالحقائق التي سمح السيد إيلمور لسبارجو بنشرها بعد لقائهما في النادي الذي رتَّبه رونالد بريتون. لماذا جذَبَ حضورُ عضو البرلمان كلَّ هذا الاهتمام البالغ إذن؟ لأن القضية استحوذت على اهتمام الجميع، من قاضي الوَفَيَات إلى آخِر رجل تمكَّن من دسِّ جسده في آخِر بوصة مربَّعة شاغرة في القاعة المفتوحة للعامة، وأراد كلُّ مَن كان هناك أن يسمع ويرى الرجل الذي التقى بماربري في هذه الظروف الدرامية، ورافَقه إلى الفندق الذي كان يُقيم فيه، وخالَطه وأسدى له النصيحة، وخرج معه من الفندق في تمشيةٍ لم يَعُد ماربري منها. كان سبارجو يعلم سرَّ الاهتمام البالغ، فقد كان الجميع يعلمون أن إيلمور هو الوحيد الذي يُمكِن أن يُخبر المحكمة بأي شيءٍ مهم عن ماربري، ومَن كان، وإلامَ كان يسعى، وكيف كانت حياته.

أجال نظره في القاعة في حين كان عضو البرلمان يدخل منصة الشهود، كان رجلًا وسيمًا طويلَ القامة أنيقَ الملبس، في لحيته القليل من الشعر الرمادي، وكانت قامتُه منتصبة كجندي مُدرَّب جيدًا، وبدا مُدرِكًا للسَّطوة البادية في مظهره. جلست ابنتا إيلمور على مسافة بعيدة قليلًا قبالةَ سبارجو، وكان معهما رونالد بريتون، والتقتْ عينا سبارجو بأعينهما وهما يدخلان القاعة، فأومأتا له مبتسمتَين. كان يُراقِبهما من وقتٍ إلى آخر،

وبدا جليًّا له أنهما كانا يعتبران القضيةَ كلَّها نوعًا جديدًا من الترفيه، قد يتخيَّلهما المرء جالستَين في خمول في أحد البازارات الشرقية يُنصِتان إلى حكايات تُروى على ألسنة الحكَّائين المحترفين. والآن، بينما كان أبوهما يَعتلي منصة الشهود، رمقهما سبارجو بنظرة أخرى، فلم يُلاحِظ عليهما إلا تورُّدَ وجنتَيهما وزيادة التماع أعينهما.

خاطَبَ نفسه: «كل ما يشعران به هو المزيد من الإثارة فقط لأن أباهما متورِّطٌ في هذا اللغز المثير. إمممم! لكن … ما مدى تورُّطه؟»

التفت إلى منصة الشهود، ومنذ ذلك الحين لم يرفع عينَيه عن الرجل الذي كان فيها. فقد كانت في ذهن سبارجو أفكارٌ عن ذلك الشاهد أراد أن يتحقَّق منها.

خيَّبَت شهادة السيد إيلمور أملَ كلِّ مَن كان يتوقَّع فيها شيئًا مثيرًا مباشرًا. فبعد أن حلف إيلمور اليمينَ وطرح عليه قاضي الوَفَيَات سؤالًا أو اثنين، استأذن أن يحكيَ بطريقته الخاصة ما كان يعرفه عن الرجل الميت والواقعة المؤسِفة التي أودتْ بحياته، ولما مُنِح الإذن مضى يتحدَّث في هدوءٍ وبلا انفعال، وكرَّر ما قصَّ على سبارجو بالضبط. بدت قصته عادية جدًّا. كان يعرف ماربري منذ أعوام عديدة. ثم تفرَّقت بهما السُّبلُ عشرين عامًا تقريبًا. والتقى به بالمصادَفة في إحدى ساحات مجلس العموم في المساء السابق للجريمة. وطلب منه ماربري النصيحة. ونظرًا إلى عدم انشغاله بمهمة محدَّدة وإقباله على مدِّ يد العون لواحد من معارفه القدامى، فقد عاد مع ماربري إلى فندق أنجلو أورينت، ومكث معه في غرفته بعضَ الوقت يفحص ماساته الأسترالية، ثم خرج معه. كان قد أسدى له النُّصحَ كما طلب، وتمشَّيا على جسر ووترلو، وبعد ذلك مباشَرةً افترقا. وكان هذا كل ما يعرف.

كان ذلك معلومًا من ذي قبلُ لهيئة المحكمة ولسبارجو ولكلِّ مَن كانوا هناك. فقد سبق نشْرُ هذه المعلومات تحت عُنوانٍ عريض في صحيفة «ووتشمان». أعاد إيلمور سرْدَ القصة، ولما فرغ من ذلك بدا أنه يظن أن خطوته التالية هي مغادَرةُ منصةِ الشهود وقاعة المحكمة، وبعد سؤال أو سؤالَين رتيبَين من قاضي الوَفَيَات ورئيس هيئة المحلَّفين هَمَّ إيلمور بالنزول عن المنصة. بيْدَ أن سبارجو كان يَعِي منذ بداية الاستجواب وجودَ مستشار بارز يُمثِّل الخزانةَ بين الحضور، فصوَّب نظراته في اتجاهه، ولم يستغرب أنْ وقَفَ الرجل بطريقته المعتادة التي يبدو منها عدم مبالاته، وثبَّت نظَّارتَه الأحاديةَ العدسةِ على عينه اليمنى، ورمق الرجلَ الطويل القامة الذي كان على منصة الشهود بنظرةٍ خاطفة.

تمتم سبارجو: «ها قد أوشك المرح أن يبدأ.»

أجال مُمثل الخِزانة عينَيه بين إيلمور وقاضي الوَفَيات وانحنى انحناءةً متعجِّلة للقاضي ولإيلمور ثم اعتدل واقفًا. بدا كرجلٍ مُوشِك على طرح أسئلة عادية عن حالة الطقس أو عن آخِر أحوال زوجة سميث، أو عن احتمال ارتفاع قيمة الأسهم أو انخفاضها. لكن سبارجو كان قد سمع هذا الرجل يتحدَّث من قبلُ، وتعرَّف على ما في صوته وإيماءاته من إشاراتٍ ذات مغزًى.

قال الرجل بصوته الهادئ الذي تبدو فيه اللامبالاة: «أريد أن أسألك القليلَ من الأسئلة يا سيد إيلمور عن علاقتك بالمتوفَّى. كنتَ تعرفه منذ وقت طويل، صحيح؟»

رد إيلمور: «منذ وقت طويل جدًّا.»

سأل الرجل: «منذ متى تقريبًا؟»

أجاب إيلمور: «منذ عشرين إلى اثنين وعشرين عامًا، أو ثلاثة وعشرين على ما أظن.»

سأل الرجل: «ولم تلتقِ به في هذه المدَّة قطُّ قبل أن تلتقيَا بالصدفة على النحو الذي أخبرتَنا به؟»

أجاب إيلمور: «صحيح.»

سأل الرجل: «ولم يتواصَل معك حتى؟»

أجاب إيلمور: «كلا.»

سأل الرجل: «ولا سمعتَ خبرًا عنه؟»

أجاب إيلمور: «لا.»

سأل الرجل: «لكنَّ كلًّا منكما تعرَّف على الآخَر على الفور عندما التقيتما، صحيح؟»

قال إيلمور: «على الفور تقريبًا.»

سأل الرجل: «على الفور تقريبًا ... إذن، معنى ذلك أن كلًّا منكما كان يعرف الآخَر معرفةً وثيقة جدًّا منذ عشرين أو اثنين وعشرين عامًا، صحيح؟»

أجاب إيلمور: «نعم، كان كلٌّ منا يعرف الآخر جيدًا.»

سأل الرجل: «كنتما صديقَين حميمَين؟»

قال إيلمور: «قلت إننا كنا من المعارف فحسب.»

قال الرجل: «المعارف! ... ماذا كان اسمه الذي تعرفه به حينَذاك؟»

رد إيلمور: «اسمه؟! كان اسمه ماربري.»

سأل الرجل: «ماربري، أيْ نفس الاسم، وأين كنت تعرفه؟»

رد إيلمور: «هنا في لندن.»

سأل الرجل: «وماذا كان عمله؟»

رد إيلمور: «أتعني مِهنته؟»

قال الرجل: «ماذا كانت مهنته؟»

قال إيلمور: «أظنه كان يعمل في حقل المال.»

قال الرجل: «يعمل في حقل المال. هل كانت لك تعامُلاتٌ معه؟»

رد إيلمور: «نعم، أحيانًا.»

سأل الرجل: «وماذا كان عُنوان مكتبه في لندن؟»

رد إيلمور: «لا يُمكِنني تذكُّرُ ذلك.»

سأل الرجل: «وعُنوانه الشخصي؟»

رد إيلمور: «لم أعرفه قطُّ.»

سأل الرجل: «أين كنتَ تُجرِي صفقاتِك معه؟»

رد إيلمور: «كنا نتقابل، من وقتٍ إلى آخر.»

سأل الرجل: «أين؟ في أي مكان؟ أفي مكتب، أم منتجع؟»

رد إيلمور: «لا يُمكِنني أن أتذكَّر أماكنَ بعينها، في حي مدينة لندن أحيانًا.»

سأل الرجل: «حي مدينة لندن ... أين في حي مدينة لندن؟ في مانشن هاوس، أم شارع لومبارد، أم ساحة كنيسة سانت بول، أم أولد بايلي، أم أين؟»

رد إيلمور: «أتذكَّر لقاءاتٍ لنا خارج البورصة.»

سأل الرجل: «وهل كان يعمل في هذه المؤسَّسة؟»

رد إيلمور: «كلا، على حدِّ علمي.»

سأل الرجل: «وهل كنتَ أنت تعمل فيها؟»

رد إيلمور: «قطعًا لا.»

سأل الرجل: «وماذا كان نوعُ تعامُلاتِك معه؟»

رد إيلمور: «تعامُلات مالية ... وصغيرة.»

سأل الرجل: «كم كان طولُ مدةِ معرفتك به؟ ما المدة الزمنية التي امتدَّت خلالها؟»

رد إيلمور: «من ستة أشهر إلى تسعة حسَبما أظن.»

سأل الرجل: «فقط؟»

رد إيلمور: «فقط، بالتأكيد.»

قال الرجل: «كانتْ معرفةً عابرة إذن، صحيح؟»

رد إيلمور: «صحيح.»

قال الرجل: «ومع ذلك، عندما التقيتَ بذلك الرجل الذي كنتَ تعرفه معرفةً عابرة فحَسْب بعد أكثرَ من عشرين عامًا مِن تفرُّق السُّبل بينكما، اهتممتَ به اهتمامًا شديدًا؟»

قال إيلمور: «كنتُ أريد مدَّ يدِ العون له، وكنتُ مهتمًّا بما قاله لي ذلك المساء.»

قال الرجل: «مفهوم، والآن أرجو ألَّا تُمانِع إن سألتك سؤالًا شخصيًّا أو سؤالَين. أنت رجل بارز في المجال العام، والحقائقُ ذات الصلة بحياة رجال المجال العام هي مِلكية عامة تقريبًا. مذكورٌ في هذا المرجع الشعبي أنك جئتَ إلى هذا البلد عام ١٩٠٢ قادِمًا من الأرجنتين التي كوَّنتَ فيها ثروة طائلة. ومع ذلك قلتَ لنا إنك كنتَ في لندن — حيث كانت معرفتك بماربري — عامَ ١٨٩٠ أو ١٨٩٢ تقريبًا، فهل غادَرتَ إنجلترا بعد انقطاع معرفتك بماربري بمدة قصيرة إذن؟»

قال إيلمور: «نعم، لقد غادَرتُ إنجلترا عام ١٨٩١ أو ١٨٩٢، لست متأكدًا من العام بالتحديد.»

قال الرجل: «نريد التأكُّد من هذه الإجابة تمامًا يا سيد إيلمور. نريد أن نجد إجابةً للسؤال المهم: مَن كان جون ماربري؟ وكيف لقِي حتفه؟ ويبدو أنك الشخصُ الوحيد الذي يعرف أيَّ شيءٍ عنه، ماذا كان مجالُ عملك قبل أن تُغادِر إنجلترا؟»

قال إيلمور: «كنتُ أعمل في الشئون المالية.»

قال الرجل: «مثل ماربري. وأين كنتَ تُزاوِل عملك؟»

رد إيلمور: «في لندن، بالطبع.»

قال الرجل: «وماذا كان عنوانُ عملك؟»

لسببٍ ما كان اضطرابُ إيلمور يزداد رويدًا رويدًا. احمرَّ جبينُه، وأخذ شاربه يرتعش، فاستجمع شجاعتَه وواجَهَ مستجوِبَه في تحدٍّ وقال منتفضًا:

«أعترض على هذه الأسئلة التي تتناوَل شئوني الخاصة!»

قال الرجل: «ومع ذلك عليَّ طرحها. أكرِّر سؤالي السابق.»

قال إيلمور: «وأنا أرفض الإجابة عنه.»

قال الرجل: «إذن سأسألك سؤالًا غيره. أين كنتَ تعيش في لندن في المدة التي تحدَّثنا عنها؛ أيْ حين كنتَ تعرف جون ماربري؟»

رد إيلمور: «أرفض الإجابة عن هذا السؤال أيضًا!»

جلس مستشار الخزانة ونظر إلى القاضي.

الفصل الثاني عشر

الشاهد الجديد

قطع الصمتَ صوتُ القاضي الرخيمُ الخالي من الانفعال وإن لم يخلُ من الاحتجاج. وكان يخاطب الشاهد.

وقال: «أنا متأكد يا سيد إيلمور ألَّا نيةَ للإثقال عليك بأسئلةٍ غيرِ ضرورية. لكننا هنا لنصل إلى الحقيقة وراء موت جون ماربري، ونظرًا إلى أنك الشاهد الوحيد الذي وصلنا إليه الذي يعرفه شخصيًّا ...»

التفت إيلمور إلى القاضي بنفاد صبر.

وصاح: «نيتي الخالصة أن أحترم سلطتَك يا سيدي! ولقد أخبرتك بكل ما أعرف عن ماربري وما جرى له عندما التقيتُ به ذلك المساء. لكني أحتجُّ على استجوابي عن شئوني الخاصة التي يرجع تاريخها إلى عشرين عامًا مضت ... أحتجُّ على ذلك بشدة! سأجيب عن أي سؤال له صلة حقيقية بالقضية، لكني لن أُجيب عن أسئلةٍ تبدو لي أبعدَ ما يكون عن نطاق التحقيق.»

قام مستشار الخزانة مجددًا. وبدا عليه هدوءٌ بالغ، وأولاه سبارجو كلَّ اهتمامه.

قال المستشار بجفاف: «ربما يمكنني أن أطرح سؤالًا أو اثنين على السيد إيلمور لا يرى فيهما أي إساءة.» والتفت إلى الشاهد من جديد في اهتمامٍ وسأله: «هل يمكنك أن تخبرني عن أي شخصٍ على قيد الحياة كان يعرف ماربري في لندن في المدة قيد المناقَشة ... أيْ منذ عشرين إلى اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا؟»

هز إيلمور رأسه نافيًا في غضب.

ورد: «كلا، لا يمكنني.»

قال المستشار: «ومع ذلك من المؤكَّد أنه في ذلك الوقت كان بينكما العديدُ من معارف العمل المشتركين!»

رد إيلمور: «ربما ... في ذلك الوقت. لكني عندما عدتُ إلى إنجلترا كان عملي وحياتي في اتجاهٍ مُغايِر لما كانا فيه تلك المدة. لا أعرف أي شخص كان يعرف ماربري في ذلك الحينِ على الإطلاق.»

التفت المستشار إلى كاتبِ محكمةٍ كان يجلس خلفه، وهمس له بشيء، فرأى سبارجو الكاتب يومئ برأسه نحوَ باب القاعة. ثم أعاد المستشار توجيهَ نظره إلى الشاهد.

وقال: «سؤال إضافي: لقد أخبرتَ هيئة المحكمة أنك في المساء السابق لوفاة ماربري، وبعد أن تركتَه في نهاية جسر ووترلو بوقتٍ قصير، في الساعة ... الثانية عشرة إلا الربع ... أظنك ذكرتَ هذه الساعة.»

قال إيلمور: «في هذا الوقت تقريبًا.»

سأل المستشار: «وفي ذلك المكان؟»

قال إيلمور: «نعم.»

قال المستشار: «هذا ما أريد أن أسألك عنه الآن يا سيد إيلمور.» والتفتَ إلى القاضي وواصَل: «أطلب منك يا سيدي استدعاءَ شاهِدٍ تطوَّعَ للشرطة بدليلٍ هذا الصباح. ولهذا الدليل طبيعةٌ خاصة جدًّا، وأعتقد أن هذه هي المرحلة التي ينبغي فيها أن يُقدَّم الدليل لسيادتك ولهيئة المحلَّفين. أرجو من سيادتك استدعاءَ ديفيد لايل ...»

التفت سبارجو غريزيًّا نحو الباب بعد أن رأى الكاتب الذي كان جالسًا خلف مستشار الخِزانة يتوجَّه إليه. قاد الكاتبُ إلى نطاق الرؤية شابًّا تبدو عليه أَمَاراتُ الذكاء والتيقُّظ والثقة بالنفس، اسكتلنديًّا على ما يبدو، وما إن نُودِي اسمُ ديفيد لايل حتى انطلق الشاب متحفزًا ومستعدًّا إلى المكان الذي تركه عضو البرلمان لتوِّه. وأدى القسَمَ على الطريقة الاسكتلندية بالتحفُّز نفسِه والْتَفتَ في سلاسةٍ إلى مستشار الخزانة. جاسَتْ عينا سبارجو المكانَ سريعًا، فلاحَظ أن الترقُّبَ قد عقد الألسنةَ في القاعة فلم تُسمَع فيها نَأْمة، وأن ما كان يترقبه الناس هو أن يُدلِيَ الشاهد الجديد بشيءٍ ذي صلةٍ بشهادة إيلمور.

«اسمك ديفيد لايل؟»

«صحيح، يا سيدي.»

سأل المستشار: «وتسكن في ٢٣ كمبري سايد، كيلمارنوك، اسكتلندا؟»

رد الشاهد: «نعم.»

«وما عملك يا سيد لايل؟»

«مندوب مبيعات يا سيدي، لشركة ستيفنسون وروبرتسون وسوتار للخمور في كيلمارنوك.»

«أظنك تُسافر إلى باريس كجزء من واجِبات عملك في بعض الأحيان، صحيح؟»

«نعم، أسافر إلى باريس مرةً كلَّ ستة أسابيع.»

«وفي مساء الحادي والعشرين من يونيو هل كنتَ في لندن في طريقك إلى باريس؟»

«نعم.»

«أظنك أقمتَ في فندق دي كيزرز، في نهاية الجسر من اتجاه بلاكفرايرز، صحيح؟»

«صحيح؛ فالفندق مناسب للمسافرين على متن القطارات القارية.»

«وذلك المساء، في الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا، أو بعد ذلك بقليل، هل تمشَّيتَ محاذِيًا الجسرَ، من جانب تمبل جاردنز؟»

«صحيح سيدي. أنا أنام بصعوبة؛ لذا اعتَدْتُ أن أتمشَّى نصفَ ساعةٍ تقريبًا قبل أن أخلد للنوم.»

«وإلى أين وصلتَ في تمشيتك؟»

«إلى جسر ووترلو.»

«وكنتَ ناحيةَ تمبل طَوالَ الوقت؟»

«نعم سيدي، طوال الوقت على هذا الجانب.»

«جيد جدًّا، وعندما اقتربتَ من جسر ووترلو، هل التقيتَ بأي أحدٍ تعرفه؟»

«نعم، السيد إيلمور، عضو البرلمان.»

لم يَقْوَ سبارجو على منْعِ نفسه من اختلاسِ نظرةٍ إلى الأختَين، كانت كُبراهما تُشيح برأسها، أمَّا الصغرى فكانت تُحدِّق في الشاهد بثبات. وكان بريتون ينقر بأصابعه على أعلى قبعته الحريرية اللامعة.

كرَّر المستشار بصوته الهادئ الواضح: «السيد إيلمور عضو البرلمان، حسنًا، وكيف عرَفتَ أنه السيد إيلمور عضو البرلمان؟»

رد لايل: «أنا سكرتير نادي ليبرال وارد في مسقط رأسي، وفي العام الماضي نظَّمنا فعاليةً أُنيطَ بي فيها الترتيبُ مع المتحدِّثين الأساسيين. فرتَّبتُ مع السيد إيلمور ليحضر للحديث؛ لذا التقيتُ به عدةَ مرات بطبيعة الحال، في لندن وفي اسكتلندا.»

«أيْ إنك كنتَ تعرفه جيدًا؟»

رد لايل: «نعم سيدي.»

«وهل تراه الآن يا سيد لايل؟»

ابتسم لايل والتفتَ التفاتةً طفيفة من فوق منصة الشهود.

«بالطبع، ها هو السيد إيلمور.»

«ها هو السيد إيلمور. جيد جدًّا. لنواصِل إذن. التقيتَ بالسيد إيلمور بالقرب من جسر ووترلو، صحيح؟ وكم كانت المسافة؟»

«توخِّيًا للدقة، السيد إيلمور هبط الدَّرَجَ من الجسر إلى منطقة إمبانكمنت.»

«وحده؟»

«كلا.»

«مَن كان معه؟»

«رجل، سيدي.»

«وهل كنتَ تعرف ذلك الرجل؟»

«كلا. لكني عندما تعرَّفت على رفيقه، نظرتُ إليه هو أيضًا جيدًا. لم أنسَ وجهَه.»

«لم تَنْسَ وجهَه. هل ذكَّرك أيُّ شيء بوجه ذلك الرجل خلال اليوم أو اليومَين الماضيَين يا سيد لايل؟»

«نعم سيدي، بالتأكيد.»

«وماذا كان ذلك؟»

«صورة الرجل الذي يقولون إنه قُتِل؛ جون ماربري.»

«هل أنت متأكد؟»

«متأكد تمامًا سيدي، كتأكُّدي من اسمي.»

«هل تعتقد أن السيد إيلمور عندما التقيتَه كان بصحبة الرجل الذي تدلُّ الصورُ على أنه جون ماربري؟»

«نعم يا سيدي.»

«حسنًا جدًّا. وبعد أن رأيتَ السيد إيلمور ورفيقه، ماذا فعلت؟»

«استدرتُ وتبعتُهما.»

«تبعتَهما؟ أكانا يسيران في اتجاه الشرق إذن؟»

«كانا يسيران في الاتجاه الذي جئتُ أنا منه.»

«أيْ إنك تبعتَهما في اتجاه الشرق؟»

«نعم ... كنتُ عائدًا إلى الفندق.»

«ماذا كانا يفعلان؟»

«يتحدثان بجدِّية غير معتادة يا سيدي.»

«وإلى أين تبعتَهما؟»

«تبعتُهما حتى وصلا إلى نُزُل إمبانكمنت في زقاق ميدل تمبل سيدي.»

«وبعد ذلك؟»

«حسنًا يا سيدي، دخلا إلى هناك، واتجهتُ أنا مباشَرةً إلى فندق دي كيزرز وخلدتُ للنوم.»

عندئذٍ عمَّ في القاعة صمتٌ مطبقٌ لم يكن له مثيلٌ في أي وقتٍ آخَر من ذلك اليوم الطويل، واشتدَّت وطأة الصمت عندما نطق الصوتُ الهادئ الجادُّ بالسؤال التالي.

«هل تُقسِم إنك رأيتَ السيد إيلمور يصطحب رفيقَه إلى داخل زقاق ميدل تمبل من مدخل إمبانكمنت في الوقت المذكور؟»

«نعم أُقسِم! بالتأكيد سيدي.»

«هل يُمكِنك أن تُخبرنا عن الساعة ذلك الحينَ بأقربِ تقدير؟»

«نعم. كانت الساعة قد تخطَّتِ الثانية عشرة بخمس دقائق، ربما بعد ذلك أو قبله بدقيقة تقريبًا.»

أومأ مستشارُ الخِزانة لقاضي الوَفَيَات، فتشاوَرَ قاضي الوَفَيات مع رئيس هيئة المحلَّفين همسًا، ثم نظر إلى الشاهد.

وقال: «أنت لم تُدْلِ بهذه المعلومات إلا للشرطة فقط، صحيح؟»

«نعم سيدي، كنتُ في باريس وفي أميان، ولم أصِل على متن السفينة إلا هذا الصباح. وبمجرد أنْ قرأتُ كلَّ الأخبار التي نُشِرت في الصحف — أعني الصحف الإنجليزية — ورأيتُ صورَ الرجل الميت، قررتُ أن أُبلِّغ الشرطة بما أعرفه، فذهبتُ إلى نيو سكوتلاند يارد فورَ وصولي إلى لندن هذا الصباح.»

لم يكن لدى أيِّ شخصٍ آخَر أسئلةٌ ليطرحها على السيد ديفيد لايل، فتنحَّى عن المنصة. وهبَّ السيد إيلمور فجأةً فحلَّ محلَّه عليها مُلتمِسًا انتباهَ القاضي.

وقال: «هل يُمكِنني أن أقدِّم تفسيرًا يا سيدي؟ أنا ...»

وهنا تدخَّلَ مستشار الخزانة الذي هبَّ واقفًا، وكان هذه المرةَ صارمًا وحازمًا. وقال: «أريد أن أوضِّح يا سيدي أن السيد إيلمور كان بالفعل في منصة الشهود، ولم يكن حينها مستعدًّا لتقديم أي تفسيراتٍ على الإطلاق، أو حتى للإجابة عن أسئلة؛ لذا ألتمس منك قبل أن تسمح له بتقديم التفسير الآن، أن تسمع شاهِدًا آخَرَ أودُّ أن أستدعيَه في اللحظة الراهنة. وهذا الشاهد هو ...»

التفت السيد إيلمور إلى القاضي فيما يُشبه الغضب.

وقال في إصرار: «بعد شهادة الشاهد الأخير، أعتقد أن لديَّ الحقَّ في أن أتحدَّث على الفور. إذ يبدو من سَير الأمور في اللحظة الراهنة كما لو أنني استخففتُ بسيادتك وبالمحلَّفين، لكن لو سُمِح لي بتقديم تفسير سـ...»

قال مستشار الخِزانة حازمًا: «لا أجد مَفرًّا من أن أطلب — مع كامل الاحترام — أن تُسمَع شهادةُ الشاهد الذي أشرتُ إليه قبل أن يُسمَح للسيد إيلمور بتقديم أي تفسير. فثَمَّةَ أسبابٌ وجيهة لطلبي.»

قال القاضي: «أخشى أنك ستُضطر إلى الانتظار قليلًا يا سيد إيلمور إذا أردتَ أن تُقدِّم تفسيرًا.» والتفت إلى المستشار. وسأل: «مَن يكون هذا الشاهد الآخر؟»

تراجَع إيلمور. ولاحَظ سبارجو أن صُغرى ابنتَيْه كانت تُحدِّق فيه في قلق. لم ترتسم على ملامحها أَمَاراتُ شكٍّ في أبيها، لكنها كانت قَلِقة. والتفتَتْ هي الأخرى ببطءٍ إلى الشاهد التالي. ولم يكن إلا الحارس الذي يعمل في نُزُل إمبانكمنت بزقاق ميدل تمبل. طرح عليه مستشارُ الخِزانة سؤالًا مباشِرًا على الفور.

قال وهو يشير إلى إيلمور: «أترى ذلك السيد النبيل؟ هل تعرفه كأحدِ نُزلاء تمبل؟»

حدَّقَ الرجل إلى إيلمور في ارتباكٍ ظاهر.

وقال: «بالتأكيد يا سيدي. أعرفه جيدًا يا سيدي.»

سأل المستشار: «جيد جدًّا. بأي اسم تعرفه؟»

زاد ارتباك الرجل.

وأجاب: «الاسم! السيد أندرسون يا سيدي. السيد أندرسون!»

الفصل الثالث عشر

الاشتباه

ضجَّتْ قاعة المحكمة المزدحمة بغمغماتِ مفاجأةٍ استعصَت على السيطرة عندما نطق الرجل الماثل في منصة الشهود بإجابته. فقد دلَّت إجابتُه على عدةِ أشياء، أولها أنه كان من بين الحضور مَن توقَّعوا هذا التطوُّرَ الدرامي؛ وثانيها أن آخَرين من بين الحضور لم يتوقَّعوه؛ وثالثها أن الإجابةَ نفسَها لم تكن إلا تمهيدًا للمزيد من التطوُّرات. ولما نظر سبارجو حوله لاحَظَ أنَّ وقْعَ المفاجأةِ على ابنتَي إيلمور كان مختلفًا. فقد أخفضَت كُبراهما وجهَها حتى تعذَّرت رؤيته، في حين انتصبَت الصُّغرى في جلستها تمامًا وحدَّقَت في أبيها في حيرةٍ شديدة وحقيقية. وللمرة الأولى لم يَصدُر عن إيلمور ما يردُّ به على حيرتها.

لكن الأمور مضَت في مسارها بلا توقُّف. لم تَعُد هناك وسيلةٌ لكبح جِماح مستشار الخزانة الآن، سيستخلص الحقيقة أو بعضًا منها على طريقته الخاصة التي لا هوادةَ فيها. كانت عيناه قد تلاقَت مع عينَي القاضي مرةً واحدة فقط، وهمس بشيء لمحامي الإجراءات الذي كان يجلس بجواره، وها هو يعود لتوجيه انتباهه إلى الشاهد.

قال: «تأكَّد الآن! هل هو صحيح أنك تعرف هذا السيد باسم السيد أندرسون، وهو نزيلٌ في تمبل؟»

«نعم يا سيدي.»

«ولا تعرفه بأي اسم آخَر؟»

«كلا يا سيدي.»

«منذ متى تعرفه بهذا الاسم؟»

«منذ سنتَين أو ثلاث يا سيدي.»

«وكنتَ تراه يدخل ويخرج بانتظام؟»

«كلا يا سيدي ... ليس بانتظام.»

«بأيٍّ وتيرةٍ إذن؟»

«من وقتٍ لآخَر سيدي، ربما مرةً واحدة في الأسبوع.»

«أخبِرنا بما تعرفه عن دخول السيد أندرسون وخروجه.»

«قد أراه ليلتَين متتاليتَين، ثم لا أراه لمدة أسبوع أو أسبوعَين، يمكن القول إنها وتيرةٌ غيرُ منتظمة يا سيدي.»

«تقول «ليلتَين». فهل معنى ذلك أنك لا ترى السيد أندرسون إلا ليلًا؟»

«نعم سيدي. لم أرَ السيد أندرسون قطُّ إلا ليلًا. ودائمًا في الوقت نفسِه تقريبًا يا سيدي.»

«أي وقت؟»

«نحوَ منتصف الليل يا سيدي.»

«حسنًا. هل تتذكَّر منتصف ليل الحادي والعشرين-الثاني والعشرين من يونيو؟»

«نعم يا سيدي.»

«هل رأيت السيد أندرسون يدخل في ذلك الوقت؟»

«نعم يا سيدي، بعد الثانيةَ عشرةَ مباشَرةً.»

«وهل كان بمفرده؟»

«كلا سيدي، كان برفقته رجلٍ آخَر.»

«هل تتذكَّر أي شيء عن الرجل الآخر؟»

«كلا سيدي، لا أتذكَّر إلا أني لاحظتُ وهما يمرَّان أن الرجل الآخَر كان يرتدي ملابسَ رمادية.»

«يرتدي ملابسَ رمادية. ألم تَرَ وجهَه؟»

«ليس بما يكفي لتذكُّره، يا سيدي. لا أتذكَّر إلا ما أخبرتُك به سيدي.»

«الذي هو أن الرجلَ الآخَر كان يرتدي بِذلةً رمادية. لكن إلى أين ذهب السيد أندرسون وذلك الرجل ذو البذلة الرمادية بعدما مرَّا؟»

«إلى زقاق ميدل تمبل مباشَرةً يا سيدي.»

«هل تعلم أين يوجد مسكن السيد أندرسون في تمبل؟»

«ليس بالتحديد يا سيدي، لكني فهمتُ أنه في فاونتن كورت.»

«والآن أخبرني، في الليلة التي نتحدَّث عنها، هل غادَرَ السيد أندرسون مرةً أخرى؟»

«كلا، يا سيدي.»

«هل سمعتَ عن اكتشافِ جثةِ رجلٍ في زقاق ميدل تمبل في الصباح التالي؟»

«نعم، سيدي.»

«هل توقَّعت أن يكون ذلك الرجلُ هو الرجلَ ذا البذلة الرمادية؟»

«كلا، يا سيدي. لم يخطر ذلك ببالي. فالكثير من الرجال الذين يعيشون في تمبل يُحضِرون معهم أصدقاءَ لهم في وقتٍ متأخر من الليل؛ ولم أشغَل تفكيري بهذا الأمر قطُّ.»

«ولم تَذكُر ذلك لأحدٍ قبل أن تُستدعى إلى هنا الآن؟»

«نعم سيدي، لم أذكره لأحدٍ قطُّ.»

«ولم تعرف للرجل الواقفِ هناك أيَّ هُوية غير أنه السيد أندرسون؟»

«نعم سيدي، لم أسمع له بأيِّ اسم غير أندرسون.»

نظر قاضي الوَفَيَات إلى المستشار.

وقال: «أعتقد أن هذه قد تكون فرصةً مناسِبة للسيد إيلمور ليُقدِّم التفسيرَ الذي أراد تقديمَه منذ دقائقَ قليلة. فهل تقترح أي شيء؟»

رد المستشار: «أقترح يا سيدي أن السيد إيلمور إذا أراد أن يُقدِّمَ أيَّ تفسير، فعليه أن يعود إلى مِنصة الشهود، وأن يُسمَح بإعادة استجوابه تحت القَسَم. الأمر مرهونٌ بأمرك.»

التفت قاضي الوَفَيَات لإيلمور.

وقال: «هل تعترض على ذلك؟»

تقدَّم إيلمور في جُرأة إلى الأمام وصعد إلى منصة الشهود.

وقال بنبرة واضحة: «لا أعترض على أي شيءٍ سِوى أن يُطلَب مني الإجابة عن أسئلةٍ متعلقة بأمور في الماضي لا علاقةَ لها بهذه القضية، ولا يُمكِن أن تمُتَّ لها بصِلة. اطرَحوا عليَّ كل ما أثارَتْه شهادتا الشاهِدَين الأخيرين من أسئلة، وسأُجيب عنها إلى الحد الذي أعتبره أنا مناسبًا. أمَّا إذا سألتموني عن أمورٍ مضى عليها عِشرون عامًا، فسأحتكم في قرار الإجابة أو رفض الإجابة إلى تقديري الشخصي. ويجدر بي القولُ إني مستعِدٌّ لمواجَهة تَبِعات صمتي أو كلامي.»

قام مستشار الخزانة مجددًا.

وقال: «جيد جدًّا يا سيد إيلمور. سأطرح عليك أسئلةً محدَّدة. هل سمعتَ شهادةَ ديفيد لايل؟»

«نعم.»

«هل كان ما قاله عنك صحيحًا؟»

«صحيحٌ تمامًا، لا غبارَ عليه.»

«وقد سمعتَ شهادةَ الشاهد الأخير. فهل كان ما قاله هو أيضًا صحيحًا؟»

«نعم، هذا أيضًا صحيح.»

«إذن أنت تعترف أن الشهادةَ التي أدليتَ بها هذا الصباحَ — قبل أن يظهر هذان الشاهِدان — لم تكن صادِقة؟»

«كلا، لا أعترف بذلك! لا أعترف بذلك البتَّة. لقد كانت شهادةً صادقة.»

«صادقة؟ لقد قلتَ لي وأنت تحت القَسَم، إنك افترقتَ عن جون ماربري على جسر ووترلو!»

«معذرة، أنا لم أقُل شيئًا كهذا. بل قلتُ إننا خرجنا من فندق أنجلو أورينت ثم تمشَّينا بطول جسر ووترلو، ثم افترقنا بعد ذلك بقليل، ولم أقُل أين افترقنا. أرى كاتبًا موجودًا هنا يُدوِّن كلَّ شيء، اسأله عما قلتُه بالضبط.»

استُشِير الكاتب، فأكَّد صحةَ كلام إيلمور، فامتعض مستشار الخِزانة بوضوح.

وقال: «على أي حال، لقد صُغتَ إجابتَك على نحوٍ يجعل تسعةً من كل عشرة أشخاص يفهمون أنك افترقتَ عن ماربري في الشوارع المفتوحة بعد عبور جسر ووترلو. والآن ...؟»

ابتسم إيلمور.

وقال وهو ينظر شزَرًا: «لستُ مسئولًا عن فَهمِ تسعةٍ من كل عشَرة أشخاص، ولا عن فَهْمك. سأُكرِّر ما قلتُه: عبَرت أنا وماربري جسر ووترلو، ثم افترقنا بعد ذلك بوقتٍ قصير. لقد أخبرتُك بالحقيقة.»

«صحيح! ربما يُمكِنك أن تُواصِل إخبارنا بالحقيقة. بما أنك أقررتَ بأن شهادتَي الشاهِدَين الأخيرين صحيحتان تمامًا، فهل يُمكِنك إخبارُنا أين افترقتَ عن السيد ماربري بالتحديد؟»

«على الرحب والسعة. افترقنا عند باب مسكني في فاونتن كورت.»

«إذن — للتأكيد — هل كنتَ أنت مَن اصطحب ماربري إلى تمبل تلك الليلة؟»

رد إيلمور: «بالتأكيد أنا مَن اصطحب ماربري إلى تمبل تلك الليلة.»

سرَت الغمغماتُ بين المقاعد المكتظَّة من جديد. فقد باتت هناك حقيقةٌ راسخة مهمة. وبدأ سبارجو يتصوَّر مسارًا للأحداث لم يتوقَّعْه.

«هذا اعترافٌ صريح يا سيد إيلمور. أظنك تُدرِك خطرَه عليك.»

«لا حاجةَ لي لأقول ما إذا كنتُ أدرك الخطر أم لا. فقد أقررتُ بالأمر فحسب.»

«جيد جدًّا. لِمَ لَم تُقدِّم هذا الاعترافَ من قبلُ؟»

«لأسبابي الخاصة. أخبرتُك بما اعتبرتُه ضروريًّا لهذا التحقيق. ولم أُغيِّر شيئًا الآن. طلبتُ الإذنَ لتقديمِ تفسيرٍ فورَ أن غادَر السيد لايل منصةَ الشهود، ولم أُمنَح الإذن. وأريد أن أُقدِّم التفسيرَ الآن.»

«قدِّمه إذن.»

قال إيلمور ملتفتًا إلى القاضي: «التفسير كما يلي: خلال السنوات الثلاث الماضية، كنتُ أستأجر مسكنًا بسيطًا في تمبل، بحيث يُمكِنني من وقتٍ لآخَر، أن أقصده في وقتٍ متأخر من الليل. كما قرَّرت لأسبابي الخاصة التي أعتقد أنها لا تعني أحدًا أن أستأجر هذا المسكنَ باسم السيد أندرسون. وقد صحبني ماربري في منتصف تلك الليلة عدةَ دقائقَ إلى مسكني هذا. ولم يلبث هناك أكثرَ من خمس دقائق كان خلالها يقف في الخارج، تركتُه على بابي الخارجي، وفهمت أنه سيُغادِر تمبل من الطريق نفسِه الذي دخل منه، ثم سيعود إلى فندقه مباشَرةً راكبًا أو ماشيًا. هذه هي الحقيقة الكاملة. وأريد أن أضيفَ أنه ربما كان عليَّ الإفصاحُ عن كل ذلك في البداية. لكن كانت لديَّ أسبابٌ للامتناع عن ذلك. فأفصحتُ بما اعتبرتُه ضروريًّا، وهو أني افترقتُ عن ماربري وهو حيٌّ يُرزَق بعد منتصف الليل بقليل.»

سأل مستشار الخزانة: «وما الأسباب التي منعَتْك من الإفصاح عن كل هذا من البداية؟»

«أسبابٌ خاصة بي.»

«هل ستُخبِر هيئةَ المحكمة بها؟»

«كلا!»

«إذن هل ستُخبرنا لماذا رافَقَك ماربري إلى المسكن الذي تستأجره في فاونتن كورت باسم أندرسون؟»

«نعم. كان ذلك لإحضارِ وثيقةٍ تخصُّه كانت في حوزتي منذ عشرين عامًا أو أكثر.»

«وثيقة مهمة؟»

«في غاية الأهمية.»

«هل يعني هذا أنها كانت معه عندما قُتِل وسُرِقت متعلقاته حسب اعتقادنا لما جرى له؟»

«كانت معه عندما تركني.»

«هل ستُخبِرنا بماهية الوثيقة؟»

«قطعًا لا.»

«إذن أنت لن تُخبرنا إلا بما تختار الإفصاحَ عنه؟»

«أخبرتُك بكل ما يُمكِنني الإفصاحُ عنه من وقائع تلك الليلة.»

«إذن سأسألك سؤالًا في صُلب الموضوع. أليس صحيحًا أنك تعرف عن جون ماربري أكثرَ بكثير مما أخبرتَ به هيئة المحكمة؟»

«أرفض الإجابةَ عن هذا السؤال.»

«أليس صحيحًا أن بإمكانك أن تُخبِر هيئة المحكمة بالمزيد عن جون ماربري ومعرفتك به منذ عشرين عامًا إن أردت؟»

«أرفض الإجابة عن هذا السؤال أيضًا.»

حرَّك مستشار الخِزانة كتفَيه حركةً خفيفة، والتفت إلى القاضي.

وقال في هدوء: «أقترح يا سيدي أن تُؤجِّل هذا الاستجواب.»

قال القاضي موافِقًا وملتفتًا إلى المحلَّفين: «لأسبوع.»

تدفَّقَ الحشد إلى خارج المحكمة يُدردشون ويُغمغمون ويتعجَّبون ... واختلط المتابِعون والشهود والمحلَّفون والصحفيون والقانونيون جميعًا معًا. وأخذ سبارجو يشقُّ طريقًا لنفسه بينهم وهو مستغرِق في التفكير في قيمةِ ما أَضْفَتْه وقائعُ ذلك اليوم من تغييرات على ملامح كل شيء، وفجأةً شعر بيدٍ تُمسِك بذراعه. ولما التفت وجد نفسَه يحدِّق في جيسي إيلمور.

الفصل الرابع عشر

التذكرة الفضية

سحب سبارجو الفتاة جانبًا من بين الحشد بحرصٍ غريزي على حمايتها، وبعد لحظةٍ كان قد قادها إلى شارع جانبي هادئ. وأخذ ينظر إليها عندما وقفتْ تلتقطُ أنفاسها.

قال في هدوء: «نعم؟»

نظرَت إليه جيسي إيلمور وعلى وجهها ابتسامةٌ ضعيفة.

وقالت: «أريد التحدث إليك. بل لا بدَّ أن أتحدَّث إليك.»

قال سبارجو: «حسنًا. لكن ماذا عن الآخَرين؟ أختك؟ ... وبريتون؟»

ردَّت: «تعمَّدتُ ترْكَهم لآتيَ للتحدُّث إليك. وهم يعرفون أني انفصلتُ عنهم. اعتدتُ العناية بشئوني الخاصة.»

تقدَّم سبارجو في الشارع الجانبي، وأشار إلى رفيقته لتتقدَّم معه.

وقال: «ما تحتاجين إليه هو الشاي. أعرف مكانًا غريبًا قديمَ الطراز على مقربة من هنا يُمكِنكِ فيه احتساءُ أفضل شاي صيني في لندن. تعالَي واشربي بعضًا منه.»

ابتسمت جيسي إيلمور وتبعت دليلَها مُطِيعةً. ولم يقُل سبارجو شيئًا، بل مضى في طريقه بثبات واضعًا إبهامَيه في جيبَي الصديري الذي كان يرتديه وأخذ يُحرِّك باقيَ أصابعه خارج الجيبَين كمَن يعزف لحنًا غير مسموع، وظل على حاله حتى استقر هو ورفيقته في ركنٍ هادئ بالمقهى القديم الذي حدَّثها عنه، وطلب من النادلة التي بدا جليًّا أنها تعرفه شايًا وكعك الشاي. ثم التفت إلى رفيقته.

وقال: «هل تريدين الحديثَ معي عن أبيكِ؟»

ردَّت: «نعم. هذا ما أريد.»

سأل سبارجو: «لماذا؟»

حدجته الفتاة بنظرة فاحصة.

وردَّت: «يقول رونالد بريتون إنك الرجل الذي كتب كلَّ هذه المقالات الخاصة في صحيفة «ووتشمان» عن قضية ماربري. أهذا صحيح؟»

قال سبارجو: «نعم.»

قالت: «إذن أنت رجلٌ بالغُ التأثير. يُمكِنك توجيهُ رأيِ العامة. يا سيد سبارجو، ماذا ستكتب عن أبي وعما جرى اليوم؟»

أشار سبارجو إليها بأنْ تصبَّ الشاي الذي وصل للتو. وأمسك في حماسٍ بقطعة من كعك الشاي الساخن المُترَع بالزبد، وقضم منها قضمةً كبيرة.

قال بصوتٍ حالَ امتلاءُ فمِه من خروجه واضحًا: «بصراحة، لا أعرف. لا أعرف بعدُ. لكن من الأفضل أن أقول لكِ الحقيقة ... ينبغي ألَّا أسمح لأي شيءٍ قد تقولينه لي بجعلي أتحيَّز أو أتحامل في الاستنتاجات التي أتوصَّل إليها. أفهمتِ قصدي؟»

شعرَت جيسي إيلمور بإعجابٍ مفاجئ بسبارجو لأسلوبه المباشِر غير التقليدي.

وقالت: «لا أريد أن أجعلك تتحامل أو تتحيَّز. كل ما أريد هو أن تتيقَّن تمامًا من ... أي شيء ... قبل أن تُفصِح عنه.»

قال سبارجو: «سأتيقَّن. لا تقلقي. هل أعجبَكِ الشاي؟»

قالت وعلى وجهها ابتسامةٌ جعلت سبارجو ينظر إليها من جديد: «إنه رائع! جميل! أخبِرْني يا سيد سبارجو، ما رأيك في ... فيما حدث؟»

رفع سبارجو إحدى يدَيه ومسح بها على شعره الذي كان مبعثرًا كعادته دائمًا غيرَ آبهٍ بالزُّبْد الذي كانت أصابعه مُترَعة به. ثم أكل المزيدَ من كعك الشاي واحتسى المزيدَ من الشاي.

وقال فجأة: «اسمعي! لا أجيد الحديث. لكنني أستطيع الكتابةَ ببراعة عندما تكون في جَعْبتي قصةٌ جيدة لأرويَها، مع ذلك لا أتحدَّث كثيرًا؛ لأني لا يُمكِنني أبدًا أن أُعبِّر عما أعني إلا إذا كان في يدي قلم. بصراحة، أجد صعوبةً في إخبارِكِ برأيي. عندما أكتب مقالتي هذا المساء، سأصوغ كلَّ هذه الأحداث في شكلٍ مناسب، وسأكتبُ عنها بوضوح. لكنني سأخبرك برأيي في شيءٍ واحد: ليتَ أباكِ صارَحني بكل ما لديه في البداية عندما أجريتُ معه تلك المقابَلة، أو حتى ليته قال كل ما لديه عند صعوده إلى منصة الشهود للمرة الأولى.»

سألَتْه: «لماذا؟»

رد سبارجو: «لأنه الآن تسبَّبَ في إثارة الرِّيبة والاشتباه حول نفسه. فالناس سيفكِّرون، وستذهب بهم الظنون كلَّ مَذهب! إنهم يعرفون بالفعل أنه يعرف عن ماربري أكثرَ مما يريد الإفصاحَ عنه، وهذا ...»

قاطعَته بسرعة: «لكن هل هذا صحيح؟ أتعتقد أنه يعرف أكثرَ مما قال؟»

ردَّ سبارجو قاطِعًا: «نعم! هذا ما أعتقد. يعرف أكثر بكثير! ليتَه كان صريحًا من البداية ... لكنه لم يكن كذلك. والآن قُضِي الأمر. اسمعي، هل تدركين أن أباك في خطرٍ داهِم في الوضع الحالي؟»

قالت مُتسائِلة: «خطر؟»

رد سبارجو: «خطر داهِم! فالحقائق كما يلي: لقد أقرَّ بأنه اصطحب ماربري معه إلى مسكنه في تمبل تلك الليلة. وفي الصباح التالي عُثِر على ماربري مقتولًا ومتعلقاته مسروقة في مدخل يبعد عنه بأقلَّ من خمسين ياردة!»

ضحكت بازدراءٍ وقالت: «وهل يتصوَّر أحد أن يُقدِم أبي على قتْلِه لسرقة متعلقاته أيًّا كانت؟ أبي رجلٌ واسِعُ الثراء يا سيد سبارجو.»

قال سبارجو: «قد يكون هذا صحيحًا. لكن من المعروف أن أصحاب الملايين يقتلون مَن يكتمون أسرارًا.»

قالت في استغراب: «أسرار!»

قال سبارجو وهو يُومِئ إلى إبريق الشاي: «اشربي المزيد من الشاي. اسمعي ... ها هي الحكاية. الفرضية التي سيُكوِّنها الناس ... أو بعض الناس (ولن أنكر أنها راوَدَتْني أنا شخصيًّا) هي أن ثَمةَ لغزًا في هذه العلاقة أو المعرفة أو الصلة أو ما كان يجمع أباكِ بماربري منذ عشرين عامًا بصرفِ النظر عن ماهيَّته. لا شكَّ في ذلك. هناك سرٌّ عمرُه عشرون عامًا في حياة أبيك. لا بد أنَّ هناك سرًّا، وإلا لَأجاب عن تلك الأسئلة. سيقول العامة: «حسنًا، الآن فهمنا الأمر؛ كانت لدى ماربري وسيلةٌ للسيطرة على إيلمور. وظهر ماربري. فاستدرَجَه إيلمور إلى تمبل وقتله ليصون سرَّه، وسرق منه كلَّ ما كان معه للتمويه.» صحيح؟»

قالت منفعلةً: «تعتقد أن هذا ما سيقوله الناس؟»

رد: «متأكِّدٌ تمامًا! فهُم يقولون ذلك بالفعل، سمعتُ الكثير منهم يقولونه بطريقةٍ أو بأخرى وأنا أخرج من المحكمة. وبالطبع سيقولون ذلك. ماذا عساهم يقولون غيره؟»

جلست جيسي إيلمور لوهلة تنظر إلى فنجان الشاي في صمت. ثم وجَّهت عينَيها إلى سبارجو، الذي بدا عليه فجأةً اهتمامٌ مفاجئ بما تبقَّى من كعك الشاي.

سألته في هدوء: «أهذا ما ستَكتُبه في مقالك في الصحيفة اليوم؟»

رد على الفور: «كلا! لن أكتب ذلك. سأنتظر الليلةَ وأترقَّب. وبالإضافة إلى ذلك، القضيةُ منظورةٌ أمام القضاء. كلُّ ما سأفعله هو سرْدُ ما حدث في المحاكَمة على طريقتي.»

مدَّت الفتاة يدَها ووضعتها على قبضة سبارجو الكبيرة بلا تفكير.

وسألت بصوت خفيض: «أهذا ما تظن؟»

قال سبارجو منفعلًا: «كلا، أقسم بشرفي إن هذا ليس ظني! ليس صحيحًا! لا أظن ذلك البتة. أظن أن هناك لغزًا شديدَ الغموض وراء مَقتل ماربري، وأعتقد أن أباكِ يعرف الكثير عن ماربري ولا يريد الكشف عنه، لكني متأكِّد تمامًا أنه لم يقتل ماربري ولا يعرف أيَّ شيءٍ على الإطلاق عن مَقتله. وبينما أمضي في مسعايَ لحل هذا اللغز — وقد عقدتُ العزم على ذلك — سيُسعِدني إبراءُ ساحةِ أبيك أكثر من أي شيء. فَلْتأكلي بعضًا من كعك الشاي. سنطلب المزيدَ منه، ومن الشاي أيضًا.»

قالت مبتسمةً: «كلا، شكرًا لك. شكرًا لك على ما قلتَه أيضًا. سأنصرف الآن يا سيد سبارجو. لقد كنتَ كريمًا معي.»

قال سبارجو منفعلًا: «لا داعيَ للشكر! لم أفعل شيئًا! قلتُ لك رأيي فحسب. هل أنتِ مضطرَّة للانصراف؟»

أوصَلَها إلى سيارة أجرة على الفور، وعندما رحلَت وقف يُحدِّق في سيارة الأجرة شاردَ الذهن حتى ربَّتتْ يدٌ على كتفه برفق. التفت فوجد راثبري يبتسم له.

وقال: «حسنًا يا سيد سبارجو، لقد رأيتُك! مُرافَقةُ الشابات تغييرٌ مُبهِج بعد قضاء يوم كامل في تلك المحكمة. اسمع، هل ستبدأ في كتابتك الآن؟»

رد سبارجو: «لن أبدأ في كتابتي — حسب تعبيرك — إلا بعد أن أتعشَّى الساعةَ السابعة وأمنحَ نفسي فرصةً لهضمِ عشائي المتواضِع. ما الأمر؟»

قال راثبري: «عُد معي وألْقِ نظرةً أخرى على تلك العُلْبة الجلدية. إنها في غرفتي، وأود أن أفحصها بنفسي. تعالَ!»

قال سبارجو: «إنها فارغة.»

فقال راثبري: «قد يكون فيها جيبٌ خفي. مَن يعلم؟! هيا! اركب!»

ودفع سبارجو إلى داخل سيارة أجرة عابرة، ثم طلب من السائق أن يتوجَّه إلى سكوتلاند يارد على الفور. لما وصلا دلف هو وسبارجو إلى غرفةٍ كئيبةِ المنظر كان الصحفيُّ قد رآه فيها من قبلُ، وأغلَقَها راثبري عليهما.

وسأل: «ما رأيك فيما حدث اليومَ يا سبارجو؟» وفتح قُفلَ خزانةٍ كانت في الغرفة.

ردَّ سبارجو: «أعتقد، أن بعضكم أيها الرفاق قد حزمتم أمركم.»

وافَقه راثبري: «صحيح. بالطبع، المهمة التالية هي أن نعرف كلَّ شيء عن السيد إيلمور منذ عشرين عامًا. فعندما يرفض رجلٌ الإفصاحَ عن المكان الذي كان يعيش فيه من عشرين عامًا، أو عن عمله حينئذٍ بالتحديد، أو عن طبيعة علاقته برجلٍ آخَر بدقة، فلا بدَّ من البحث عن الإجابات، أليس كذلك؟ بعض الزملاء يبحثون في تاريخِ حياةِ الموقَّر ستيفن إيلمور عضو البرلمان بالفعل، بالطبع! والآن يا سبارجو، ها هي العُلْبة الشهيرة.»

أخرَجَ المحقق العُلْبةَ الجلدية القديمة من الخزانة التي كان يُفتش عنها فيها، ووضعها على مكتبه. فتح سبارجو غِطاءَها ونظر بداخلها، وأخذ يُقارِن سَعتَها من الداخل بمحيطها من الخارج.

وقال: «لا يوجد جيب خفي فيها يا راثبري. لا يوجد سوى العُلْبة الجلدية الخارجية والبطانة الداخلية القديمة، لا شيءَ غير ذلك. ولا مكانَ لأيِّ جيبٍ خفي أو أي شيءٍ من هذا القبيل، هل ترى شيئًا؟»

قيَّمَ راثبري أيضًا سَعةَ العُلْبة.

وقال محبَطًا: «يبدو ذلك. ماذا عن الغطاء إذن؟ أتذكَّر أن عُلْبةً قديمة مثل هذه كانت في بيت جدتي الريفي الذي نشأتُ فيه، وكان في غطائها جيب. لنرَ ما إذا كان هناك شيءٌ من هذا القبيل.»

فتح الغطاء وأخذ يتحسَّس بطانته بأطراف أصابعه، ثم التفت إلى رفيقه وعلى وجهه اندهاشٌ بالغ.

وقال: «يا إلهي! سبارجو! لا أعرف إن كان هناك جيب، لكنَّ هناك شيئًا تحت البطانة. تحسَّسْها. هنا ... وهنا.»

تحسَّسَ سبارجو المكانَين بإصبعه.

وقال موافِقًا: «نعم، هذا صحيح. يبدو أن هناك بطاقتَين، واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، والصغيرة أكثرُ صلابةً من الكبيرة، علينا إزالة البطانة يا راثبري.»

قال راثبري وهو يُخرِج سكين جيب: «هذا ما سأفعله بالضبط. سنقطع بطول هذه الخياطة.»

نزع البطانةَ بعنايةٍ من الطرف العلوي للغطاء، ونظر تحتها ثم سحب شيئَين ووضعَهما على لوحِ تجفيفِ الحبر.

قال وهو ينظر إلى أحد الشيئَين: «صورة طفل. لكن، ماذا قد يكون هذا بحق السماء؟»

وكان يشير إلى قطعةٍ من الفِضة صغيرةٍ ورفيعة ومستطيلة وشديدة القِدَم، يُقارِب حجمُها حجمَ تذكرة القطار. وكان على أحد جانبَيها ما بدا أنه شعارٌ للنبالة أو وسامٌ حربيٌّ كاد يختفي من فرط الكشط، وكان على الجانب الآخَر رسْمُ حصانٍ أيضًا كاد الاحتكاكُ يمحوه هو الآخَر.

قال سبارجو وهو يُمسِك البطاقة الفضية: «شيء غريب. لم أرَ مثلَه قطُّ. ماذا عساه يكون؟»

رد راثبري: «لا أعرف … لم أرَ شيئًا كهذا قطُّ أنا أيضًا. ربما كان وسامًا قديمًا. وماذا عن هذه الصورة؟ هل ترى؟ لقد نُزِع اسمُ المصوِّر وعُنوانه أو أُزِيلا … لم يتبقَّ شيء إلا حرفَين مما كان على ما يبدو اسمَ البلدة. هذا كل ما تبقَّى. وصورة للطفل، صحيح؟»

ألقى سبارجو نظرةً لو ألقاها أيُّ شخصٍ غيره لَاعتُبِرت نظرةً خاطفة لا أكثر على صورة الطفل. ثم أمسك البطاقة الفضية مجددًا وأخذ يُقلِّبها على وجهَيها.

وقال: «اسمع يا راثبري. دَعْني آخُذ هذه البطاقة الفضية. أعلم أين يُمكِنني معرفة ماهيَّتها. أعتقد ذلك على الأقل.»

وافَق المحقِّق قائلًا: «حسنًا، لكن اعتنِ بها عنايةً بالغة، ولا تُخبِر أحدًا أننا وجدناها في هذه العُلْبة. لا تربط بينها وبين قضية ماربري يا سبارجو، لا تَنْسَ.»

قال سبارجو: «حسنًا. ثِق بي.»

ووضع سبارجو البطاقة الفِضية في جيبه، وعاد إلى المكتب يتساءل عن هذا الاكتشاف الفريد. وبعد أن كتب مقاله ذلك المساء وتفقَّدَ نسخةً منه، قصد شارع فليت عاقدًا العزمَ على البحث عن معلوماتٍ ذاتِ طبيعةٍ خاصة.

الفصل الخامس عشر

ماركت ميلكاستر

خرج سبارجو من مقر صحيفة «ووتشمان» متجهًا إلى مقصد العارفين، وهو مكانٌ خفيٌّ عن أعين السابلة ومجهولٌ لهم، في إحدى ساحات شارع فليت التي لا مثيلَ لها في العالم. ولم يعرفه إلا القليلون. وبالطبع كان ذلك المقصدُ ناديًا، وإلَّا لَما قصده العارفون. أسهل شيء في العالم — أو في إنجلترا على وجه التحديد — هو إنشاءُ نادٍ يضمُّ أصحابَ الميول المتشابهة. تجمع حولك أكبرَ عددٍ ممكن ممَّن قد يقع عليهم اختيارك من الأصدقاء والمعارف، وتُسجِّلون أنفسَكم تحت اسمٍ من اختياركم، وتتَّخِذون منزلًا وتؤسِّسونه حسب إمكانياتكم وأذواقكم، وتلتزمون بنصوص القانون، وليس ذلك بعسير، وبهذا يتمُّ لك كل شيء. التزِمْ بنص القانون البسيط، وعندئذٍ يُمكِنك فعلُ ما يحلو لك في حدودِ مقرِّك. امتلاكُ جَنَّتك الصغيرة هذه أفضلُ بكثيرٍ من التسكُّع في حانات شارع فليت.

النادي الذي كان سبارجو يحثُّ الخُّطى نحوه كان يحمل اسم أكتونيومينوا. ظلت هُوية مَن سمَّاه بهذا الاسمِ الغريب الذي يجمع بين اللاتينية واليونانية سرًّا دفينًا، ومع ذلك، ها هو الاسم مكتوب على لوحةٍ نُحاسية صغيرة تُواجِهك ما إن تَبلغ بوابةَ النادي. وكان عليك سلْكُ طريقٍ ملتوٍ إن أردتَ الوصولَ إلى النادي. تخرج من شارع فليت عبر زقاقٍ ضيق لدرجةٍ تجعلك تخشى أن يعلق جسمك فجأةً بين الجدران العتيقة. ثم تنفذ منه إلى زقاقٍ آخَر حتى تجد نفسَك في ساحة صغيرة تحيط بك جدرانُها العالية، وتُزكم أنفَك رائحةُ حِبر الطابعات، وتجتاح أذنَيك أصواتُ دوران الطابعات. ومن هناك تَخوض مَدخلًا مُظلمًا يغصُّ بِرزَم الورق وصناديق موادِّ الطباعة وبرطمانات الحبر، وبعدما تمضي متعثرًا بين هذه العوائق تصل إلى دَرَج عتيق يصعد بك عدةَ أدوار، ولا تُفارِقك

الكآبةُ والتوجُّس في مسيرتك هذه. وبعد الكثير من الانعطافات والمنحنيات تصل إلى أعلى المبنى وتُلاحِظ الستائرَ الكثيرة التي تحجبه عنك. ترفع ستارًا فتجد نفسَك في طابقٍ وسيط صغير مدهونٍ بشيء من الفن، على يدِ عضوٍ ذي ميولٍ فنية جاء الناديَ ذاتَ يومٍ ووضع في هذا الطابق عملَه الفني الأوحد الذي استخدم فيه الكثيرَ من الأخشاب وعبوات الدهان، فحوَّل الخشبَ العتيق إلى ما هو عليه الآن. بعد ذلك تجد اللوحةَ النُّحاسية التي تحمل الاسمَ المهيب، وتحتها إشعارٌ رسميٌّ قانوني بأن هذا الناديَ مسجَّل حسب القواعد وما إلى ذلك، وعندئذٍ يمكنك الدخول إذا كنتَ عضوًا في النادي، وإذا لم تكن يتعيَّن عليك أن تَقْرع جرسًا كهربيًّا وتطلب مقابَلَةَ أحد الأعضاء ... إذا كنتَ تعرف أحدهم.

لم يكن سبارجو عضوًا في النادي، لكنه كان يعرف الكثير من الأعضاء، فقرع الجرسَ وسأل الساعيَ الذي أجابه عن السيد ستاركي. وكان السيد ستاركي شابًّا مفتولَ العضلات كمُقاتِل محترف، وشعرُه أجعد مثل البطل أنطونيوس، وأسرع الشابُّ إلى سبارجو وصافَحَه بقوةٍ حتى اصطكَّت أسنانه بعضها ببعض.

قال السيد ستاركي: «لو علمنا بقدومك لَاستأجرنا فرقة نُحاسية نستقبلك بعزفها على الدَّرَج.»

قال سبارجو: «أريد الدخول.»

قال السيد ستاركي: «بكل تأكيد! هذا ما جئت من أجله.»

قال سبارجو: «أفسِحِ الطريقَ إذن وَلْندخل.» وواصَل حديثَه عندما دخلا قاعةً صغيرة: «اسمع، أَلَا يأتي العجوز كروفوت إلى هنا في هذا الوقت تقريبًا كلَّ ليلة؟»

قال ستاركي: «كلَّ ليلة، بانتظام كالساعة يا سبارجو، يدسُّ كروفوت أنفَه من المدخل في تمام الحادية عشرة، بعد أن ينتهيَ من كتابة العمود اليومي الذي يُطلِع فيه الجمهورَ على فُرَصهم في اختيار الحصان الفائز في اليوم التالي. لم يَتبقَّ إلا خمس دقائق على موعد وصوله. تعالَ وَلْنشرب شيئًا حتى يأتي. أتريده في أمرٍ ما؟»

أجاب سبارجو: «أريد الحديث معه. لن أُطيل عليه.»

تبع سبارجو ستاركي إلى غرفةٍ أعاق الدُّخَانُ الكثيف والضوضاءُ الصاخبة اللذان ملآها الرؤيةَ والسمعَ تمامًا. لكن الدُّخَان كان يرتفع ويتحوَّل سريعًا إلى ما يُشبه مظلةً تمكَّن سبارجو أن يرى تحتها مجموعاتٍ متعددةً من الرجال من كل الأعمار، يجلسون حول طاولات صغيرة ويُدخِّنون ويحتسون الشراب، ويتحدَّثون جميعًا كما لو كان هدفهم

الأسمى في الحياة هو أن يُصدِروا من أفواههم أكبرَ عددٍ من الكلمات في أقصرِ وقتٍ ممكن. وكان في الركن البعيد مَشربٌ صغير، سحب ستاركي سبارجو إليه.

قال ستاركي: «اطلب ما تريد يا بني. جرِّب المشروبَ الخاص جدًّا لنادي أكتونيومينوا.» وخاطب النادل: «كأسَين منه من فضلك يا ديك.» والتفت لسبارجو وواصَل: «هل أتيتَ تلتمس الانضمامَ لعضوية النادي يا سبارجو؟»

رد سبارجو وهو يأخذ كأسه: «سأُفكِّر في الانضمام لعضوية غرفة الانتظار في هذا المكان القميء عندما تُشغلون مروحةً للتهوية وتُمِدون الأعضاءَ بخارطةٍ لطريق الوصول إليه من شارع فليت. يا لها من أجواء!»

قال ستاركي: «نفكِّر بالفعل في تركيبِ مروحةٍ للتهوية. فأنا في لجنة إدارة النادي الآن، وقد طرحتُ هذه المسألةَ بالتحديد في الاجتماع الأخير. لكن تمبلسون الذي يعمل في صحيفة «بوليتين» — لا شكَّ أنك تعرفه — يقول إن ما نحتاج إليه هو مبرِّد للجِعَة لوضعه تحت هذا المشرب الجانبي، ويقول إن أيَّ نادٍ لا يكتمل إلا بمبرِّد الجعة، وإنه يعرف رجلًا يبيع المنتجاتِ المستعمَلةَ لديه مبرِّدٌ ممتاز. والآن ماذا كنتَ ستختار لو كنتَ عضوًا في لجنة إدارة النادي يا سبارجو: مبرِّد الجِعَة أم مروحة التهوية؟»

قال سبارجو: «ها هو كروفوت. نادِه إلى هنا يا ستاركي قبل أن يُبادِئه أيُّ شخصٍ آخَر بالحديث.»

دخل من نفس الباب الذي دخل منه سبارجو منذ دقائق قليلة رجلٌ، ووقف الرجل لِلَحظةٍ يرمش بعينَيه متأثرًا بالدُّخَان والأضواء. كان رجلًا طويلَ القامة، متقدمًا في السنِّ، له بِنيةُ جندي وشاربٌ كثٌّ كبير فوق فكٍّ مربع حادٍّ وتحت أنفٍ بارز، وأطلَّت من تحت شعره الأشعث عينان زرقاوان نافِذتان. لم يعتمر قبعةً من أي نوع، وكان يرتدي بِذلةً غيرَ مهندمة من نوع نورفولك مصنوعةً من الصوف البُني، لم يكن شديدَ الهندام ولا شديدَ الشَّعث. كان قميصه المصنوعُ من نسيج الفانيلا موشًّى بالألوان المميزة لأحد أشهر نوادي الكريكيت في العالم، وكان الجميع يعلمون أن مَن كانوا يرتدون قميصَ ذلك النادي عندما كان في أَوْجِه، كان العامةُ ينظرون إليهم بعين الإكبار.

اخترق صوتُ ستاركي ضجيجَ الأصوات المتداخِلة عندما صاح: «أهلًا كروفوت! كروفوت! كروفوت! تعالَ إلى هنا، هناك رجلٌ يَتُوق إلى لقائك!»

قال سبارجو: «نعم، هذه هي طريقةُ جذبِ انتباهه، الطريقة المُثْلى، أليست كذلك؟ هاك، سأذهب لإحضاره بنفسي.»

وعبَر سبارجو الغرفةَ وفاتَحَ الصحفيَّ العجوز الرياضي.

قال: «أريد أن أتحدَّث معك في هدوء. لكن هذا المكان مليء بالضوضاء.»

قاده كروفوت إلى كرسيٍّ جانبي وطلب مشروبًا.

وقال وهو يتثاءب: «هذا المكان يكون دائمًا هكذا في هذه الساعة. لكن به أُلْفة حميميَّة، ما الأمر يا سبارجو؟»

أخذ سبارجو رشفةً من الكأس التي كانت معه وقال: «لا يوجد مِن بينِ مَن يكتبون في شئون الرياضة مَن هو أعلمُ منك بها، صحيح؟»

رد كروفوت: «حسنًا، أعتقد أنك محقٌّ في ذلك.»

قال سبارجو: «ماذا عن الشئون الرياضية القديمة؟»

التمعَتْ عينا الرجل الآخَر ورد: «نعم، حتى الشئون الرياضية القديمة. مع أنها لا تُهم الأجيالَ الجديدة كثيرًا، كما تعرف.»

قال سبارجو: «حسنًا إذن، هناك أمر يُثير اهتمامي بشدة حاليًّا على أي حال. وأعتقد أن له صلةً بالشئون الرياضية القديمة. وجئتُ إليك أحاوِل التوصُّلَ إلى أي معلومات عنه؛ إذ أعتقد أنك الرجل الوحيد ممَّن أعرفهم الذي يُمكِنه الإفادةُ في هذا الصدد.»

سأل كروفوت: «وما الأمرُ الذي تريد أن تسأل عنه؟»

أخرج سبارجو مظروفًا، وأخذ منه البطاقةَ الفِضية الملفوفة بعناية. وأزال اللفافةَ التي كانت تحيط بها ووضَعها على راحةِ يدِ كروفوت الممدودة.

وسأل: «هل يُمكِنك إخباري ما هذه؟»

التمعَتْ عينا الرياضي العجوز فجأةً، وقلب البطاقةَ الفضية إلى وجهها الآخَر في حماس.

وصاح متعجبًا: «يا إلهي! من أين لك بهذه؟»

رد سبارجو: «لا تنشغِلْ بذلك الآن على الأقل. هل تعرف ما هي؟»

قال كروفوت: «بالتأكيد أعرف ما هي! لكن ... رباه! لم أرَ واحدةً منها منذ عدد من السنوات لا يعلمه إلا الرب. إنها تجعلني أشعرُ بالعودة إلى شبابي من جديد! رَيْعان شبابي!»

سأل سبارجو: «لكن، ما هي؟»

قلب كروفوت البطاقة، وأظهَرَ الجانبَ الذي كان عليه شعارُ النبالة الذي كاد ينمحي.

وقال: «إنها إحدى تذاكر الوقوف الفِضية الأصلية لحضور سباقات الخيل القديمة التي كانت تُقام في ماركت ميلكاستر. هي كذلك. إحدى تذاكر الحضور الفِضية الأصلية.

وها هو شعار ماركت ميلكاستر، أتراه؟ كاد ينمحي من فرْطِ الكشط، وانظر هنا، على الوجه الآخَر، شكل حصان يجري. نعم، إنها هي حقًّا! يا إلهي! ... هذا مثير للغاية.»

سأل سبارجو: «أين ماركت ميلكاستر؟ لا أعرف هذا المكان.»

رد كروفوت وهو يُواصِل تقليبَ التذكرة الفضية على وجهَيها: «ماركت ميلكاستر هي ما يُسمِّيه متخصِّصو الطوبوغرافيا بالبلدة المضمحلَّة في إلمشاير. لقد أخذتْ في الاضمحلال منذ امتلأ النهر الذي كان يمر بها تدريجيًّا بالطمي. كان يُقام فيها سباقٌ شهير في يونيو من كل عام. مر نحوُ أربعين عامًا منذ توقف هذا السباق، كنتُ أحضره كثيرًا أيام صباي، كثيرًا!»

سأل سبارجو: «وتقول إن هذه تذكرةٌ لحضور السباق؟»

رد كروفوت: «هذه واحدة من خمسين تذكرةً فضية — أو إذنَ دخول أو أيًّا كان اسمها — كانت لجنة السباق تمنحها لخمسين من مُواطِني البلدة. وكانت حيازةُ تذكرة فضية شرفًا كبيرًا على ما أتذكَّر. كانت تمنح حامِلَها إذنًا يسمح له مدى الحياة — وانتبِهْ للآتي — يسمح له مدى الحياة بدخول المدرَّجات وحظائر الخيل والحلبة، كل الأماكن. وكانت أيضًا تضمن لحامِلها مكانًا في عشاء السباق السنوي. من أين لك بها يا سبارجو؟»

أخذ سبارجو التذكرةَ وأعاد لفَّها برفق، ووضعها هذه المرة في محفظته.

وقال: «أنا ممتنٌّ لك بشدة يا كروفوت، لكني في حقيقة الأمر لا أستطيع الآن إخبارَك من أين حصلتُ عليها، ومع ذلك أَعِدُك بأني سأخبرك بكل ما في الأمر فورَ أن أتمكَّن من ذلك.»

قال كروفوت: «هناك لغزٌ ما، أليس كذلك؟»

قال سبارجو: «لغز كبير. لا تُخبِر أحدًا أني أريْتُك إياها. ستعرف كلَّ شيء في النهاية.»

قال كروفوت: «حسنًا يا بني، حسنًا. تَحدُث الأمور بطريقة غريبة، صحيح؟ أُراهِن بأي شيء أنه لا يوجد خارجَ ماركت ميلكاستر نفسها ولو نصفَ دزينة من هذه التذكرة القديمة. فكما قلت، لم يكن موجودًا منها إلا خمسون فقط، وكانت في حوزة أهل البلدة. كانت تَلقى اهتمامًا شديدًا؛ نظرًا إلى مكانتها في أعين الناس. زرت ماركت ميلكاستر بنفسي بعد توقُّف السباقات، ورأيت هذه التذاكرَ مؤطَّرةً بعناية ومعلَّقة فوق أَرفُف المدافئ ... حقًّا!»

خطرَت لسبارجو فكرة.

فسأل: «كيف يُمكِن الوصول إلى ماركت ميلكاستر؟»

رد كروفوت: «عن طريق بادنجتون. فهو طريقٌ جيد نوعًا ما.»

قال سبارجو: «أتساءل إن كان هناك عجوز مهتم بالرياضة قد يتذكَّر ... أي شيء. أي شيء عن هذه التذكرة على سبيل المثال.»

قال كروفوت: «عجوز مهتمٌّ بالرياضة! يا إلهي! ... لا، فلا بد أنه مات على أي حال، إن لم يكن قد مات فلا شكَّ أنه كبيرُ القوم هناك. عليك بالعجوز بن كوارتربيدج، كان مديرَ مزادات في البلدة، ورياضيًّا نادرَ المثال.»

قال سبارجو: «قد أذهب إلى هناك. وسأعرف ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة.»

قال كروفوت: «إذا كنتَ ستذهب إلى هناك، فاذهب إلى فندق يلو دراجون في جادة هاي ستريت، فهو مكان قديم راقٍ. كان مكتب كوارتربيدج ومنزله قبالةَ فندقِ دراجون مباشَرةً. لكنني أخشى أن تجده قد مات، فقد مضَت خمسةٌ وعشرون عامًا منذ آخِر مرة كنتُ في ماركت ميلكاستر، وكان حينها عجوزًا. لنَرَ إذن. إذا كان العجوز بن حيًّا، فسيكون عمره تسعين عامًا يا سبارجو!»

قال سبارجو: «كنت أعرف رجالًا في عمر التسعين ظلوا محتفِظين بحيوية كافية، على قدر تجربتي المتواضِعة. وهكذا حالُ جدِّي الآن أيضًا. على أي حال، شكرًا جزيلًا يا كروفوت، سأخبرك بكل شيءٍ يومًا ما.»

قال كروفوت: «ألن تحتسي كأسًا أخرى؟»

لكن سبارجو استأذن للانصراف. قال إنه سيعود إلى المكتب، فقد كانت لديه مهمةٌ أخرى يريد إنجازَها. فخرج من أكتونيومينوا، على الرغم من محاوَلة ستاركي فتْحَ نقاشٍ عامٍّ حول الطريقة المُثْلى لإنفاق ميزانية النادي، وعاد إلى مقر صحيفة «ووتشمان»، ولما وصل إلى هناك طلب مقابَلةَ رئيس التحرير، وعلى الرغم من أنه كان شديدَ الانشغال في هذه الساعة، قابَله وانفرد به عشرَ دقائق كاملة، ولم تكن تلك بالمدة القصيرة. وبعد ذلك عاد سبارجو إلى منزله وخلد إلى النوم.

وفي وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، كان على رصيفِ المغادَرة في محطة بادنجتون، في يده حقيبته، وفي جيبه تذكرةٌ إلى ماركت ميلكاستر، وبعد ظهر ذلك اليوم وجد نفسَه في غرفةِ نومٍ قديمةِ الطراز تُطِل على جادَّة هاي ستريت في ماركت ميلكاستر. ومن هناك وجد أمامه تمامًا منزلًا عتيقًا من الطوب القديم يُغطِّيه اللبلاب، بجانبه مكتبٌ مكتوب على بابه اسم: بنجامين كوارتربيدج.

الفصل السادس عشر

فندق يلو دراجون

بدَّل سبارجو ملابسه، ونفض عن نفسه غبارَ السفر، ومكَث في غرفته القديمة الطراز المشبعة برائحة اللافندر، مستغرقًا في التفكير في خطته في ماركت ميلكاستر. لم تكن لديه خُطةٌ واضحة محددة. الشيءُ الوحيد الذي كان متأكدًا منه هو أنه هو وراثبري عثرا في العُلْبة الجلدية القديمة — التي أودعها الرجل الذي كان يعرفه باسم جون ماربري في شركة لندن آند يونيفرسال لصناديق الإيداع الآمنة — على إحدى التذاكر الفِضية القديمة لحلبة سباق ماركت ميلكاستر، وأنه جاء إلى ماركت ميلكاستر بعد موافَقة رئيس التحرير ليُحاوِل تتبُّعَ أثرها. ولكن، كيف سيشرع في هذه المهمة الصعبة؟

خاطَب سبارجو نفسَه وهو يعقد رابطةَ عنقٍ جديدة: «أول شيء هو أن آخذ جولةً في الجوار. لن يستغرق ذلك طويلًا.»

كان قد لاحَظ وهو يقترب من البلدة — وكذلك وهو في السيارة من المحطة إلى فندق يلو دراجون — أن ماركت ميلكاستر بلدة صغيرة جدًّا. تتكوَّن في الأساس من جادَّةٍ رئيسية واحدة طويلة وواسعة اسمها هاي ستريت، تتفرَّع منها على الجانبَين شوارعُ أصغر. بدا أن جادَّة هاي ستريت تشمل كلَّ ما يُمكِن رؤيته في البلدة؛ الأبرشية القديمة، ومجلس البلدة، والسوق، والمنازل والمتاجر الرئيسية، والجسر الذي تجري من تحته مياهُ النهر الذي كانت السفن يومًا ما تُبحِر فيه قادمةً إلى البلدة، قبل أن يمتلئ مَصبُّه الذي يبعد عن البلدة بأربعة أميال بالطمي لدرجةٍ تَحُول دونَ حركة السفن. كانت بلدةً صغيرة مبهجة نظيفة، ومع ذلك لم يكن فيها إلا القليل من آثار التجارة، ولاحَظ سبارجو سريعًا قلةَ ما يُمكِن الانشغالُ به من أنشطةٍ في فندق يلو دراجون، بالرغم من اتساعه وترامي أطرافِه على نحوٍ يُذكِّر بأيام التدريب القديمة. كان قد تناول غداءه فور وصوله في المقهى الذي كان يَسَعُ مائةً وخمسين شخصًا، ومع ذلك لم يكن في المقهى معه سوى رجلٍ عجوز

وابنتِه يبدُوَان سائحَين، وشابَّين يتحدَّثان عن الجولف، ورجلٍ بدَت عليه هيئةُ الفنانين، وثنائيٍّ لم يكن من شك أنهما في شهر العسل. ولم يكن في الشارع الواسع الذي كانت تُطِل عليه نافذةُ سبارجو الكثيرُ من المَرْكبات، كما قلَّ السابلةُ على الرصيفَين، فهنا أحد أبناء البلدة يجر بقرةً كسولًا بتكاسُلٍ مماثِل، وهناك مُزارِع يجلس على عربة خفيفة ويتجاذب أطرافَ الحديث مع تاجر يرتدي مِئزرًا ترك متجره ليحدِّثه. وساد كلَّ هذا المشهد الهدوءُ الذي أضفَتْه أشعةُ الشمس الصيفية بعد ظهيرة ذلك اليوم، وتسلَّلَت عبر النوافذ المفتوحة رائحةٌ حلوة خفيفة من العشب المجزوز حديثًا في المروج المحيطة بالمنازل القديمة.

قال سبارجو متفكِّرًا: «إنها مثل سليبي هولو حقًّا. فَلْأنزل إلى الشارع وأحاول العثورَ على شخصٍ يُمكِن أن أتحدَّث معه. يا للعجب! فقد كنتُ في أجواء أكتونيومينوا السامَّة منذ ستَّ عشرةَ ساعةً فقط!»

وبعد أن هام سبارجو على غير هُدًى في العديد من الممرات والمسالك، وصل أخيرًا إلى البهو الفسيح ذي الأرضية الحجَرية بالفندق القديم، وبغريزةٍ فِطرية قصد غرفةَ ضيوفٍ كان قد رآها ما إن دخل المكان. وكانت الغرفة واسعةً مريحة ذاتَ نوافذَ بارزةٍ للخارج تُطِل على جادَّة هاي ستريت، وكانت مؤثَّثة ومُزْدانة ومزوَّدة باللوازم المعتادة في فنادق البلدات الريفية. وكانت في الغرفة كراسيُّ وطاولاتٌ وأخونة وخِزانات كلها قديمة، لا بد أن قرنًا من الزمان قد مضى على صناعتها، وبدا من المرجَّح أن تظلَّ على حالها لقرنٍ آخَر أو قرنَين؛ وكانت هناك مطبوعاتٌ قديمة للطريق ومسارات الصيد، ولوحةٌ زيتية أو اثنتان يظهر بها رجالٌ حُمر الوجوه يرتدون معاطفَ وردية. وكانت على الحائط أقنعةٌ على شكلِ وجوهِ الثعالب، وسمكة زنجور ضخمة في إناء زجاجي على طاولة جانبية، وشمعدانات قديمة على رفِّ المدفأة بينها علبةُ نشوق عتيقة. وكان في ركن الغرفة مَشربٌ صغير قديمُ الطراز تجلس وراءه شابةٌ ذاتُ هيئةٍ عصرية تتثاءب وهي تنسج قطعة فنية بالإبرة، وعندما دخل سبارجو نظرَت إليه كنظرة الجميلة أندروميدا إلى بيرسيوس عندما وصل بحِصانه المجنَّح إلى صخرتها لإنقاذها في الأسطورة الإغريقية. لاحَظ سبارجو النظرةَ وهو يجهِّز لنفسه مشروبًا مناسبًا ويُشعِل سيجارًا معه، ثم جلس على أقرب كرسي.

قال سبارجو وهو ينظر إلى الفتاة في استفهام: «يبدو هذا المكانُ هادئًا للغاية.»

فقالت الفتاة: «هادئ! هادئ؟»

قال سبارجو: «هذا بالتحديد ما قلتُه. إنه هادئ. وأرى أنكِ تُوافِقينني الرأي. وأعربتِ عن موافَقتِكِ بطريقتَين: المفاجأة والامتعاض. يُمكِننا أن نستنتج حتى الآن أن المكان هادئٌ بلا شك.»

نظرت الفتاة إلى سبارجو كما لو كانت تنظر إلى كائنٍ جديد، ثم أخذت قطعةَ النسيج وغادَرت المَشْرب متوجِّهةً إلى داخل الغرفة وجلست على كرسيٍّ بالقرب منه.

وقالت: «هنا يَسْعد المرءُ لو رأى جنازةً حتى. فهذا كل ما يُمكِن رؤيته تقريبًا.»

سأل سبارجو: «وهل تُقام الكثير من الجنازات؟ أعني هل يموت السكان كثيرًا نتيجة للخمول؟»

حدجَته الفتاة مجددًا بنظرةٍ متفحِّصة.

وقالت: «أنت تمزح! لكن لك الحق في ذلك. فلا شيءَ يحدث هنا أبدًا. هذا المكان كإصدارٍ قديم من صحيفة.»

تمتم سبارجو: «حتى الإصداراتُ القديمة قد تكون قراءتها ممتعةً أحيانًا. والانعزال عن الحياة يُجدِّد الحيوية.» وأضاف بصوتٍ أعلى: «لا شيءَ يحدث في هذه البلدة إذن؟»

ردَّت رفيقته: «لا شيء! هي بلدة نائمة. جئتُ إليها من برمنجهام، ولم أكن أعرف ما أنا مُقبِلةٌ عليه. في برمنجهام قد تُصادِف في عشر دقائق عددًا من الناس تراه هنا في عشَرة أشهر.»

قال سبارجو: «أوه! ما تُعانِينه هو الكآبة. ولا بدَّ لكِ من ترياق.»

قالت الفتاة في انفعال: «الكآبة! هذه هي الكلمة المناسبة للتعبير عن ماركت ميلكاستر. ليس فيها إلا القليل من الزبائن القُدامى الذي يأتون إلى هنا في الصباح، بين الحادية عشرة والواحدة. وقد يأتي زائرٌ ضلَّ طريقَه بعد الظهر. وفي الليل يأتي الكثير من كبار السنِّ إلى هنا ويجلسون في طرَف الغرفة للحديث عن الأيام الخوالي. ويا لها من أيام! المفتقَد في ماركت ميلكاستر هو أيام الحاضر.»

انتبه سبارجو فجأةً.

وقال: «لكنَّ الاستماعَ إلى كبار السن وهم يتحدَّثون عن الأيام الخوالي مثيرٌ بالنسبة إليَّ. أحب ذلك!»

قالت الفتاة: «إذن يُمكِنك الاستماع لما يَكْفيك من حديثهم هنا. تعالَ إلى هنا الليلةَ في أي وقتٍ بعد الساعة الثامنة، وإذا لم تتعرَّف على المزيد عن تاريخ ماركت ميلكاستر قبل العاشرة فلا بدَّ أن تكون أصمَّ. يأتي بعض الشيوخ إلى هنا كلَّ ليلة بانتظام كالساعة، ويبدو أنهم لا يستطيعون النومَ قبل أن يتحاكَوا بقصصِ الأيام الخوالي التي أظنُّهم سمعوها ألفَ مرةٍ قبل ذلك!»

سأل سبارجو: «أهُمْ شيوخٌ طاعِنون في السن؟»

ردت الفتاة: «نعم. منهم السيدُ كوارتربيدج الساكن على الجانب الآخر من الشارع، كان مديرًا للمزادات، لكنه لا يُمارِس أيَّ عملٍ الآن ... يقولون إنه في التسعين من عمره، لكني متأكِّدةٌ أنك لن تتوقَّع أن تكون سنُّه أكبرَ من السبعين. وهناك السيدُ لوميس الساكن في هذا الشارع أيضًا، لكن مسكنه أبعدُ بعضَ الشيء، عمرُه واحدٌ وثمانون عامًا. ومنهم أيضًا السيدُ سكين والسيدُ كاي، هم من الشيوخ المتردِّدين على المكان. لقد سمعتُ مِن حديثهم وأنا جالسة هنا ما يَكْفيني لكتابة كتابٍ عن تاريخ ماركت ميلكاستر منذ عامها الأول.»

قال سبارجو: «أتصوَّر أن هذا عملٌ مُبهِج ومُربِح.»

واصَل سبارجو الحديثَ مدةً حاوَل خلالها التسريةَ عن النادلة، ثم خرج يتمشَّى في أرجاء البلدة حتى الساعة السابعة التي يُقدَّم فيها العشاء في فندق يلو دراجون. ولم يكن في المقهى الفسيحِ أحدٌ غير مَن كانوا فيه وقتَ الغداء، وما إن فرغ سبارجو من تناوُل وجبته وحيدًا، حتى توجَّه إلى غرفة الضيوف متحمِّسًا، حيث تناوَلَ قهوتَه في ركنٍ فيها بالقُرب من الجزء الأثير الذي علم أن شيوخ البلدة يجلسون فيه.

قالت النادلة محذِّرة: «لا تجلس على أيٍّ من كراسيِّهم. فلكلٍّ منهم كرسيُّه الخاص وغليونه الخاص الذي يأخذه من فوق هذا الرف، وأتوقَّع أن يُقيم أيٌّ منهم الدنيا ولا يُقعِدَها إذا مسَّ شخصٌ غليونَه أو كرسيَّه. لكن لا بأسَ في جلوسك في هذا المكان، ستسمع كلَّ ما لديهم.»

بدَت لسبارجو مجرياتُ تلك الأمسية التي قضاها في غرفة الضيوف بفندق يلو دراجون في ماركت ميلكاستر كانتقالٍ مفاجئ إلى القرن الثامن عشر؛ إذ لم يكن قد شهِدَ أيَّ شيءٍ مشابهٍ لها، وكان منذ أربعة وعشرين ساعة فقط يحسب ما شهِده بنفسه مستحيلًا. فعندما قُرِع جرسٌ في مكانٍ ما في أعطاف جادَّة هاي ستريت في تمام الثامنة، دخل رجلٌ مُسِنٌّ، فحدجت النادلة سبارجو بنظرةٍ أخبرَته بها أن العرض سيبدأ للتو.

قالت النادلة: «طاب مساؤكَ يا سيد كاي. أنت أول الحاضرين الليلة.»

قال السيد كاي: «طاب مساؤكِ!» وأخذ كرسيًّا، ونظر حوله مقطبًا، ثم لزم الصمت. كان السيد كاي عجوزًا طويلَ القامة نحيلًا يرتدي ملابسَ سوداء استحالتْ أجزاءٌ منها إلى اللون البنِّي المحمر، وكانت ياقتُه مدبَّبةً تمتدُّ على جانبَي فودَيه الرماديَّين والوشاح الأسود الثقيل المَطْويِّ عدةَ مراتٍ حول عنقه، وبدا من التعبير الذي علا وجهَه أنه يميل

لحدةِ الطِّباع في مواجَهة معترك الحياة. سأل النادلة: «ألم يأتِ أحدٌ بعدُ؟» فردَّت: «كلا، لكن ها هما السيد لوميس والسيد سكين مُقبِلان.»

دخل رجلان عجوزان غرفةَ الضيوف. الأولُ مهندمُ الهيئة يرتدي ملابسَ ذات قَصةٍ رياضية واضحة، عليها رسوم مبهرجة، ورابطة عنق لونها أزرقُ فاتح، ويضع في ياقته وردة، ويعتمر قبعةً بيضاء طويلة بزاوية تزيد من أناقةِ مظهره. والآخَر رجلٌ ضخم، ممتلئُ الجسم، مَرِحُ النظرات، له لحية، وفي هيئته خُيَلاء تُذكِّر بشخصية جون فالستاف الشيكسبيرية، ناكَفَ النادلةَ وهو يدخل ولمسها أسفل ذقنها في ودٍّ وهو يمر من أمامها. جلس الاثنان كلٌّ في كرسيِّه الذي بدا مصمَّمًا خِصِّيصى له، ولمس الرجل الضخم ذراعَي كرسيِّه بالودِّ نفسِه الذي حيًّا به النادلة. ثم نظر إلى صديقَيه.

وقال: «حسنًا؟ ها قد أصبحنا ثلاثة. وهناك موضوعٌ نتحدَّث عنه.»

فقال الرجل النحيف: «انتظر لحظة، انتظر لحظة. سيأتي الجَدُّ إلى هنا بعد دقيقة، سنبدأ عندما يأتي.»

نظرت النادلة من النافذة.

ثم قالت: «ها هو السيد كوارتربيدج يَعْبر الشارع الآن. هل أضع الطلباتِ المعتادةَ على الطاولة؟»

رد الرجل الضخم: «نعم، فَلْتأتينا بها عزيزتي، ائتينا بها! جهِّزي كل شيء.»

عندئذٍ وضعتِ النادلةُ طاولةً دائرية أمام الكراسي المقدَّسة، ووضعت عليها سلطانيةً لإعداد شراب البنش وعددًا من مكوناته المتنوِّعة، وعلبة سجائر، وعلبة تبغ قديمة مصنوعة من الرصاص، وما إن فرَغَت من إعداد هذه المكونات الافتتاحية لأحاديث الأمسية حتى فُتِح الباب مجددًا ودخل واحدٌ من أكثر العجائز الذين شاهَدَهم سبارجو إثارةً للاهتمام. ولما كان سبارجو يعلم أن هذا الوافد الجديد هو السيد بنجامين كوارتربيدج المبجَّل الذي أخبره كروفوت عنه، فقد تأمَّله بعنايةٍ وهو يأخذ مكانَه بين أصدقائه الذين استقبَلوه بابتهاجٍ بدا صِبيانيًّا.

كان السيد كوارتربيدج تسعينيًّا مفعمًا بالشباب، متوسطَ الحجم قويَّ البِنية، قامتُه منتصبةٌ كالسهم، ولم تَزَل الحيوية تدبُّ في أطرافه، وكانت عيناه ثاقبتَين وصوتُه جهوريًّا. وكان وجهُه الحليق نَضِرًا كتفاحةٍ لفحتها الشمس فأدفأتها، ولم يَنَل الشيبُ من شعره إلا القليلَ فصار فِضيًّا؛ وكانت يده صلبة كالصخر. كانت ملابسه المصنوعة من قماشٍ مضلَّع ضاربٍ إلى الصُّفرة أنيقةً ومهندمة، وكان وشاحُ رقبته مُبهِجَ المظهر كما لو كان

الرجل ذاهبًا إلى أحد المعارض. بدا لسبارجو أن السيد كوارتربيدج لم يزَل في سِنِي عمره الكثيرُ حتى في هذه السن.

جلس سبارجو في ركنه منبهرًا في حين بدأ الشيوخ حديثَهم. انضمَّ إليهم خامسٌ في مؤخرة غرفة الضيوف التي أصبحت الآن منطقتَهم الخاصة. وأعدَّ السيد كوارتربيدج شرابَ البنش في رزانة ووقار، وعندما وُزِّع منه عليهم أشعل كلٌّ منهم غليونَه أو سيجارَه، وبدأت ألسنتُهم تَلُوكها. دخل أشخاصٌ آخرون وخرَجوا، لكن جماعة الشيوخ لما يلتفتوا لشيءٍ غير حديثهم. ومن وقتٍ لآخَر كان يدخل شابٌّ من البلدة ليطلب نصفَ لترٍ من الجِعَة المُرَّة أو ليتلكَّأ في حضور النادلة؛ وكان هؤلاء ينظرون إلى الشيوخ بمهابة؛ أما الشيوخ أنفسُهم فكانوا منهمكين في أحاديث الماضي.

بدأ سبارجو يُدرِك ما كانت النادلة تَعْنيه عندما قالت إنها تعتقد أنَّ بمقدورها كتابةَ تاريخ ماركت ميلكاستر منذ عامها الأول. فبعد التطرُّق إلى شئون الطقس والأحداث المحلية التي جرَت ذلك اليوم، والشئون الشخصية المتنوِّعة، بدأ الشيوخ يَنهَلون من مَعين الماضي، فيحكون القصةَ تِلوَ الأخرى، ويستذكرون واقعةً بعد واقعة مما جرى منذ سنين طويلة. وأخيرًا أتوا إلى ذِكر أيام السباقات التي كانت تُقام في ماركت ميلكاستر. وعندئذٍ أَقدَم سبارجو على خطوةٍ جريئة. فقد حان الوقت لجمع بعض المعلومات. أخرج البطاقةَ الفِضيَّة من محفظته ووضعها في راحة يده موجِّهًا شعارَ النبالة إلى الأعلى، واقترب من جماعة الشيوخ وانحنى لهم في أدب، ثم قال بصوتٍ هادئ:

«أيها السادة، هل يُمكِن لأحدكم إخباري بأي شيءٍ عن هذه؟»

الفصل السابع عشر

السيد كوارتربيدج يستذكر الماضي

لو قلب سبارجو سلطانيةَ شرابِ البنش الثانية التي كانت أمام جماعة الشيوخ، أو ألقى بينهم قنبلة، لَمَا زاد تفاجُؤ الرجال بذلك عن تفاجُئِهم عندما أبرز التذكرةَ الفِضية فجأة. بُتِر حديثهم، وسقط الغليون من أحدهم، وأخرج آخَرُ سيجارَه من فمه كما لو كان قد اكتشف فجأةً أنه كان يَلْعق عصًا مُترَعة بسُمٍّ زُعاف؛ رفعوا جميعًا وجوهَهم المشدوهة إلى الشخص الذي قاطَعَهم، وأجالوا نظرَهم بينه وبين التذكرة اللامعة التي كانت على راحته الممدودة. وفي النهاية نطق السيد كوارتربيدج — وقد تعمَّد سبارجو توجيهَ حديثِه إليه أكثرَ من نُدمائه — وأشار في انبهارٍ شديد إلى التذكرة.

قال: «أيها الشاب! من أين جئتَ بهذه؟» قالها بنبرةٍ أحسَّ سبارجو فيها ببعض الارتعاش.

قال سبارجو متعمِّدًا إطالةَ النقاش بعض الشيء: «أتعرف ما هي إذن؟ هل تتعرَّف عليها؟»

قال السيد كوارتربيدج منفعلًا: «أعرفها؟! أتعرَّف عليها! نعم، وكلُّ الرجال الحاضرين أيضًا يعرفونها، ولم أسألك من أين جئتَ بها إلا لأني لاحظتُ أنك غريبٌ عن هذه البلدة. أظنُّك لم تحصل عليها من هذه البلدة أيها الشاب.»

رد سبارجو: «كلا. لم أحصل عليها من هذه البلدة بالتأكيد. كيف يُمكِنني أن أحصل عليها من هذه البلدة إذا كنتُ غريبًا عنها؟»

تمتم السيد كوارتربيدج: «أنت مُحِق، مُحِق تمامًا! لا يُمكِنني أن أتخيَّل كيف يُمكِن لأي شخصٍ في البلدة في حوزته واحدة مثل هذه الـ... ماذا أُسمِّيها؟ ... النفائس المتوارَثة؟ ... نعم، النفائس المتوارَثة العتيقة، لا أتخيَّل كيف يبلغ به الانحطاطُ أن يتخلَّى عنها. ولذا أسألك مجددًا، من أين جئتَ بها أيها الشاب؟»

أومأ الرجلُ الضخم لسبارجو فاستجاب له وسحب كرسيًّا وانضمَّ إليهم وقال: «قبل أن أخبرك بذلك، هلا أخبرتَني ما هي بالضبط! أراها قطعةً من الفِضة القديمة المصقولة المهترئة بشدة، على أحدِ وجهَيْها شعارُ نبالة يرمز إلى شخصٍ ما أو شيءٍ ما، وعلى الوجه الآخَر شكلُ حصان يرمح. لكن ... ماذا تكون؟»

تبادَلَ الرجالُ الخمسة نظراتٍ سريعةً وأصدروا أصواتَ استنكارٍ في الوقت ذاتِه. ثم نطق السيد كوارتربيدج.

وقال: «إنها واحدةٌ من التذاكر التي كانت تُخصَّص لخمسين من أهل ماركت ميلكاستر أيها الشاب، كانت تَمنح حامِلَها مزايا خاصةً وقيِّمة للحضور في حَلْبة السباق التي كانت ذائعةَ الصيت يومًا، أمَّا الآن، فلقد انتهى أمرُها مع الأسف.» وأضاف: «منذ خمسين عامًا ... بل أربعين ... كانت حيازةُ واحدةٍ من هذه التذاكر شأنًا ... شأنًا ...»

أكمل أحد الشيوخ جملته: «شأنًا عظيمًا!»

قال السيد كوارتربيدج: «السيد لوميس مُحِق. كانت شأنًا عظيمًا، شأنًا عظيمًا جدًّا. فهذه التذاكر يا سيدي كانت محلَّ اعتزاز، بل ما زالت كذلك. ومع ذلك ها أنت تُرينا واحدةً منها وأنت الغريب عن البلدة. هل فهمتَ الآن يا سيدي ...»

أدرك سبارجو أن الاقتضاب في الحديث بات ضروريًّا.

فقال: «وجدتُ هذه التذكرةَ في لندن في ظروف غامضة. وأريد الوصول إلى مصدرها. أريد أن أعرفَ هُوِيةَ مالِكها الأصلي. ولهذا جئتُ إلى ماركت ميلكاستر.»

أجال السيد كوارتربيدج نظرَه ببطء في الوجوه المتحلِّقة.

وقال: «رائع! رائع! لقد وجد هذه التذكرة ... واحدة من الخمسين تذكرةً الشهيرة لدينا ... وجدها في لندن، وفي ظروفٍ غامضة. ويريد تتبُّعَ أثرِها إلى مصدرها، يريد أن يعرفَ مَن كان مالِكَها الأصلي! ولهذا جاء إلى ماركت ميلكاستر. أمر غريب للغاية أيها السادة! أليس هذا أغربَ ما جرى في ماركت ميلكاستر منذ ... أعوام لا أعرف عددَها؟»

سرَتْ في المكان تمتماتُ موافَقة، ووجد سبارجو الجميعَ ينظرون إليه كما لو كان قد أعلن أنه جاء ليشتريَ البلدةَ كلها.

وسأل سبارجو في استغرابٍ بالغ: «لكن ... لماذا؟ لماذا؟»

قال كوارتربيدج منفعلًا: «لماذا؟ إنه يسأل لماذا؟ السببُ أيها الشابُّ أن أكبرَ مفاجأةٍ لي — ولجميع أصدقائي هؤلاء أيضًا — هي أن نسمع أن أيًّا من الخمسين تذكرةً الخاصة ببلدتنا خرجَت من حوزةِ أيٍّ من الخمسين عائلةً التي تملكها! وإن لم أكن مخطئًا بشدة

وفداحة وبعيدًا عن الصواب لسببٍ غير مفهوم أيها الشاب، أنت لستَ فردًا في أيٍّ من عائلات ماركت ميلكاستر.»

قال سبارجو معترفًا: «هذا صحيح، لا أنتسِب إلى أيٍّ من عائلات ماركت ميلكاستر.» وهَمَّ بإضافةِ أنه لم يكن قد سمع بماركت ميلكاستر قبل مساء اليوم الماضي، لكنه امتنع عن ذلك بقرار حكيم. وأضاف: «بالتأكيد لستُ كذلك.»

لوَّح السيد كوارتربيدج بغليونه الطويل.

وقال: «أعتقد أنه لولا أن الأُمسية شارَفتْ على الانتهاء، وأننا سننصرف بعد دقائقَ قليلةٍ أيها الشاب، لولا ذلك، لَتمكَّنتُ من أن أستعين بذاكرتي لإعطائك أسماءَ الخمسين عائلةً التي كانت تحوز هذه التذاكرَ عندما توقَّفت إقامة السباق. أعتقد أني كنتُ سأتمكَّن من ذلك.»

فقال الرجل النحيف ذو البِذلة المبهرجة موافِقًا: «أنا متأكِّد أنك كنتَ ستتمكَّن من ذلك! فذاكرتُكَ هي الأقوى على الإطلاق!»

وعلَّق الرجل الضخم: «خاصةً في أي شيءٍ متعلِّقٍ بالسباقات القديمة. السيد كوارتربيدج موسوعة تمشي على قدمَين.»

قال السيد كوارتربيدج: «ذاكرتي جيدة. وهي أعظمُ نعمةٍ حَظيتُ بها في سنواتي الأخيرة. نعم، أنا متأكِّد أن بإمكاني ذِكرَ أسماءِ العائلات بالقليل من التفكير. الأهمُّ من ذلك أن كل هذه العائلاتِ الخمسين تقريبًا لم تزَل في البلدة، أو على الأقلِّ بالقرب منها، وحتى مَن ابتعد عن البلدة منهم أعرف مكانه. لذلك لا أفهم كيف أصبحتْ في حوزة هذا الشاب ... وهو مِن لندن، صحيحٌ يا سيدي؟»

أجاب سبارجو: «نعم، من لندن.»

واصَل السيد كوارتربيدج: «لا أعرف كيف أصبحتْ في حوزة هذا الشابِّ اللندني واحدةٌ من تذاكرنا. الأمر ... الأمر مُذهِل! لكن اسمع أيها الشاب اللندني، إذا تكرَّمتَ بقَبول دعوتي للإفطار في الصباح، فسأُريك كتبَ السباقات التي لديَّ ووثائقَها، وسنكتشف مَن كان المالك الأصلي لهذه التذكرة سريعًا. اسمي كوارتربيدج ... بنجامين كوارتربيدج، وأسكن في البيت المحاط باللبلاب المقابلِ لهذا الفندق مباشَرةً، وأتناول الفطور في التاسعة صباحًا بالضبط، ستُسعِدني استضافتك!»

انحنى سبارجو في تأدُّب.

وقال: «سيدي، أنا ممتنٌّ لدعوتك الكريمة، وسأتشرَّف بلقائك في الوقت المحدد.»

في التاسعة إلا خمسَ دقائق من صباح اليوم التالي، وجد سبارجو نفسَه في منزلٍ قديمِ الطراز يطلُّ على حديقة غنَّاء أضْفَت عليها زهورُ الصيف بهجةً، قدَّمَه السيدُ كوارتربيدج الأب إلى السيدِ كوارتربيدج الابن وهو سِتِّينيٌّ بهيُّ الطلة يُشير إليه أبوه دومًا بأسماء صبيانية، كما عرَّفه الأبُ بالآنسة كوارتربيدج، وهي سيدةٌ متقدِّمة في العمر مُفعَمة بالشباب، تصغر أخاها بقليل، واجتمعوا حولَ مائدةِ إفطارٍ زاخرة بكل خيرات الموسم. كان السيد كوارتربيدج الأبُ مُفعمًا بالحيوية؛ حتى إن سبارجو انبهر بلقاءِ رجلٍ في هذه السنِّ لم يَزَل مُفعمًا بالحياة والروح المعنوية المرتفعة، ولم تزَل شهيتُه مفتوحة.

وبالطبع دار حديثُ المائدة حول حيازةِ سبارجو للتذكرة الفضية القديمة، وهو الموضوع الذي بدا أن تفكير السيد كوارتربيدج لم يَزَل منشغلًا به. رأى سبارجو أنه من الملائِم أن يُخبر مضيفَه بهُويته، وأبرزَ خطابًا كان رئيس تحرير صحيفة «ووتشمان» قد أعطاه إيَّاه، وقال لمضيفه إن عمله الصحفيَّ قاده لاكتشافِ التذكرة في بِطانة عُلْبة قديمة، لكنه لم يَذكر شيئًا عن موضوع ماربري؛ إذ أراد أولًا أن يرى إلى أين قد يقوده كلامُ السيد كوارتربيدج.

عندما فرَغوا من تناوُل الفطور انفرد العجوز بسبارجو في مكتبةٍ صغيرة زاخرة بالبراهين على ذوقِ المضيف الرياضي، وقال العجوز: «ليستْ لديك أدنى فكرة عن قيمةِ حيازةِ واحدةٍ من هذه التذاكر الفضية في الماضي. ها هي تذكرتي مؤطَّرة ومُثبَّتة على الحائط بإحكام كما ترى. هذه التذاكر الخمسون يا سيدي صُنِعت عندما بدأ السباق يُقام عندنا في الماضي، كان ذلك عام ١٧٨١. صنعها صائغُ فضةٍ محليٌّ من البلدة، لم يَزَل حفيدُ حفيدِه يُزاوِل المهنةَ نفسَها. كانت خمسون تذكرة تُوزَّع على أهمِّ وجهاء البلدة لتحتفظَ بها عائلاتُهم للأبد، ولم يتوقَّع أحدٌ ذلك الحين أن تنقطع إقامةُ السباق لدينا. كانت التذكرة تمنح حامِلَها مزايا عظيمة؛ كانت تسمح لحامِلها وكلِّ أفراد عائلته من الذكور والإناث بدخول المدرَّجات والحلبات والحظائر، وكانت تُعطي صاحبَها الأساسيَّ وأكبرَ أبنائه — إذا كان بالغًا — حقَّ الانضمام إلى مأدبةِ السباق العظيمة التي — واسمع هذا يا سيد سبارجو — كان أعضاء العائلة المالِكة يحضرونها بأنفُسِهم أحيانًا في الأيام الخوالي. لذلك، كان امتلاكُ واحدةٍ من هذه التذاكر الفضية يجعل المالِكَ من الوجهاء.»

سأل سبارجو: «وعندما توقَّف السباق، ماذا حدث؟»

رد السيد كوارتربيدج: «عندئذٍ بدأت العائلات التي كانت تمتلك التذاكرَ تعتبرها موروثاتٍ ينبغي أن تُولَى رعايةً فائقة؛ فعامَلوا تذاكرَهم كما عامَلتُ تذكرتي، أطَّروها على

خلفيةٍ مخملية وعلَّقوها، أو احتفظوا بها في مكانٍ مغلق. أنا متأكِّد أن كلَّ مَن كانت لديه واحدة منها أولاها عنايةً فائقة. على أي حال، قلتُ لك أمسِ ونحن في فندق يلو دراجون أن بإمكاني أن أذكر أسماءَ جميعِ العائلات التي كانت تملك هذه التذاكر، وبإمكاني ذلك بالفعل، لكن إليك هذا.» وفتح العجوز درجًا، وأخرج منه كتابًا مجلدًا وحمله في رفقٍ بالغ وقال: «إليك هذا المجلدَ المكتوب بخطِّ يدي، به مذكراتٌ متعلقة بسباقات ماريكت ميكاستر، وستجد فيه قائمةً بمُلَّاك التذاكر الأصليين، وقائمةً أخرى بمَن كانوا يحوزون التذاكرَ عندما توقَّفتْ إقامةُ السباق. يُمكِنني أن أقول يا سيد سبارجو إن القائمة الثانية تُمكِّنني من تتبُّعِ كل تذكرة، باستثناء التذكرة التي في محفظتك.»

قال سبارجو متفاجئًا: «كل تذكرة؟»

رد السيد كوارتربيدج: «كل تذكرة! قلتُ لك إن من العائلات مَن لم تَزَل في البلدة (فنحن أهل ماركت ميلكاستر أناسٌ متحفِّظون ولا نبتعد كثيرًا عن البلدة)، ومنها مَن على تُخوم البلدة، والبقية لم تبتعد عنها كثيرًا. لا يمكنني أن أفهم كيف يُمكِن للتذكرة التي معك — وهي أصليةٌ بالفعل — أن تخرج من حوزةِ هذه العائلات، و...»

قال سبارجو: «ربما لم تخرج من حوزةِ أيِّ عائلة قطُّ. قلتُ لك إنها وُجِدت في بطانةِ عُلْبة ... هذه العلبة كانت تخصُّ رجلًا ميتًا.»

قال السيد كوارتربيدج منفعلًا: «رجلًا ميتًا! رجلًا ميتًا! مَن قد يـ... عجبًا! ربما ... ربما تكون لديَّ فكرة. نعم! فكرة. تذكَّرت شيئًا الآن لم يخطر لي ببال.»

فتح العجوز دبوس المجلد، وقلَّبَ صفحاته حتى وصل إلى صفحةٍ كانت بها قائمةُ أسماء. وعرضها على سبارجو.

وقال: «هذه قائمة بمالِكي التذاكر الفضِّية عند توقُّف السباقات. لو كنتَ تعرف البلدة لَعرَفتَ أيضًا أن هذه أسماءُ أبرزِ قاطِنيها، وجميعهم بالتأكيد من الوجهاء. ها هو اسمي، أتراه؟ كوارتربيدج. وها هو اسم لوميس، وكاي، وسكين، وتمبلباي ... وهم الرجال الذين رأيتَهم أمسِ. كلهم من أبناء البلدة القدامى. كل الأسماء موجودة هنا ... في هذه القائمة. أعرف كل العائلات المذكورة. الكثير ممَّن كانوا يملكون التذاكرَ ذلك الحين ماتوا، لكنَّ وَرَثتَهم يحتفظون بالتذاكر. هذا صحيح ... وبينما أُفكِّر في الأمر الآن، تذكَّرتُ أن هناك رجلًا واحدًا كانت لديه تذكرةٌ عندما وضعت هذه القائمة لا أعرف عنه شيئًا ... لا أعرف عنه شيئًا. في الآونة الأخيرة على الأقل. التذكرةُ التي وجدتَها يا سيد سبارجو لا بد أن تكون تذكرتَه. لكني كنتُ أظنُّها مع شخص آخر!»

سأل سبارجو مُدرِكًا أنه على وشك التوصُّل إلى جديد: «ومَن يكون هذا الرجل سيدي؟ مَن كان؟ هل اسمه موجودٌ هنا؟»

مرَّر العجوز طرَفَ إصبعه على قائمة الأسماء.

وقال: «ها هو! جون ميتلاند.»

انحنى سبارجو يفحص الكتابةَ الدقيقة.

وقال: «نعم، جون ميتلاند. ومَن كان جون ميتلاند؟»

هز السيد كوارتربيدج رأسَه. والتفت إلى دُرجٍ آخَر من أدراجٍ عديدة في مكتب عتيق، وأخذ يُفتِّش عن شيء بين كُومة من ورق الصحف القديمة المرتَّبة في حُزمٍ صغيرة مربوطة.

وقال: «لو كنتَ قد عشتَ في ماركت ميلكاستر منذ واحد وعشرين عامًا يا سيد سبارجو لَعلمتَ من كان جون ميتلاند. لقد كان في فترةٍ من الزمان أشهرَ رجال البلدة ... بل أشهر رجال هذا الجزء من العالَم. لكن ... ها هي ... صحيفة بتاريخ الخامس من أكتوبر ١٨٩١. والآن يا سيد سبارجو، ستعرف مِن هذه الصحيفة القديمة مَن كان جون ميتلاند، وكلَّ شيء عنه. سأُخبرك بما عليك فعله الآن. عليَّ أن أذهب إلى مكتبي لمدة ساعة للحديث عن أعمال اليوم مع ابني ... وخذ أنت هذه الصحيفةَ إلى الحديقة وخذ سيجارًا من هذا، واقرأ ما ستجده في الصحيفة، وعندما تَفرغُ من ذلك سنستأنف الحديث.»

وأخذ سبارجو الصحيفةَ القديمة إلى الحديقة المشمسة.

الفصل الثامن عشر

صحيفة قديمة

ما إن فتح سبارجو الصحيفةَ حتى رأى في صفحتِها الوُسطى ما كان يبحث عنه: وجد عُنوانَين مكتوبَين بخطٍّ عريض. فأشعل السيجار وجلس يقرأ.

جلسات ماركت ميلكاستر ربع السنوية
محاكَمة جون ميتلاند

انعقدَت جلساتُ مقاطَعةِ ماركت ميلكاستر ربعُ السنوية يومَ الأربعاء الماضي، الثالث من أكتوبر لعام ١٨٩١، في مقر مجلس البلدة، في حضور القاضي الموقَّر هنري جون كامبرناون مستشار الملك، ورافَقه على منصة القضاء سيادةُ حاكم ماركت ميلكاستر ألدرمان بيتيفورد، وكاهنُ ماركت ميلكاستر الموقَّر (بي بي كلابرتون ماجستير في تطوير الريف)، والقاضي ألدرمان بانكس، والقاضي ألدرمان بيترز، والقاضي السيد جيرفيز راكتون، والقاضي الكولونيل فلادجيت، والقاضي الكابتن ميوريل، وقُضاة وسادة آخَرون. وحضر الجلسةَ جمهورٌ غفير من العامة الذين كانوا يترقَّبون محاكَمةَ جون ميتلاند، المديرِ السابق لمصرف ماركت ميلكاستر، كما امتلأت الأماكن المخصَّصة في المحكمة بكبارِ الشخصيات من البلدة والجوار، وكان من بينهم عددٌ كبير من السيدات اللاتي أظهرْنَ اهتمامًا كبيرًا بإجراءات المحاكَمة.

وعندما شرع القاضي في توجيه تعليماته للمحلَّفين، أعرَبَ عن أسفه لاختلاف أجواء زيارته لماركت ميلكاستر هذه المرةَ عن المرتَين السابقتَين اللتين كانتا مُبهِجتَين ومُرضِيتَين، وأولاه فيهما صديقه الحاكم الموقَّر عنايةً فائقة. فهذه المرة من المُحزِن والمؤسِف للمحلَّفين أن يَمثُل أمامَهم ابنٌ من أبناء البلدة

تحتلُّ عائلتُه منذ عدة أجيال مكانةً مرموقة في الحياة العامة في المقاطَعة. إلا أن ابن المقاطَعة هذا اتُّهِم بإحدى أخطر الجرائم المعروفة لأُمة تِجارية كأُمتنا؛ جريمةِ اختلاسِ أموال المصرف الذي كان مديرَه المؤتمنَ عليه لسنواتٍ عديدة، المصرف الذي كان مرتبطًا به طوالَ حياته منذ أيام دراسته. لقد فهم القاضي أن المحتجَزَ الذي كان سيَمثُل أمام هيئة المحكمة بعد مدةٍ قصيرة سيُقِر بجُرْمه؛ ومن ثَم لن تكون هناك حاجةٌ إلى توجيهِ عنايةِ المحلَّفين في هذا الشأن … لذا قرَّر ألَّا يقول ما هَمَّ بقوله عن خطورةِ هذه الجريمة وفداحتها. خاطَب القاضي بعد ذلك المحلَّفين وحدَّثهم عن تَبِعات قضيتَين بسيطتَين عُرِضتا على المحكمة في وقتٍ لاحق من ذلك الصباح، وبعد ذلك انصرف المحلَّفون، وصدر قرارٌ رسمي بإحالة المتهم للمحاكَمة، وتألَّفت هيئةُ محلَّفين مصغرةٌ من وجهاء القرية المعروفين، وحلف أعضاؤها القسَمَ حسب القواعد.

جون ميتلاند، ٤٢ سنة، مدير مصرف، بانك هاوس، جادَّة هاي ستريت، ماركت ميلكاستر، اتُّهم رسميًّا باختلاسِ مبلغ ٤٨٧٥ جينهًا إسترلينيًّا وعشرة شلنات وستة بنسات، في الثالث والعشرين من أبريل عام ١٨٩١، وهي أموالُ محلِّ عمله: شركة ماركت ميلكاستر المصرفية المحدودة، وتوجيهِ الأموالِ لاستخدامه الشخصي. بدا المحتجَز مُدرِكًا لوضعه بشدة، وبدا شاحبًا ومُتعبًا للغاية، ومثَّله السيدُ تشارلز دوليتل، محامي المرافَعات المعروف، في حين مثَّل المستشارُ الملكي السيدُ ستيفنز الادِّعاءَ.

عندما وُجِّهت التهمة إلى ميتلاند أقَرَّ بالذنب.

وخاطَب المستشارُ الملكي السيدُ ستيفنز، القاضيَ، قائلًا إنه بالرغم من عدم رغبته في توجيهِ أي ضغطٍ لا داعيَ له للسجين الذي اتخذ القرارَ الحكيم — من رأيه — بالإقرار بالتهمة الأولى في لائحة الاتهام، يرى أن العدالة تُلزِمه أن يوضِّح لهيئة المحكمة بعضَ تفاصيلِ الاختلاس التي نتجتْ عن خيانةِ المتهم المستهجَنة، واقترح أن يُقدِّم روايةً مقتضبة لما جرى. كان السجين جون ميتلاند آخِرَ سليلٍ لعائلة عريقة في ماركت ميلكاستر، وكان يدرك أنه آخِرُ أبناء العائلة باستثناءِ ابنِه الرضيع. كان أبوه مديرًا للمصرف قبله. وبدأ هو العملَ فيه في الثامنة عشرة من عمره بعدما ترك المدرسةَ المحلية، خلف أباه في إدارة المصرف في عمر الثانية والثلاثين؛ أيْ إنه تبوَّأ هذا المنصبَ الرفيع لعشر سنوات. وكان

مديروه يضَعون فيه ثقتَهم الكاملة، وعوَّلوا على أمانته وشَرَفه، ومنحوه سلطاتٍ تقديريةً من المرجَّح ألَّا يكون أيُّ مديرِ مصرفٍ قد حظي بها من قبلُ. لقد كان في واقع الأمر محلَّ ثقة لدرجةِ أنه كان بمثابةِ تجسيدٍ لشركة ماركت ميلكاستر المصرفية؛ أيْ إنه سُمِح له بالسيطرة على الأمور كافة، ومُنِح ترخيصًا كاملًا بأن يفعل ما يحلو له. ولم يكن من شأن السيد ستيفنز أن يُدلِيَ برأيه حول مدى الحكمة في قرار المديرين بمنح هذه السلطات حتى لأكثرِ مَن يثقون فيهم من الموظفين، وفي ظل هذه الظروف، كان في تحمُّل المديرين للخسائر نوعٌ من التعزية، فقد كانوا يستحوذون على كل الأسهم تقريبًا. لكنه كان مضطرًّا إلى الحديث عن الخسائر، وعن الاختلاسات الكبيرة التي ارتكبها ميتلاند. كان المتهمُ حكيمًا في إقراره بالذنب في التهمة الأولى في لائحة الاتهام، لكنَّ لائحةَ الاتهام كانت تشمل سبعَ عشرةَ تُهمة. لقد أَقَرَّ بجُرْمه في اختلاسِ أكثر من ٤٨٧٥ جنيهًا إسترلينيًّا. لكن إجمالي المبالغ المُختلَسة في التُّهَم السبعَ عشرةَ مجتمعةً لم يكن أقلَّ من ٢٢١٥٧٣ جنيهًا و٨ شلنات و٦ بنسات، وهو مبلغٌ ضخامتُه صادمة! كانت الحقيقة كالتالي: سرق المتهم الماثِل في قفص الاتهام من الشركة المصرفية أكثرَ من مائتَي ألف جنيه قبل أن تؤدي حادثةٌ بسيطة، وصدفةٌ عابرة، إلى اكتشافِ المديرين المذهولين أنه كان يسرق منهم. كان أخطرُ ما في القضية كلِّها عدمَ استعادة ولو بنسًا واحدًا من هذه الأموال، وعدمَ القدرة على استعادتها في أي وقت في المستقبل. اعتقد المستشار أن المحاميَ الخبير الموكل للدفاع عن المتهم همَّ بإقناع هيئة المحكمة أن المتهمَ نفسَه تعرَّضَ للخداع والتغرير من رجلٍ آخَر، وأنه من المؤسِف ألَّا يكون ذلك الرجل الآخَر ماثلًا للمحاكَمة، رجل فهم المحامي أنه هو الآخَر مشهورٌ في ماركت ميلكاستر، لكن ذلك الرجل قد مات؛ لذا لا يُمكِن استدعاؤه، ومع ذلك لا يُعدُّ تعرُّضُ ميتلاند للخداع أو التغرير عُذرًا لسرقة هذه المبالغ الكبيرة من محلِّ عمله. رأى المستشار أنه من الضروري أن يَعرض هذه الوقائعَ التي لا يُمكِن إنكارها على مَسامع المحكمة؛ لتكون ضخامةُ المبالغ المختَلَسة معروفة، وليُراعى ذلك في الحُكم على المتهم.

سأل القاضي ما إذا كان هناك أيُّ احتمالٍ لاسترداد أيِّ جزءٍ من ذلك المبلغ الضخم.

رد السيد ستيفنز قائلًا إنه أُحيط علمًا بعدم وجود أيِّ فرصةٍ لذلك؛ فقد قال المتهَم وممثِّلوه إن الأموال اختفت تمامًا بوفاة الرجل الذي تحدَّث عنه للتو.

أعرَبَ السيد دوليتل عن رغبته في توجيهِ بضع كلمات لهيئة المحكمة بالنيابة عن المتهم تدفعها لتخفيفِ الحكم. بدأ بشُكر السيد ستيفنز على عرضه للوقائع الأساسية للقضية عرضًا دقيقًا لم يُخالِطه الهوى. ولم يُحاوِل التقليلَ من ذنب المتهم. لكنه أراد بالنيابة عن المتهم أن يرويَ القصةَ الحقيقية لكيفيةِ حدوثِ هذه الأمور. فحتى السنوات الثلاث الأخيرة لم يَجِد المتهمُ عن طريق الصواب قيدَ أنملة. ثم شاء سوءُ حظه — وسوءُ حظِّ أناسٍ آخَرين في ماركت ميلكاستر حسب رأيه — أن يَفِد إلى البلدة قبل ثلاثة أعوام من الوقائع الجاري النظر فيها رجلٌ يُدعى تشامبرلين بدأ يُزاوِل أعمالَه في جادَّة هاي ستريت سمسارًا للأسهم. ولما كان تشامبرلين رجلًا لَبِقًا يتحلى بأخلاقٍ حميدة، فقد جذب الكثيرَ من الناس، وكان موكِّله ذو الحظِّ العاثر مِن هؤلاء. كان معروفًا لدى العامة أن تشامبرلين جذَبَ العديدَ من الأشخاص في ماركت ميلكاستر لإبرام صفقاتٍ مالية معه، وكان معروفًا أيضًا أن هذه الصفقات لم تكن دائمًا مُربِحة لعملاء تشامبرلين. ومن سوء حظِّ ميتلاند أنه أودَعَ في تشامبرلين ثقةً كبيرة، فأخذ يُبرِم معه صفقاتٍ كبيرة، واستمرت هذه الصفقاتُ وكبرت حتى تورَّطَ ميتلاند معه في مبالغَ ماليةٍ كبيرة. فقد حدته ثقته في تشامبرلين وأساليبه إلى أن يَعهد إليه بمبالغَ ماليةٍ كبيرة جدًّا.

قاطَع القاضي السيدَ دوليتل عند هذه النقطة ليسأله عمَّا إذا كان المقصود هو أموالَ المتهم الخاصة.

رد السيد دوليتل مُعرِبًا عن أسفه لكون المبالغ الضخمة التي ذكَرها من أموال المصرف، ومُصرِّحًا بأن المتهم — مع ذلك — كان يَثِق في تشامبرلين لدرجةٍ جعلَته يظن أن كل شيء سيكون على ما يُرام، وأن هذه المبالغَ ستُرَد، وأن استثمارها سيُدِرُّ أرباحًا طائلة.

قال القاضي إنه يفترض أن المتهم كان ينوي الاحتفاظَ بهذه الأرباح لنفسه.

قال السيد دوليتل إن المتهم أكَّد له على أي حال أن مِن أصل المائتين والعشرين ألف جنيه المنظورِ في أمرها، كان تشامبرلين يتحكَّم تحكمًا مباشرًا في مائتَي ألفٍ على الأقل، وأن المتهم لم يكن لديه أدنى فكرة عما كان تشامبرلين

يفعله بها. ومن سوء حظ الجميع — أيْ المصرف وبعض الأشخاص الآخَرين، وبخاصة موكِّلُه ذو الحظ العاثر — أنْ داهَمَ الموتُ تشامبرلين فجأة، كما بدأت إجراءاتُ هذه المحاكَمة فجأةً، ولم يزل تتبُّعُ أثرِ أيٍّ من الأموال المنظور في أمرها مستحيلًا حتى الآن. مات تشامبرلين في ظروف غامضة، وكانت أعماله على القَدْر نفسِه من الغموض.

قال القاضي إنه لم يزل ينتظر أن يسمع من السيد دوليتل ما قد يؤدِّي إلى تخفيفِ أيِّ حكمٍ قد يرى القاضي إصدارَه.

قال السيد دوليتل إنه لا يريد الإطالةَ على هيئة المحكمة. كل ما كان لديه ليقوله بالنيابة عن الرجل ذي الحظ العاثر الماثِل في قفص الاتهام هو أنه قبل ثلاثةِ أعوامٍ مضَت كانت شخصيةُ المتهم مِثالًا يُحتذى به، ولم يُقدِم على أي فَعلةٍ تتنافى مع الأمانة. لكن حظَّه العاثر وحماقتَه جعَلاه يسمح لرجلٍ بدَت عليه النزاهة بإقناعه بالإقدام على هذه الأفعال التي تتنافى مع الأمانة. وذلك الرجل يخضع الآن لحسابٍ آخَر، وتُرِك المتهم ليتحمَّل عواقبَ تورُّطه معه. بدا أن تشامبرلين هرب بالأموال لأغراضه الخاصة، وقد تُستَرَدُّ تلك الأموال يومًا ما. كل ما يطلب من هيئة المحكمة هو أن يتذكَّروا ماضيَ المتهم وسلوكَه الحَسَن السابق، وأن يأخذوا في الحُسبان أنه مهما كان ما يحمله له المستقبل القريب، فقد انتهى أمرُه للأبد من الناحية التجارية.

عندما نطق القاضي بالحكم، قال إنه لم يَسمع كلمةً واحدة تُمثِّل مبرِّرًا منطقيًّا لسلوك ميتلاند. وإن عدم أمانته يجب أن يكون عقابُها أشدَّ ما يكون العقاب؛ ألَا وهو السَّجن مع الأشغال الشاقة لعشر سنوات.

سمع ميتلاند الحكمَ دونَ أن يُحرِّك ساكنًا، وفي اليوم التالي نُقِل من البلدة إلى سجن المقاطَعة في ساكستشيستر.

قرأ سبارجو كل ذلك سريعًا، ثم كرَّرَ قراءتَه، ودقَّق في عددٍ من النقاط. وفي النهاية طوى الصحيفةَ والتفتَ نحو المنزل، فرأى العجوز كوارتربيدج يُنادِيه من نافذة المكتبة.

الفصل التاسع عشر

قصة تشامبرلين

عندما دخل سبارجو المكتبة خاطَبه السيد كوارتربيدج قائلًا: «أظنك يا سيدي قرأتَ قصةَ محاكمة ميتلاند.»

رد سبارجو: «مرتَين.»

سأل السيد كوارتربيدج: «وهل استنتجتَ أن ... بل أخبِرْني أنت ماذا استنتجتَ؟»

قال سبارجو رافضًا الإفصاح عن كل استنتاجاته مباشَرة: «استنتجتُ أن التذكرة الفضية الموجودة في محفظتي كانت تخصُّ ميتلاند.»

وافَقه العجوز الرأي: «نعم، هذا صحيح. أظن ذلك ... لا يُمكِنني أن أتخيَّل غير ذلك. لكني كنتُ أظن أني سأتمكَّن من تتبُّعِ أثرِ هذه التذكرة، كما يُمكِنني تتبُّعُ أثر التذاكر التسع والأربعين الأخرى.»

سأل سبارجو: «نعم، ولكن كيف؟»

توجَّه السيد كوارتربيدج إلى خِزانة في ركن الغرفة وأخرج منها في صمتٍ قنينةً وكأسَي نبيذٍ ذواتَي شكلٍ غريب. ومسح الكأسَين برفقٍ بقطع قماش أخرجها من أحد الأدراج، ووضع الكأسَين والقنينة على طاولةٍ أمام النافذة، وأشار إلى سبارجو أن يضعَ كرسيًّا بالقرب منها. وسحب هو كرسيَّه ذا الذراعَين.

وقال: «لنشرب كأسًا من شراب الشيري البنِّي المعتَّق. لا أعتقد أن أيًّا منا يستطيع العثور على شراب شيري بني أفضل منه ولو ارتحلنا من لانذز إند إلى بلدة بيرويك أبون تويد بحثًا عنه يا سيد سبارجو، ولا حتى إذا اتجهنا شمالًا، حيث كان الذوقُ الرفيع في الخمور سمةً شائعة أيام شبابي! نخبك سيدي! وسأخبرك بشأن ميتلاند.»

قال سبارجو: «لديَّ فضول. وليس فقط حول ميتلاند. أريد أن أعرف الكثيرَ من الأمور المتعلقة بذلك الخبر الذي كان في الصحيفة. أريد أن أعرف أي شيء عن الرجل المذكور فيه عدة مرات ... سمسار الأسهم تشامبرلين.»

قال السيد كوارتربيدج مبتسمًا: «حسنًا. توقَّعت أن يُثير فضولَك. لكن لنتحدَّث عن ميتلاند أولًا. عندما سُجن ميتلاند، ترك وراءَه طفلًا، ولدًا، كان عمره حينئذٍ عامَين. وكانت أمه متوفَّاة. فظهرَت في المشهد أختُها التي تُدعى الآنسة بيليس ... حيث كان ميتلاند قد تزوَّجَ زوجتَه من مكان بعيد ... وأخذت الآنسة بيليس الطفلَ وكذلك متعلقات ميتلاند الشخصية. بينما كانت محاكَمته جارية، أعلن إفلاسَه، وبِيع كلُّ ما كان في منزله. لكن الآنسة بيليس هذه أخذت بعض الأشياء الشخصية الصغيرة، وطالما ظننتُها أخذَتِ التذكرةَ الفِضية مع تلك الأشياء. وربما كان ذلك صحيحًا؛ لأنني لم أعرف أيَّ شيء ينفي ذلك. على أي حال، أخذت الطفل، وبهذا انقطع ذِكْر عائلة ميتلاند في ماركت ميلكاستر. وبالطبع نُقِل ميتلاند بعد محاكَمته إلى دارتمور، وأمضى مدةَ عقوبته فيها. وكان هناك أناسٌ يَتُوقون إلى العثور عليه عند إطلاق سراحه، وهم مسئولو المصرف، فقد كانوا يعتقدون أنه يعرف عن مآلِ الأموال المنهوبة أكثرَ مما أفصح عنه، وكانوا يريدون أن يجعلوه يُفصِح عمَّا كانوا يَأملون أنه يعرفه ... لا تخبر أحدًا بما سأقوله لك الآن يا سيد سبارجو، لكنهم كانوا سيُكافِئونه على الإفصاح عمَّا لديه.»

نقر سبارجو على الصحيفة التي كان محتفظًا بها أثناء حديث العجوز.

وسأل: «إذن فهُم لم يُصدِّقوا ما قاله محاميه، لم يُصدِّقوا أن الأموال كلها في حوزة تشامبرلين؟»

ضحك السيد كوارتربيدج.

وأجاب: «كلا، لم يُصدِّق ذلك أحد! سرى في البلدة اعتقادٌ قويٌّ — ستعلم سببَه فيما بعدُ — بأن الأمر كله كان متفَقًا عليه، وأن ميتلاند أمضى مدةَ عقوبته سعيدًا لأنه كان يعرف أن ثروةً طائلة كانت في انتظاره عندما يُطلَق سراحه. وكما قلت لك، كان مسئولو المصرف يَسعَون وراءه. وعلى الرغم من أنهم أرسلوا محقِّقًا خاصًّا للقائه عندما أُطلِق سراحه، لم يتمكَّنوا من العثور عليه قط. حدث خطأٌ ما عند إطلاق سراح ميتلاند، فقد اختفى تمامًا. ولم يَسمع عنه أحدٌ خبرًا منذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا. إلا إذا كانت الآنسة بيليس قد سمعَت شيئًا.»

سأل سبارجو: «وأين تسكن الآنسةُ بيليس هذه؟»

رد السيد كوارتربيدج: «لا أعرف. كانت تسكن في برايتون عندما أخذت الطفل، وكان عُنوانها معروفًا، أحتفِظ به في مكانٍ ما. لكن عندما حاوَل مسئولو المصرف العثورَ عليها بعد إطلاق سراح ميتلاند، كانت هي أيضًا قد اختفت تمامًا، ولم تُجْدِ كلُّ محاوَلات العثور عليها. في حقيقة الأمر، ووَفْقًا لمن كانوا يسكنون بالقرب منها في برايتون، كانت قد اختفت تمامًا ومعها الطفل قبلَ خمسة أعوام. لذا لم يكن هناك دليلٌ يُقتفى به أثرُ ميتلاند. لقد أمضى مدةَ عقوبته، وكان خلالها سجينًا مثاليًّا حسَبما عرَفوا، وبذلك قصرَت مدة عقوبته إلى أقلِّ حدٍّ ممكن، ثم أُطلِق سراحه، ثم اختفى. ولهذا السبب تحديدًا سرَت في هذه البلدة فرضيةٌ عنه لم تزَل متداوَلةً حتى يومنا هذا!»

سأل سبارجو: «وما هي؟»

رد السيد كوارتربيدج: «كالآتي. أنه الآن يعيش في رغدٍ وترفٍ خارج البلاد، معتمِدًا على ما نهَبه من المصرف. يقولون إن أخت زوجته كانت ضالِعةً في الخُطة، وإنها عندما اختفت بصُحبة الطفل، غادَرت البلاد إلى مكانٍ ما وجهَّزت مسكنًا لميتلاند، وإنه لحِقَ بهما فورَ إطلاقِ سراحه. هل فهمت؟»

قال سبارجو: «أظن ذلك محتملًا.»

أعاد العجوز مَلْءَ كأسه وقال: «محتمَل جدًّا سيدي. والآن دَعْني أخبرك بقصة تشامبرلين. إن علاقتها بقصة ميتلاند أكثرُ تشابُكًا مما يبدو للوهلة الأولى، وسأخبرك بها وأدَعُك تتوصَّل إلى استنتاجاتك بنفسك. وفد تشامبرلين إلى ماركت ميلكاستر — لا أعلم من أين — عام ١٨٨٦، قبل قصة ميتلاند بخمسة أعوام. كان عندئذٍ في السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين، نفس عمر ميتلاند تقريبًا. كان موظفًا لدى السيد فالاس الراحل، الذي كان يعمل في تصنيع الحبال والخيوط؛ مصنع فالاس لا يزال قائمًا في مكانه في نهايةِ جادَّةِ هاي ستريت بالقرب من النهر، لكنَّ السيدَ فالاس نفسَه قد مات. كان تشامبرلين شابًّا ذكيًّا نابهًا مندفعًا، وأصبح لا غنى للسيد فالاس عنه، وكان السيد فالاس ينقده راتبًا جيدًا جدًّا. استقر في البلدة وتزوَّج بفتاةٍ منها، من عائلة كوركينديل، صانِعي السروج، بعد ثلاثة أعوام من قدومه. ومع الأسف تُوفِّيت أثناء الولادة بعد عامٍ من الزواج. وبعد ذلك بوقتٍ قصير ترك تشامبرلين عملَه لدى فالاس، وبدأ العمل سمسارًا للأسهم. كان قبل ذلك موفِّرًا، وتمكَّن من ادِّخارِ مبلغٍ معقول مع زوجته، كان دائمًا يعلم الجميع أن لديه مُدخراتٍ أخرى، وبدأ عمله بدايةً جيدة. كان دَمِثَ الخُلق، ولم يُعجِزْه استخلاصُ ما يريد ولو من بين أنياب الليث. كان أصحابُ الأموال في البلدة يَثِقون به، وكنتُ أنا أيضًا

أثِقُ به يا سيد سبارجو، وأبرمتُ معه صفقاتٍ عديدة، ولم أخسر في أيٍّ منها شيئًا، بل على العكس، ربحتُ من ورائه الكثير. وربح معظمُ عملائه الكثيرَ. بالطبع كانت هناك بعضُ التقلُّبات، لكنه بوجهٍ عام كان يُرضِي عملاءه إلى حدٍّ استثنائي. لكن، بطبيعة الحال، لم يعلم أحدٌ ما كان يجري بينه وبين ميتلاند.»

قال سبارجو: «أستنتِج من هذا التقرير أن كل شيء انكشَفَ فجأةً وعلى نحوٍ غيرِ متوقَّع؟»

رد السيد كوارتربيدج: «هذا صحيحٌ يا سيدي. كان الأمر مُفاجِئًا وغيرَ متوقَّع كالرعد في يومٍ شتوي صافٍ. لم يكن لدى أحدٍ أدنى فكرة أن هناك شيئًا خاطئًا يجري. كان جون ميتلاند يَحْظى باحترام البلدة، وكان الجميع ينظرون إليه نظرةَ إكبارٍ ويعرفونه جيدًا. أؤكِّد لك يا سيد سبارجو أنه ليس من المبهِج أن يكون المرءُ عضوًا في هيئة المحلَّفين تلك كما كنت أنا — بل كنتُ رئيسَها — ولا أن ترى رجلًا كنتَ تعتبره صديقًا مقرَّبًا يُحكَم عليه. لكن هذا ما جرى!»

سأل سبارجو متحمسًا لمعرفة الحقائق: «كيف اكتُشِف الأمر؟»

رد السيد كوارتربيدج: «على النحو الآتي. مصرف ماركت ميلكاستر مملوكٌ بالكامل تقريبًا في حقيقة الأمر لعائلتَين قديمتَين في البلدة؛ هما عائلة جاتشبي وعائلة هوستابل. وذاتَ مرةٍ انضمَّ شابٌّ من عائلة هوستابل إلى العمل في المصرف بعد تخرُّجه في الكلية ووفاةِ أبيه مباشَرةً. كان شابًّا نابهًا متيقظًا، فارتابَ من ميتلاند لسببٍ ما، فألَحَّ على الشركاء الآخَرين لفتحِ تحقيقٍ خاص في أمره، وأصرَّ على أن يتم ذلك على نحوٍ مفاجئ. فتم الإيقاع بميتلاند قبل أن يَحْظى بأي فرصةٍ للمناوَرة. لكننا كنا نتحدَّثُ عن تشامبرلين.»

وافَقه سبارجو: «نعم كنا نتحدَّث عن تشامبرلين.»

واصَل السيد كوارتربيدج: «نعم، أُلقي القبض على ميتلاند ذاتَ مساء. وبالطبع انتشر الخبر في البلدة كالنار في الهشيم. كان الجميع مذهولين، فقد كان لسنواتٍ وحتى ذلك الحين وكيلًا لكنيسة الأبرشية، ولا أعتقد أن وَقْعَ المفاجأة كان سيكون أشدَّ لو سمعنا بالقبض على كاهن الكنيسة لجريمةِ تعدُّدِ الزوجات. في بلدة صغيرة كهذه، تنتشر الأخبارُ في دقائق معدودة. وبالطبع كان تشامبرلين سيسمع بهذه الأخبار شأنه شأن الجميع. لكنَّ الأهاليَ تذكَّروا فيما بعدُ وعلَّقوا كثيرًا قائلين إنه منذ لحظة القبض على ميتلاند لم يتحدَّث أحدٌ في ماركت ميلكاستر مع تشامبرلين بعد ذلك قطُّ. بعد وفاة زوجته اعتاد أن يقضيَ ساعةً تقريبًا من المساء هناك في فندق يلو دراجون، حيث التقيتَ بي أنا وأصدقائي

ليلةَ أمس، لكنه لم يذهب إلى فندق يلو دراجون تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي استقلَّ قطارَ الساعة الثامنة إلى لندن. وقال لناظر المحطة وهو يركب القطارَ إنه يتوقَّع أن يعود في وقتٍ متأخر من ليلِ اليوم نفسِه، وإنه سيقضي يومًا مجهدًا. غير أن تشامبرلين لم يَعُد تلك الليلةَ يا سيد سبارجو. مضت أربعة أيام قبل أن يعود إلى ماركت ميلكاستر، وعندما عاد كان ذلك في تابوت!»

قال سبارجو منفعلًا: «مات؟ يا للمفاجأة!»

وافَقه السيد كوارتربيدج: «مفاجأةٌ حقًّا. نعم سيدي، عاد تشامبرلين في تابوته. وفي المساء الذي قال إنه سيعود فيه تحديدًا، وصلَت برقية إلى هنا تقول إنه مات على نحوٍ مفاجئ في فندق كوزموبوليتان. وصلتْ هذه البرقية إلى صِهره كوركينديل، العاملِ في تصنيع السروج، يُمكِنك أن تجده على مسافةٍ من هنا في هذا الشارع، أمام مجلس البلدة. أرسَلَ البرقيةَ إلى كوركينديل أحدُ أبناء إخوة تشامبرلين، اسمه ستيفن ويعيش في لندن، وفُهِم أنه يعمل في البورصة هناك. رأيت تلك البرقيةَ يا سيد سبارجو، كانت برقيةً طويلة. كُتِب فيها أن تشامبرلين تعرَّض لنوبةٍ مفاجئة، واستُدعِي له طبيبٌ لكنه مات بعدئذٍ بوقت قصير. ونظرًا إلى أن ابنَ أخي تشامبرلين وأصدقاءَه كانوا في لندن، لم يشعر صِهرُه توم كوركينديل أنه من الضروري أن يتوجَّه إلى هناك بنفسه، فاكتفى بإرسالِ برقيةٍ إلى ستيفن تشامبرلين يسأله عما إذا كان هناك ما يُمكِنه فعله. وفي صباح اليوم التالي وصلَتْ برقيةٌ أخرى من ستيفن كُتِب فيها أنه لن يجريَ التحقيقُ في سبب الوفاة، فقد كان الطبيب حاضرًا ويُمكِنه أن يشهد بسبب الوفاة، وطلب من كوركينديل أن يُجرِيَ ترتيبات الجنازة بعد يومَين. كان تشامبرلين قد اشترى قبرًا في مقابرنا عندما دفَنَ زوجته، وبطبيعة الحال قرَّروا دفْنَه فيه، معها.»

أومأ سبارجو. وبدأ يستوعب كل المعلومات تدريجيًّا ويتخيَّل فرضيات عديدة مختلفة.

واصَل السيد كوارتربيدج: «وفي اليوم التالي، أحضروا جثمان تشامبرلين. جاء معه ثلاثةُ أشخاص: ستيفن تشامبرلين، والطبيبُ الذي استُدعِي، ومحامي إجراءات. جرى كل شيء على النحو الصحيح. ونظرًا إلى أن تشامبرلين كان معروفًا في البلدة، استقبل عددٌ من أبناء البلدة الجثمانَ في المحطة وتبعوه إلى المقابر. وبطبيعة الحال كان الكثيرون منَّا ممَّن كانوا عملاءَ تشامبرلين توَّاقِين إلى معرفةِ كيفيةِ وفاته المفاجئة هذه. وفقًا لرواية ستيفن تشامبرلين، كان تشامبرلين المقصودُ قد أبرَقَ له ولمحاميه ليلتقوا في فندق كوزموبوليتان لإجراء بعض الأعمال. كانا في انتظاره هناك عندما وصل، تناوَلوا الغداء معًا. وبعد ذلك التفتوا لأعمالهم في غرفة مغلقة. وقُربَ نهاية النهار، شعر تشامبرلين بوعكةٍ مفاجئة،

وعلى الرغم من أنهم استدعَوْا له الطبيبَ على الفور، فقد مات قبل حلول المساء. قال الطبيب إن قلبَه كان عليلًا. على أي حال، شهِدَ الطبيب بسبب الوفاة؛ لذا لم يُجرَ تحقيق، ودُفِن كما أخبرتُك.»

توقَّف العجوز، وأخذ رشفةً من شراب الشيري، ثم ابتسم عندما تذكَّرَ شيئًا ما.

وواصَل: «وبالطبع، عندئذٍ جاءت الفكرة لميتلاند، وأقسَمَ ميتلاند إن كل الأموال في حوزة تشامبرلين، بل إنه كان أيضًا متأكدًا تمامًا أنه كان يحتفظُ بها في صورةِ أوراقٍ نقدية. لكن تشامبرلين يا سيد سبارجو لم يترك وراءَه شيئًا تقريبًا. كل ما أمكن تتبُّعه كان ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه. ترك كلَّ شيء لابن أخيه ستيفن. ولم يكن هناك أيُّ دليل على مآل المبالغ الطائلة التي عَهِد ميتلاند إليه بها. وعندئذٍ بدأ الناس يتحدَّثون، وبدَءوا يتداوَلون القصصَ التي لم تَزَل شائعةً حتى يومنا هذا!»

قال سبارجو: «وما هي؟»

مال السيد كوارتربيدج إلى الأمام ونقر ذراعَ ضيفِه وأجاب:

«أن تشامبرلين لم يَمُت قطُّ، وأن التابوت كان مليئًا بالرصاص!»

الفصل العشرون

ميتلاند، الاسم المستعار ماربري

غرَسَت تلك الفكرةُ بذرةَ تصوُّر جديد للأمور في ذهن سبارجو، وذهبَت بخياله إلى آفاقٍ لا حدَّ لها، حتى إنه جلس لوهلة صامتًا يُحدِّق في محدِّثه الذي أطلق ضحكةً خفيفة حين رأى اندهاش زائره.

وأخيرًا قال سبارجو: «أتقصد أن تُخبرني أنَّ هناك أُناسًا في هذه البلدة لا يزالون يعتقدون أن التابوت الذي استقرَّ في مقابركم، والذي من المفترض أن به جثمانَ تشامبرلين، ليس فيه في الحقيقة إلا ... رصاص؟»

رد السيد كوارتربيدج: «أناس كثيرون يا سيدي العزيز. أناس كثيرون! انزل إلى الشارع واسأل أولَ ستة رجال تلتقي بهم، أراهن أنك ستجد أربعةً من الستة يعتقدون ذلك.»

سأل سبارجو: «لماذا إذن لم يتخذ أحدٌ أيَّ خطوات للتحقُّق من الأمر؟ لماذا لم يستصدروا أمرًا لنبش القبر؟»

أجاب السيد كوارتربيدج: «لأن ذلك لم يكن من شأن أحد. أنت لا تعرف كيف هي حياة البلدات الريفية يا سيدي العزيز. ففي بلدةٍ مثل ماركت ميلكاستر يتحدَّث الناس ويُثرثرون كثيرًا، لكنهم قلَّما يفعلون شيئًا. الأمر متوقِّفٌ على مَن سيتخذ خطوة أولًا ... على أخذ زمام المبادَرة. إذا وجدوا أن الأمر سيُكلِّفهم شيئًا، فسيُحجِمون عن فعل أي شيء.»

قال سبارجو: «لكن، ماذا عن مسئولي البنك؟»

هز السيد كوارتربيدج رأسه رافضًا.

وقال: «إنهم ممَّن يظنون أن تشامبرلين قد مات بالفعل، فعائلتا جاتشبي وهوستابل أناسٌ قديمو الطراز محدودو التفكير، تقبَّلوا روايةَ ابن الأخ والطبيب والمحامي. لكن

دَعْني أخبرك شيئًا عن هؤلاء الثلاثة. ذات مرة جاء رجلٌ من زملائك في المهنة للعمل محرِّرًا في هذه الصحيفة التي على ركبتك. وأثارت قضيةُ تشامبرلين فضولَه، فبدأ يطرح الأسئلةَ ليحصل على ... ماذا تسمونها؟»

قال سبارجو: «مادة صحفية جيدة، على ما أظن.»

وافَقه السيد كوارترببيدج: «مادة صحفية ... هذه هي. تجشَّمَ الرجلُ عناءَ السفر إلى لندن لطرح أسئلة هادئة عن ستيفن، ابن الأخ. كان هذا بعد دفن تشامبرلين باثني عشر شهرًا فقط. لكنه اكتشف أن ستيفن تشامبرلين غادَر إنجلترا قبل ذلك بعدة أشهر. اختفى، على حدِّ قول الناس، ذهب إلى أحد المستعمرات، لكنهم لم يعلموا أيَّ مستعمرة. والمحامي أيضًا اختفى. وكذلك الطبيب، لم يُعثَر له على أثر، لم يُجدِ الرجوع إلى السجلِّ الطبي فائدةً في العثور عليه. ما قولك في كل هذا يا سيد سبارجو؟»

أجاب سبارجو: «أعتقد أن أهاليَ ماركت ميلكاستر شديدو التقاعُس. لو كان الأمر بيدي لَأمرتُ بالتحقيق في ظروف الوفاة والدفن. فالأمر برمته يبدو مؤامَرة.»

قال السيد كوارترببيدج: «الأمر أن هذا لم يكن من شأن أحد. حاوَل الصحفيُّ إثارةَ الاهتمام بالقضية، لكن ذلك لم يُجدِ شيئًا، وغادَر بعد ذلك بوقت قصير للغاية. وهكذا انتهى كلُّ شيء.»

قال سبارجو: «سيد كوارترببيدج، ما رأيك أنت بصراحة؟»

ابتسم العجوز.

وقال: «أوه! لطالما تساءَلتُ يا سيد سبارجو عما إذا كان لي رأيٌ في هذا الأمر حقًّا. أعتقد أن انطباعي عن الأمر كله أن غموضًا شديدًا كان يكتنفه. لكن يبدو يا سيد سبارجو أننا ابتعَدْنا كثيرًا عن موضوع التذكرة الفِضية التي تحملها في محفظتك. والآن ...»

قاطَع سبارجو مضيفَه ملوحًا بإصبعه: «كلا! بل أعتقد أننا نقترب من الموضوع أكثر. لقد منحتَني الكثيرَ من وقتك يا سيد كوارترببيدج، وأخبرتَني بالكثير، وقبل أن أُخبرك أنا بما لديَّ — وهو كثير أيضًا — سأُرِيك شيئًا.»

أخرَجَ سبارجو من دفتر ملاحظاته الذي كان يحمله في جيبه صورةً لجون ماربري كانت مثبتةً بداخله جيدًا، كانت الصورةَ الأصلية التي التقطها لصحيفة «ووتشمان». سلَّمَها للسيد كوارترببيدج.

وسأله: «هل تعرف صاحبَ هذه الصورة؟ انظر إليها جيدًا.»

ارتدى السيد كوارترببيدج نظارة خاصة، وفحص الصورةَ من عدة زوايا.

وأخيرًا هز رأسه وقال: «كلا، يا سيدي. لا أعرفه على الإطلاق.»

سأل سبارجو: «أَلَا ترى فيه تشابُهًا مع أيِّ رجل كنتَ تعرفه يومًا ما؟»

رد السيد كوارتربيدج: «كلا يا سيدي! لا أحد على الإطلاق.»

وضع سبارجو الصورةَ على الطاولة الفاصلة بينهما وقال: «حسنًا. إذن أخبرني كيف كان شكلُ جون ميتلاند عندما كنتَ تعرفه. وأُريدك أيضًا أن تصفَ شكلَ تشامبرلين عندما مات، بافتراض أنه مات فعلًا. لا بدَّ أنك تتذكَّرهما جيدًا، صحيح؟»

قام السيد كوارتربيدج، وتوجَّه إلى الباب.

وقال: «يُمكِنني أن أفعل ما قد يُفيدك أكثرَ من ذلك. يُمكِنني أن أُرِيك صورةً للرجلين كما كان شكلهما قبل محاكَمة ميتلاند مباشَرةً. لديَّ صورة لثُلَّة من وجهاء ماركت ميلكاستر التُقِطت في حفل في حديقة البلدية، يظهر فيها كلٌّ من ميتلاند وتشامبرلين. كانت محفوظةً في خِزانة في غرفة الاستقبال بمنزلي سنواتٍ طِوالًا، ولا شكَّ لديَّ أنها واضحة كما كانت يوم التُقِطت.»

وغادَر الغرفة ثم عاد بعد وقتٍ قصير يحمل صورة فوتوغرافية كبيرة وضعها على الطاولة أمام زائره.

وقال: «تفضَّل يا سيدي. واضحة جدًّا، كما ترى، لا بد أن عشرين عامًا قد مضت منذ آخِرِ مرة خرجَتْ فيها من الدُّرج الذي كانت فيه. انظر، هذا هو ميتلاند. وهذا تشامبرلين.»

وجد سبارجو نفسَه ينظر إلى مجموعةٍ من الرجال يقفون أمام جدارٍ مكسوٍّ باللبلاب في وضعياتٍ متشنجة كالتي يُرتِّب فيها المصوِّرون مَن يصوِّرنهم قائمين وجالسين. وركَّز انتباهَه على الشخصَين اللذين أشار إليهما السيد كوارتربيدج، فوجد رجلَين متوسِّطَي الطول، قويَّي البِنية، لم يكن في هيئتَيهما ما يجذب الانتباه.

قال متفكِّرًا: «إمممم. كلاهما مُلتحٍ.»

وافَقه السيد كوارتربيدج: «نعم، كلاهما مُلتحٍ، لحيتان كاملتان. لاحِظ أنهما لم يكونا متشابِهَين كثيرًا. لكن ميتلاند كانت بشَرتُه أغمقَ من بشرة تشامبرلين، وعيناه بُنِّيتين، أما عينا تشامبرلين فكانتا باللون الأزرق الفاتح.»

قال سبارجو: «إزالة اللحى تُغيِّر الشكل كثيرًا.» ونظر إلى صورة ميتلاند بين المجموعة، وأخذ يُقارِنها بصورة ماربري التي أخرَجها من جيبه. ثم قال متفكرًا: «والعشرون عامًا أيضًا تُغيِّر الشكل.»

قال العجوز: «بالنسبة إلى بعض الناس تُغيِّر العشرون عامًا الشكلَ تغييرًا كبيرًا يا سيدي. وبالنسبة إلى آخَرين لا تُغيِّر شيئًا، فأنا لم يتغيَّر شكلي كثيرًا في العشرين عامًا الأخيرة حسَبما يُقال لي. لكني رأيتُ بعض الرجال يتغيَّر شكلهم، ويَشِيخون حتى يتعذَّر التعرُّف على شكلهم الجديد في خمسة أعوام فقط. الأمر يعتمد على ما يمرون به يا سيدي.»

وضع سبارجو الصورَ جانبًا فجأة، ووضع يدَيه في جيوبه، وأخذ ينظر إلى السيد كوارتربيدج في ثبات.

وقال: «اسمع، سأخبرك بما أبحث عنه يا سيد كوارتربيدج. لا شكَّ أنك سمعتَ عما يُعرَف بجريمة قتل ميدل تمبل ... قضية ماربري، صحيح؟»

رد السيد كوارتربيدج: «نعم، لقد قرأتُ عنها.»

سأل سبارجو: «هل قرأتَ ما كُتِب عنها في صحيفتِي «ووتشمان»؟»

هز السيد كوارتربيدج رأسَه نافيًا.

رد السيد كوارتربيدج: «لم أقرأ إلا صحيفةً واحدة منذ شبابي. أشتري صحيفة «ذا تايمز» يا سيدي ... نشتريها منذ وقتٍ طويل، حتى عندما كانت تخضع للضرائب.»

قال السيد سبارجو: «جيد جدًّا. لكن ربما يُمكِنني أن أخبرك بما يَزيد عمَّا قرأتَ أنت، فأنا أعمل على هذه القضية منذ العثورِ على جثةِ رجلٍ يُعرَف باسم جون ماربري. أَعِرْني انتباهَك، وسأخبرك بالقصة كلها منذ لحظة العثور على الجثة حتى الآن.»

طفق سبارجو يحكي بإيجاز واقتضابٍ قصةَ قضية ماربري منذ بداية انخراطه فيها حتى اكتشاف التذكرة الفضية، وأنصت السيد كوارتربيدج في اهتمامٍ شديد، وأخذ يُومِئ برأسه من وقتٍ لآخرَ في حين كان الشابُّ يحكي القصة.

اختتم سبارجو قصتَه قائلًا: «والآن يا سيد كوارتربيدج، هذه هي المرحلة التي وصلتُ إليها. وأعتقد أن الرجل الذي جاء إلى فندق أنجلو أورينت باسم جون ماربري وقُتِل بلا شكٍّ تلك الليلةَ في زقاق ميدل تمبل كان جون ميتلاند ... لا شكَّ لديَّ في ذلك بعد ما أخبرتَني به عن التذكرة الفضية. لقد وصلتُ للكثير من المعلومات القيِّمة هنا، وأعتقد أني أقترب من حلِّ اللغز. أيْ من اكتشاف قاتِل جون ميتلاند، أو ماربري. ما أخبرتَني به عن قصة تشامبرلين جعلني أُفكِّر في احتماليةِ وجودِ شخصٍ أو أشخاص في لندن كانوا يسعَون للعثور على ماربري — فَلْندعُه بهذا الاسم — وأن هذا الشخص التقى به تلك الليلة بشكلٍ ما، وكان يسعى لإسكاته، كي لا يتحدَّث عن موضوع تشامبرلين. لقد دفعني

كلُّ ما يُحيط بإيلمور من غموض، وامتناعه عن الإفصاح عن أي تفاصيل عن نفسه، إلى التساؤل عمَّا إذا كان إيلمور هو في الحقيقة تشامبرلين. نعم، لقد خطر هذا التساؤل ببالي! لكن إيلمور طويلُ القامة، وقويُّ البِنية، طوله ستُّ أقدام، ولحيته كانت داكنة جدًّا، بالرغم من أن الشيب غزاها الآن، أمَّا تشامبرلين فأنت تقول إنه متوسط الحجم، وأشقر ذو عينَين زرقاوَين.»

وافَقه السيد كوارتربيدج: «هذا صحيحٌ سيدي. لقد كان رجلًا متوسِّط البِنية، وأشقرَ شديد الشُّقْرة. يا للعجب يا سيد سبارجو! … هذا اكتشاف. هل تعتقد حقًّا أن جون ميتلاند وجون ماربري هما الشخص نفسُه؟»

قال سبارجو: «أنا متأكدٌ من ذلك الآن. هذا تصوُّري للأمر. عندما أُطلِق سراحُ ميتلاند سافَرَ إلى أستراليا، واستقرَّ فيها. ثم عاد في النهاية ويُسْر الحال بادٍ عليه. وقُتِل يومَ وصوله. إيلمور هو الرجل الوحيد الذي يعرف أيَّ شيء عنه، لكنه يرفض الإفصاحَ عن كل ما لديه، هذا واضح. لكن إيلمور أقرَّ بأنه كان يعرفه في وقتٍ غير محدَّد، ربما منذ واحدٍ وعشرين أو اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا. لكن، أين كان يعرفه إيلمور؟ يقول إنه كان يعرفه في لندن، لكن هذا ليس دقيقًا. يرفض تحديدَ المكان، ويرفض الإفصاحَ عن أي شيء محدَّد، ويرفض حتى الإفصاح عن العمل الذي كان يُزاوِله هو ذلك الحين. هل تتذكَّر أيَّ شيء عن قدومِ شخصٍ مثل إيلمور إلى هنا للقاء ميتلاند يا سيد كوارتربيدج؟»

أجاب السيد كوارتربيدج: «كلا، ميتلاند كان رجلًا هادئًا جدًّا وانطوائيًّا يا سيدي، كان أهدأَ رجلٍ في البلدة تقريبًا. لا أتذكَّر استقبالَه لأيِّ زائرين قط، وبالتأكيد لا أتذكَّر له صديقًا من تلك الأيام تنطبق عليه أوصافُ إيلمور التي أخبرتَني بها.»

سأل سبارجو: «وهل كان ميتلاند يزور لندن تلك الأيام؟»

ضحك السيد كوارتربيدج.

وقال: «سأُثبِت لك قوةَ ذاكرتي، سأخبرك بشيءٍ حدث في فندق يلو دراجون قبل ذيوع قصة ميتلاند بأشهُرٍ قليلة. ذاتَ مساءٍ كان عددٌ منا هناك، وجاء ميتلاند برفقة تشامبرلين على غير العادة. وحدث أنْ قال تشامبرلين إنه سيذهب إلى لندن في اليوم التالي، كان يذهب إليها ويعود منها كثيرًا، فبدأنا نتحدَّث عن لندن. وخلال الحديث قال ميتلاند إنه يعتقد أنه الرجل الوحيد تقريبًا ممَّن يُماثِلونه سنًّا في إنجلترا — ولا شكَّ أنه كان يعني أيضًا مَن يُماثِلونه في الطبقة الاجتماعية والظروف — الذي لم يَرَ لندن قط! ولا أعتقد أنه

زارها بين ذلك الوقت ووقت محاكَمته، بل إني متأكدٌ أنه لم يَزُرها؛ لأنه لو كان زارها، لَكنتُ سمعتُ بخبر ذلك.»

قال سبارجو: «هذا غريب، هذا غريب جدًّا؛ لأني متأكدٌ أن ميتلاند وماربري هما الشخص نفسُه. فرضيتي عن تلك العُلْبة الجلدية القديمة هي أن ميتلاند كان قد دفَنَها بعنايةٍ قبل القبض عليه، وأنه أخرَجَها عندما خرَج من دارتمور، ثم أخذها إلى أستراليا معه، ثم عاد بها، وأن التذكرة الفضية والصورة كانتا فيها طوال هذه السنوات. والآن …»

في هذه اللحظة فُتِح باب المكتبة، ودخلت خادمةٌ ونظرت إلى سيدها وقالت:

«هناك عاملٌ من فندق يلو دراجون على الباب الأمامي يا سيدي. ومعه برقيتان للسيد سبارجو وصلا إلى الفندق، يعتقد أنه قد يودُّ الاطِّلاعَ عليهما على الفور.»

الفصل الحادي والعشرون

اعتقال

هُرِع سبارجو إلى صالة الاستقبال، وأخذ البرقيتَين من عامل فندق يلو دراجون، وفتح المظروفَين، وقرأ الرسالتَين سريعًا. ثم عاد إلى السيد كوارتربيدج.

قال وهو يُغلِق باب المكتبة ويعود إلى مقعده: «هناك أخبارٌ مهمة. سأقرأ لك هاتَين البرقيتَين سيدي، وبعد ذلك يُمكِننا مناقَشتُهما في ضوء ما كنَّا نتحدث عنه هذا الصباح. البرقية الأولى من مكتبنا. قلتُ لك إننا أرسلنا إلى أستراليا نطلب تقريرًا كاملًا عن ماربري من كولومبيدجي، وهو المكان الذي قال إنه أتى منه. وصل التقرير للتوِّ إلى صحيفة «ووتشمان»، وأرسلوه إليَّ. إنه من رئيس شرطة كولومبيدجي إلى رئيس تحرير صحيفة «ووتشمان» في لندن، وجاء فيه:

> جاء جون ماربري إلى كولومبيدجي في شتاء ١٨٩٨–١٨٩٩. ولم يكن معه أحد. بدا أنه كان يمتلك ثروةً لا يُستهان بها، واشترى حصةً في مزرعةِ خِراف صغيرة من مالِكها أندرو روبرتسون. لم يزَل هذا الرجل هناك، ويقول إن ماربري لم يُخبِره بشيءٍ عن نفسه قطُّ سوى أنه هاجَرَ لأسباب صحية وأنه كان أرملًا. وذكر أنه كان له ابنٌ لكنه مات، ولم يَعُد له أقاربُ الآن. عاش حياةً هادئة جدًّا ومستقرة في مزرعة الخِراف، ولم يُغادِرها عدةَ سنوات. لكنه منذ ستةِ أشهر تقريبًا زار ميلبورن، وعندما عاد أخبر روبرتسون أنه قرَّر العودةَ إلى إنجلترا على إثْرِ خبرٍ ما وصَلَه؛ لذا عليه أن يبيع حصتَه في مزرعة الخِراف. اشتراها منه روبرتسون نظيرَ ثلاثةِ آلاف جنيه، وبعدها بوقتٍ قصير رحل ماربري متجهًا إلى ميلبورن. ويعتقد روبرتسون بِناءً على ما ورده من أنباء أن ماربري كان يمتلك خمسة أو ستة آلاف عندما رحل عن كولومبيدجي. أخبر روبرتسون أنه التقى برجلٍ في ميلبورن أنبأه بخبرٍ صدَمَه، لكنه لم يُفصِح عن فحوى

الخبر. وعندما ترك روبرتسون كان يحمل الأمتعةَ نفسَها التي أحضرها معه عندما أتى، وهي حقيبةُ سفرٍ كبيرة، وعُلْبة جلدية صغيرة مربعة. ولم يترك في كولومبيدجي أيًّا من متعلقاته.»

قال سبارجو وهو يضع البرقية الأولى على الطاولة: «انتهت البرقية.» ثم واصَل: «يبدو لي أنها تحمل دلالاتٍ كثيرة. ولكن إليك النبأَ الأخطر. هذه البرقية من راثبري محقِّق سكوتلاند يارد الذي حدَّثتكَ عنه يا سيد كوارتربيدج، فقد تعهَّد بإطلاعي على ما يستجدُّ في غيابي. إليك ما كتب:

ظهرت أدلةٌ جديدة تُدين إيلمور. وقرَّرت السلطات اعتقالَه للاشتباه فيه. يجدر بك الإسراع بالعودة إذا أردتَ مادةً لعددِ الغد من الصحيفة.»

وضع سبارجو هذه البرقيةَ أيضًا من يده، وانتظر ريثما أخذ العجوز ينظر إلى البرقيتَين بفضولٍ ظاهر، وفجأةً هبَّ واقفًا.

وقال: «أنا مضطرٌّ إلى الانصراف يا سيد كوارتربيدج. لقد تفقَّدتُ جدولَ القطارات هذا الصباح لكي أكون مستعدًّا. يُمكِنني ركوب قطار الواحدة وعشرين دقيقة إلى بادينجتون ... وبهذا سأصل قبل الرابعة والنصف. لا تزال لديَّ ساعةٌ من الزمن. هناك رجل آخَر كنت أودُّ مقابَلتَه في ماركت ميلكاستر. المصوِّر، أو بالأحرى أي مصوِّر. هل تتذكَّر أني أخبرتُكَ عن صورةٍ وُجِدت مع التذكرة الفضية؟ أُخمِّن أنها التُقِطت هنا، وأريد أن أقابِل الرجل الذي التقطها، إذا كان لا يزال على قيد الحياة، وإن أمكنني لقاؤه.»

قام السيد كوارتربيدج واعتمر قبعته.

وقال: «لا يوجد في هذه البلدة سوى مصورٍ واحد يا سيدي، وهو يعمل هنا منذ سنوات عديدة، اسمه كوبر. سآخذك إليه، لا يفصلنا عنه سوى مبانٍ قليلة.»

لم يُضيِّع سبارجو أيَّ وقت وهو يُخبِر المصوِّرَ بما أراد. وسأل السيد كوبر العجوز سؤالًا مباشرًا.

بعد أن قدَّمه السيد كوارتربيدج بصفته رجلًا من لندن يود طرْحَ بضعةِ أسئلة، قال سبارجو: «هل تتذكَّر التقاطَ صورةٍ لابن جون ميتلاند، مدير المصرف، منذ نحو عشرين أو واحد وعشرين عامًا؟»

رد السيد كوبر: «أتذكَّر ذلك جيدًا سيدي. كما لو كان ذلك أمس.»

سأل سبارجو: «هل لم تزل معك نسخةٌ منها؟»

لكن السيد كوبر كان قد التفتَ بالفعل إلى صفٍّ من الألبومات المجلَّدة. وأخذ من بينها ألبومًا عليه مُلصَقٌ مكتوب عليه ١٨٩١، ثم أخذ يُقلِّب الصفحات. وبعد دقيقة أو اثنتَين وضع الصورةَ على طاولته أمام زائِرَيه.

وقال: «ها هي يا سيدي. هذا هو الطفل!»

ألقى سبارجو على الصورة نظرةً سريعة ثم حوَّلَ نظرَه إلى السيد كوارتربيدج. وقال: «كما اعتقدتُ بالضبط. إنها الصورة نفسُها التي وجدناها في العُلْبة الجلدية مع التذكرة الفضية. أنا ممتنٌّ لك يا سيد كوبر. والآن هناك سؤالٌ أخير أريد أن أطرحه. هل أعطيتَ أحدًا أيَّ نُسَخ أخرى من هذه الصورة بعد قضية ميتلاند؟ أعني بعد أن غادَرَتْ أسرتُه البلدة؟»

رد المصوِّر: «نعم. أعطيتُ ستَّ نُسَخٍ منها للآنسة بيليس، خالة الطفل، في حقيقة الأمر، هي مَن أحضرَتِ الطفلَ إلى هنا لألتقطَ صورتَه. ويُمكِنني إعطاؤك عنوانها أيضًا.»

وبدأ يُفتِّش في ملفٍّ قديم آخَر. ثم واصَل: «لديَّ العنوان هنا في مكانٍ ما.»

لكز السيد كوارتربيدج سبارجو.

وقال له: «هذا شيءٌ لم أكن أستطيع فعله! فكما قلت لك، اختفتْ من برايتون عندما بدأتِ التحرياتُ عقبَ إطلاقِ سراح ميتلاند.»

قال السيد كوبر: «ها هو. لقد أرسلتُ ستَّ نُسَخ من هذه الصورة إلى الآنسة بيليس في أبريل من عام ١٨٩٥. كان عُنوانها حينذاك ٦ ميدان تشيتشيستر، بيزووتر، دبليو.»

دوَّنَ سبارجو العنوان سريعًا، وشكر المصوِّرَ على مساعَدته، ثم خرج مع السيد كوارتربيدج. وفي الشارع التفتَ إلى العجوز مبتسمًا.

وقال: «لا أعتقد أنَّ هناك مجالًا للشك الآن. ميتلاند وماربري هما الشخص نفسُه يا سيد كوارتربيدج. أنا متأكدٌ من ذلك كتأكُّدي من أني أرى مجلسَ بلدتكم هناك.»

سأل السيد كوارتربيدج: «وماذا ستفعل بعد ذلك؟»

رد سبارجو: «لم يَبقَ إلا أن أشكرك سيدي على كرمك ومساعدتِك، وأنطلق إلى البلدة على متن قطار الواحدة وعشرين دقيقة. سأُطلِعُك على المستجدَّات.»

وعندما كان سبارجو ينصرف مُسرِعًا قال العجوز: «انتظر لحظة، هل تعتقد أن السيد إيلمور هذا قتل ميتلاند حقًّا؟»

قال سبارجو مؤكدًا: «كلا. لا أعتقد ذلك! وأعتقد أنه لم يَزَل علينا فِعلُ الكثير قبل اكتشاف الفاعل.»

تعمَّد سبارجو خلال رحلته إلى البلدة عدمَ التفكير في قضية ماربري. وتناوَلَ غَداءً دَسِمًا على متن القطار وتحدَّث إلى الركاب المجاوِرين له، وقد أراحه أن يلتفتَ بعقله وانتباهِه إلى موضوعٍ غير الموضوع الذي استحوذَ عليه بلا انقطاعٍ كلَّ هذه الأيام. غير أنه عندما وصل إلى محطة ريدنج سمع الفِتْيَةَ الذين يبيعون الصحفَ يصيحون مُعلِنين خبرَ اعتقالِ عضوٍ في البرلمان، وعندما نظر من النافذة لمَح العنوانَ الصحفي العريض:

قضية قتل ماربري
اعتقال السيد إيلمور

خطف صحيفةً من أحد الفِتْية في حين بدأ القطار التحرُّك، وفتحها فلم يجد إلا إعلانًا في المساحة المخصَّصة للأخبار الهامة العاجلة جاء فيه:

> أُلقِي القبض على السيد ستيفن إيلمور النائب في البرلمان في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم وهو في طريقه إلى مجلس العموم، بتهمةِ الضُّلوع في جريمةِ قتلِ جون ماربري في زقاق ميدل تمبل ليلةَ الحادي والعشرين من يونيو الماضي. ومن المزمَع أن يَمثُل للمحاكَمة في باو ستريت في العاشرة من صباح الغد.

هُرِع سبارجو إلى نيو سكوتلاند يارد فورَ أن وصل بادينجتون. والتقى براثبري وهو قادمٌ من غرفته. ولما رآه المحقِّق التفت إليه.

وقال: «ها أنت ذا. أظنك سمعتَ الخبر، صحيح؟»

أومأ سبارجو بالموافَقة وجلس على كرسي.

وسأل فجأةً: «ما الذي أدى إلى اعتقاله؟ لا بدَّ أن شيئًا جديدًا ظهر.»

رد راثبري: «نعم، ظهر شيء. لقد عُثِر في الليلة الماضية على الأداة، أو العصا، أو الهراوة — بصرف النظر عن اسمها — التي ضُرِب بها ماربري.»

سأل سبارجو: «حسنًا ...؟»

أجاب راثبري: «ثبت أن إيلمور هو مالِكها. عصا فريدةٌ من أمريكا الجنوبية كانت في مسكنه في فاونتن كورت.»

سأل سبارجو: «وأين عُثِر عليها؟»

ضحك راثبري.

وقال: «لقد كان الفاعلُ أخرقَ، سواءٌ أكان إيلمور أم غيرَه. أتعرف أنها رُمِيت في أنبوب للصرف في زقاق ميدل تمبل؟! ربما ظنَّ القاتلُ أن التيار سيَجرفها إلى نهر التيمز

ويحملها بعيدًا. ولكنَّ ظهورَها كان حتميًّا. وجدها عاملُ صرفٍ مساءَ أمس، وسرعان ما تعرَّفَتْ عليها السيدة التي تُنظِّف مسكن إيلمور وأفادت بأنها كانت في مسكنه منذ تعرَّفَتْ به.»

سأل سبارجو: «وماذا قال إيلمور في هذا الشأن؟ لا بد أنه قال شيئًا.»

قال راثبري: «قال إنها هراوته بالتأكيد، وإنه أحضرها معه من أمريكا الجنوبية، وإنه مع ذلك لا يتذكَّر أنه لمحها في مسكنه منذ بعض الوقت، ويعتقد أنها سُرِقت منه.»

قال سبارجو متفكرًا: «إمممم. لكن، كيف عرَفتَ أنها كانت الأداةَ التي ضُرِب بها ماربري؟»

ابتسم راثبري ابتسامةً خفيفة.

وقال: «كان عليها بعضٌ من شعره مختلطًا ببعض الدم. لا شكَّ في ذلك. لكن أخبرني، هل توصَّلتَ إلى شيءٍ من رحلتك إلى الغرب؟»

رد سبارجو: «نعم. الكثير!»

سأل راثبري: «معلوماتٌ مفيدة؟»

«مفيدة جدًّا. لقد عرَفتُ مَن كان ماربري حقًّا.»

«لا! حقًّا؟»

«لا شكَّ لديَّ. أنا متأكِّد.»

جلس راثبري على مكتبه، وأخذ يراقب سبارجو في انتباهٍ شديد.

وسأل: «ومَن كان؟»

أجاب سبارجو: «جون ميتلاند، كان يعيش في ماركت ميلكاستر مدةً، وهو مدير مصرف سابق. وكذلك مُدان سابق.»

«مُدان سابق!»

«مُدان سابق. حكمتْ عليه محكمةُ ماركت ميلكاستر في خريف عام ١٨٩١ بالأشغال الشاقة لمدة عشرِ سنوات، بتهمة اختلاسِ قرابةِ مائتين وعشرين ألفَ جنيه من أموال المصرف. وأمضى مدةَ سجنه في دارتمور. وفورَ أن أُطلِق سراحه، أو بعد ذلك بقليل، سافَر إلى أستراليا. هذا مَن كان ماربري، أو ميتلاند. بكل تأكيد.»

واصَل راثبري التحديقَ في زائره.

وقال: «واصِلِ الحديث. أخبرني بكل ما لديك عن الأمر يا سبارجو. فَلْنستمع إلى كل التفاصيل. وبعد ذلك سأخبرك بكل ما أعرف. بالرغم من أن ما أعرف قليلٌ جدًّا بالمقارَنة بما لديك.»

أخبره سبارجو بكل مُغامَراته في ماركت ميلكاستر بالتفصيل، وأنصت له المحقِّق في انتباه شديد.

وفي النهاية قال: «نعم. لا أظن أنَّ هناك مجالًا للشك في ذلك. هذا يُفسِّر الكثير، أليس كذلك؟»

تثاءَب سبارجو.

وقال: «بلى، هذا يفتح صفحةً جديدة بالكامل، لم يَعُد اهتمامي الآن مُنصبًّا على ماربري أو ميتلاند. أنا الآن مهتمٌّ بإيلمور.»

أومأ راثبري بالموافَقة.

وقال: «نعم. الأمر الذي ينبغي اكتشافه هو هُوِية إيلمور، أو مَن كان منذ عشرين عامًا.»

سأل سبارجو: «لم يتوصَّل زملاؤك إلى أي شيء إذن، صحيح؟»

أجاب راثبري مبتسمًا: «لا شيءَ سوى تاريخ السيد إيلمور الخالي من المآخِذ منذ عودته إلى هذا البلد بثرائه الواسع منذ عشر سنوات تقريبًا. وليس لديهم أيُّ معلومات عنه من تاريخ سابق. ما خطوتُك التالية يا سبارجو؟»

رد سبارجو: «مُقابَلة الآنسة بيليس.»

سأل راثبري: «أتعتقد أن ذلك سيفيدك بشيء؟»

قال سبارجو: «اسمع. لا أعتقد ولو لثانيةٍ واحدة أن إيلمور قتَل ماربري. أعتقد أن ما سيقودني إلى الحقيقة هو البحث في أمر ما أُسمِّيه بمحاكَمة ميتلاند. والآنسة بيليس هذه لا بدَّ أنها تعرف شيئًا، إن كانت على قيد الحياة. سأذهب إلى المكتب الآن. ابقَ على اتصالٍ بي يا راثبري.»

وتوجَّه سبارجو حينئذٍ إلى مكتب «ووتشمان»، وعندما نزل من سيارة الأجرة أمامه، توقَّفت سيارة أجرة أخرى ونزلَت منها ابنتا السيد إيلمور.

الفصل الثاني والعشرون

الماضي المجهول

مضَت جيسي إيلمور في ثقةٍ واضحة للقاء سبارجو، في حين تأخرَت أختها الكبرى متحفظة.

قالت جيسي: «هل يُمكِنني الحديث معك؟ هذا ما جئنا لأجله. لم تُرِد إيفيلين المجيءَ لكني حملتُها عليه.»

صافَح سبارجو إيفيلين إيلمور في صمتٍ وأشار إليهما أن يتبعاه. صحبَهما مباشَرةً إلى غرفته في الطابق العلوي، وأجلسهما على الكرسيَّين الأكثر راحة، ثم خاطَبهما قائلًا:

«عدتُ إلى البلدة لتوِّي. ساءني أن أسمع آخِرَ أنباء أبيكما. لا بد أن هذا ما جاء بكما إلى هنا. لكني أخشى أنْ ليس بيدي حيلة.»

خاطَبَت إيفيلين إيلمور أختَها قائلةً: «قلتُ لكِ إننا لا ينبغي أن نُزعِج السيد سبارجو يا جيسي. كيف عساه يساعدنا؟»

هزت جيسي رأسَها في نفادِ صبر.

وقالت: «صحيفة «ووتشمان» هي الصحيفة الأمضى تأثيرًا في لندن، أليست كذلك؟ أَوَليس السيد سبارجو هو مَن يكتب كلَّ هذه المقالات عن قضية ماربري؟ سيد سبارجو، لا بدَّ أن تُساعِدنا!»

جلس سبارجو على مكتبه وبدأ يُقلِّب الخطابات والصحف التي تراكَمتْ خلال غيابه.

وقال: «سأتوخَّى الصراحةَ التامة معكما، لا أرى وسيلةً يُمكِن لأحدٍ مساعَدتُكما بها ما دام أبوكما يُخفِي أسرارَ ماضيه.»

قالت إيفيلين في هدوء: «هذا بالتحديد ما يقوله رونالد يا جيسي. لكننا لا نستطيع إجبارَ أبينا على الإفصاح يا سيد سبارجو. نحن متأكِّدتان أنه بريء مثلنا تمامًا من هذه الجريمة الشنعاء، لكننا لا نعرف سببًا لرفْضِه الإجابةَ عن الأسئلة التي طُرِحَت عليه خلال الاستجواب. ولا نعلم أكثرَ مما تعلم أنت أو أيُّ شخصٍ آخر، وعلى الرغم من أني توسَّلت

إليه أن يُفصِح عمَّا لديه، فإنَّه يرفض الإفصاحَ ولو عن كلمة واحدة. لقد أدرَكْنا الخطرَ المحدق به، وأخبرَنا به رونالد، أعني السيد بريتون، فناشَدْناه الإفصاحَ عن كل ما يعرف عن السيد ماربري. لكنه حتى الآن يهزأُ من تصوُّر ضلوعه في الجريمة، أو احتمال اعتقاله لاتهامه بها، والآن ...»

قاطَعها سبارجو بنبرته الجادة: «والآن هو قيد الاحتجاز. هناك أناسٌ يحتاجون إلى مَن يُنقِذهم من أنفسهم. ربما يتحتَّم عليكما إنقاذُ أبيكما من تَبِعات ... تعنُّتِه، إن جاز لي وصْفُ موقفِه بذلك. لكن، أخبراني، ولن يخرجَ السرُّ عن ثلاثتِنا، ما قدْرُ ما تعرفانه عن ماضي أبيكما؟»

تبادَلتِ الأختان النظراتِ ثم نظرتا إلى سبارجو.

وقالت الكبرى: «لا شيء.»

وأكَّدت الصغرى: «لا شيءَ على الإطلاق!»

قال سبارجو: «أجيباني عن بعض الأسئلة البسيطة. ولن أنشرَ إجاباتكما، ولن أستخدمها بأي شكل، أسألكما فقط رغبةً في مساعَدتكما. هل لكم أيُّ أقاربَ في إنجلترا؟»

ردت إيفيلين: «لا نعرف لنا أيَّ أقاربَ في إنجلترا.»

سأل سبارجو: «ليس لديكما أحدٌ يُمكِنكما اللجوء إليه لجمع معلوماتٍ عن الماضي؟»

«كلا، لا أحد!»

نقر سبارجو بأصابعه على لوحِ تجفيف الحبر. وأخذ يُفكِّر بعمق.

ثم سأل فجأةً: «كم عُمْر أبيكما؟»

أجابت إيفيلين: «أتمَّ التاسعةَ والخمسين منذ بضعة أسابيع.»

سأل سبارجو: «وكم عُمْركما أنتِ وأختك؟»

قالت إيفيلين: «أنا في العشرين، وجيسي في التاسعة عشرة تقريبًا.»

«وأين وُلِدتما؟»

«كِلْتانا وُلِدت في سان جريجوريو في مقاطعة سان خوسيه بالأرجنتين، شمال مونتي بيديو.»

سأل سبارجو: «كان أبوكما يعمل هناك؟»

ردَّت: «كان يعمل في التجارة والتصدير يا سيد سبارجو. ليس ذلك بسِر. كان يُصدِّر كلَّ شيء إلى إنجلترا وفرنسا؛ جلودًا، وأصوافًا، وأملاحًا مجفَّفة، وفواكه. هكذا كوَّنَ ثروتَه.»

سأل سبارجو: «ولا تعرفان كم من الوقت أمضى هناك عندما وُلِدتما؟»

ردت: «لا.»

«هل كان متزوجًا عندما سافَر إلى هناك؟»

«كلا، نعلم ذلك، لقد أخبَرَنا بظروف زواجه لأنها كانت رومانسية. عندما أبحرَ من إنجلترا إلى بيونس أيرس التقى على متن السفينة البخارية بشابةٍ أحوالُها مُشابِهة لأحواله، بلا معارف ولا أصدقاء تقريبًا. كانت مسافرةً إلى الأرجنتين لتعمل مربيةً. ووقعت هي وأبي في الحب، ثم تزوَّجا في بيونس أيرس بعد وصول السفينة بقليل.»

«وأمُّكما متوفَّاة؟»

«ماتت أمي قبل أن نأتي إلى إنجلترا. كنت في الثامنة حينئذٍ، وكانت جيسي في السادسة.»

«ومتى رحلتم إلى إنجلترا بعد ذلك؟»

«بعدها بسنتَين.»

«أيْ إنكما أمضيتما في إنجلترا عشَرة أعوام. ولا تعرفان شيئًا على الإطلاق عن ماضي أبيكما غير ما أخبرتماني به، صحيح؟»

«لا شيء، لا شيء على الإطلاق.»

«ولم تسمعيه يتحدَّث عن ... اسمعي، وفقًا لروايتك، كان أبوكِ في الأربعين من عمره تقريبًا عندما رحل إلى الأرجنتين. ولا بدَّ أنه كان يعمل في مجالٍ ما في هذا البلد. ألم تسمَعيه قطُّ يتحدث عن صِباه؟ ألم يتحدَّث مطلقًا عن ماضيه أو أيِّ شيءٍ من هذا القبيل؟»

ردَّت إيفيلين: «لا أتذكَّر أني سمعتُ أبي يتحدَّث عن أي فترة تسبق زواجَه.»

وقالت جيسي: «سألتُه ذاتَ مرة عن طفولته. فأجابني بأن أيامه الأولى لم تكن سعيدة، وأنه حاوَلَ نسيانَها قَدْر استطاعته. فلم أُكرِّر السؤال.»

قال سبارجو: «هكذا إذن. لا تعرفان أيَّ شيء على الإطلاق عن أبيكما أو عائلتِه أو ثروتِه أو حياتِه غيرَ ما شهدتُماه بأنفسِكما عندما بلغتُما سنَّ التمييز. أهذا صحيح؟»

ردت إيفيلين: «هذا صحيحٌ تمامًا.»

قال سبارجو: «حسنًا، إذن. كما أخبرتُ أختَكِ منذ عدة أيام، سيقول العامة إن أباكِ يُخفِي سرًّا خطيرًا، وإن ماربري كان يَعلمه؛ لذا قرَّر أبوكِ قتْلَه لصون السر. ليس هذا رأيي أنا. فأنا متأكِّد أن أباكِ بريء تمامًا، بل متأكِّد أيضًا أنه لا يعلم شيئًا البتةَ عن مقتل ماربري، وأبذل كلَّ ما في وسعي لاكتشاف القاتل. وبالمناسبة، نظرًا إلى أنكما ستقرآن كلَّ

شيء في عدد صباح الغد من صحيفة «ووتشمان»، يجدر بي أن أُخبركما مَن كان ماربري في حقيقة الأمر، لقد كان ...»

وفي هذه اللحظة فُتِح باب سبارجو، ودخل رونالد بريتون. وهزَّ رأسَه عندما رأى الأختَين.

وقال: «توقَّعتُ أن أجدكما هنا. قالت جيسي إنها ستأتي للقائك يا سبارجو. لا أعرف كيف يُمكِنك المساعدة ... بل لا أعرف كيف يُمكِن للصحيفة الأمضى أثرًا في العالَم المساعَدة. يا إلهي! كل شيء في أسوأ حال. لقد جئتُ لتوِّي من عند السيد إيلمور، أمضيتُ أنا ومحاميه ستراتون ساعةً معه، السيد إيلمور أكثر عنادًا من أيِّ وقتٍ مضى، يرفض الإفصاحَ عن أي شيء أكثرَ مما قال. ماذا يُمكِنك أن تفعل يا سبارجو إذا كان هو يرفض الحديثَ عن معرفته الأكيدة بماربري؟»

قال سبارجو: «أوه، حسنًا. ربما يُمكِننا إعطاؤه بعضَ المعلومات عن ماربري. لقد نسي السيد إيلمور أنَّ فتح دفاتر الماضي ليس بالصعوبة التي يتصوَّرها. على سبيل المثال، كما كنتُ على وشك إخبار السيدتَين، لقد اكتشفتُ بنفسي مَن كان ماربري في الحقيقة.»

انتفض بريتون.

وقال متعجِّبًا: «حقًّا؟ دون شك؟»

«دون سببٍ منطقي للشك. لقد كان ماربري مُدانًا سابقًا.»

راقَب سبارجو تأثيرَ هذا الإعلان المفاجئ. لم تُبدِ الفتاتان أيَّ تعبيرٍ عن الاندهاش أو الفضول، بل تلقَّتا الخبر بلا اهتمام، كما لو كان سبارجو يخبرهما بأن ماربري كان موسيقيًّا شهيرًا. لكن رونالد بريتون انتفض، وتخيَّلَ سبارجو في عينَيه شعورًا بالارتياب.

قال متعجبًا: «ماربري ... مُدانٌ سابق! أتعني ما تقول؟»

قال سبارجو: «اقرأ عدد «ووتشمان» في الصباح. ستجد فيه القصةَ بالكامل ... سأكتبُها الليلةَ بعدما تُغادِرون. ستكون قراءتها ممتعة.»

فهمتْ إيفيلين وجيسي إيلمور تلميحَ سبارجو وانصرفتا، ورافَقهما سبارجو حتى الباب وأكَّد لهما مجددًا تأكُّدَه من براءةِ أبيهما وإصراره على البحث عن المجرم الحقيقي. نزل رونالد بريتون معهما إلى الشارع وأوقَفَ لهما سيارة أجرة، ولكن بعد دقيقة واحدة عاد إلى غرفة سبارجو، كما توقَّع سبارجو. وأغلق البابَ خلفَه برفق والتفتَ إلى سبارجو في حماس.

وسأل: «اسمع يا سبارجو، أصحيحٌ ما تقول؟ أعني هل كان ماربري مُدانًا سابقًا؟»

قال سبارجو: «هذا صحيح. ليس لديَّ شك في ذلك، بل أَثِقُ في ذلك كما أثق أني أراك الآن. لقد كان ماربري في واقع الأمر يحمل اسمَ جون ميتلاند، مدير مصرف من ماركت ميلكاستر، حُكِم عليه بالأشغال الشاقة لعشر سنوات عام ١٨٩١ بتهمة الاختلاس.»

قال بريتون: «١٨٩١؟ هذه تقريبًا نفس المدة التي يقول إيلمور إنه كان يعرفه خلالها!»

قال سبارجو: «بالضبط. وما يدهشني هو ...» وجلس سبارجو إلى مكتبه ودوَّنَ ملاحظةً سريعة ثم واصَل: «ما يدهشني هو ... أَلَم يقُلْ إيلمور إنه كان يعرف ماربري في لندن؟»

رد بريتون: «بالتأكيد. في لندن.»

فكَّر سبارجو ثم قال: «إمممم. هذا غريب! لأن ميتلاند لم يكن قد زار لندن حتى ذهب إلى دارتمور، بصرف النظر عما ربما يكون قد فعله بعدما خرج من دارتمور، وبالطبع، كان إيلمور قد ذهب إلى أمريكا الجنوبية قبل ذلك بكثير.» ثم رفع صوتَه وواصَل: «اسمع يا بريتون، هل يُمكِنك الحديثُ مع إيلمور؟ هل يُمكِنك مقابَلته قبل مثوله في باو ستريت غدًا؟»

أجاب بريتون: «نعم، يُمكِنني لقاؤه مع محاميه.»

قال سبارجو: «اسمع إذن، ستجد في عددِ صباح الغد من «ووتشمان» القصةَ الكاملة التي أُثبِت بها أن ماربري هو ميتلاند. اقرأها في أبكرِ وقتٍ ممكن، ورتِّبْ لمقابَلة إيلمور في أبكر وقت ممكن أيضًا، واجعله يقرَأْها بكل كلمة فيها قبل أن يُستدعى. وتوسَّلْ إليه أن يدَعَه من تحفُّظه السخيف إذا كان يُقِيم وزنًا لسلامته الشخصية وراحة بال ابنتَيه، وأن يُفصِح عن كل ما يعرفه عن ميتلاند منذ عشرين عامًا. هذا ما كان عليه فِعلُه من البداية. كنت أسألُ ابنتَيه بعض الأسئلة قبل أن تأتي ... إنهما لا تعرفان شيئًا البتة عن تاريخ أبيهما قبل أن تبلغا سنَّ التمييز! أَلَا ترى أن عمل إيلمور قبل عودته إلى إنجلترا، هو ماضٍ مجهول؟»

قال بريتون: «أعرف ذلك! نعم، على الرغم من أني تطرَّقتُ إلى هذا الموضوع كثيرًا، لم أسمع إيلمور يتحدَّث عن أيِّ شيء يسبق تَجارِبَه في الأرجنتين قط. ومع ذلك، لا بد أنه كان قد تقدَّم في العمر عندما ذهب إلى هناك.»

قال سبارجو: «كان في السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين على الأقل. إيلمور رجلٌ بارز في المجال العام بشكلٍ أو بآخَر، ولا يُمكِن لرجلٍ بارزٍ في المجال العامِّ أن يُبقِي حياتَه طيَّ الكتمان هذه الأيام. بالمناسبة، كيف تعرَّفتَ على آل إيلمور؟»

أجاب بريتون: «التقيتُ بهم أنا ومعلمي السيد إيلفيك في سويسرا. وبقينا على اتصالٍ بعد عودتنا.»

قال سبارجو: «ألم يزل السيد إيلفيك مهتمًّا بقضية ماربري؟»

رد بريتون: «بشدة. وكذلك العجوز كاردلستون الذي بدأ كلُّ شيء أسفل دَرَجِه. تناوَلتُ العشاء معهما الليلةَ الماضية واستحوذ الموضوع على معظم حديثهما.»

قال سبارجو: «وفرضيتهما هي …؟»

رد بريتون: «لا يزالان مقتنِعَين أنه قُتِل بدافع السرقة. العجوز كاردلستون حانقٌ لحدوثِ شيءٍ كهذا على بابه. يقول إنه ينبغي أن يُجرى تحقيقٌ دقيق في شأنِ كلِّ مستأجرٍ في تمبل.»

قال سبارجو: «هذا يستغرق وقتًا طويلًا. حسنًا، انطلِقْ أنت الآن يا بريتون، فعليَّ الكتابة.»

سأل بريتون وهو يتحرَّك نحو الباب: «هل ستكون في باو ستريت غدًا صباحًا؟ الموعد هو الساعة العاشرة وثلاثون دقيقة.»

رد سبارجو: «كلا، لن أذهب. لن يَزيد الأمرُ عن التأجيل، وأنا أعرف بالفعل كلَّ ما قد أسمعه هناك. لديَّ مهمةٌ أكثرُ إلحاحًا بكثير. لكنْ تذكَّرْ ما طلبتُه منك، اجعل إيلمور يقرأ القصةَ التي سأنشرها في «ووتشمان»، وتوسَّلْ إليه أن يتحدَّث ويُفصِحَ عن كلِّ ما يَعرف، كلِّه!»

وعندما انصرف بريتون، كان سبارجو يُواصِل التمتمة بالعبارة نفسِها: «كل ما يعرف … كله!»

الفصل الثالث والعشرون

الآنسة بيليس

قبل ظُهْر اليوم التالي، وجد سبارجو نفسَه في أحد ميادين بيزووتر المبهرجة المظهر، الكئيبة الجوهر، المخصَّصة بالكامل تقريبًا للتجارة والنداءات وأماكنِ السكن والطعام. هذه الميادين شديدة البهرجة، بمبانيها المتعددة الطوابق، وواجِهاتها المكسوَّة بالجص، ومداخلها ذات الأعمدة والشرفات، والريفيِّين الأبرياء الذين يأتون إليها من محطة بادنجتون القريبة، فيحسبونها مساكنَ الدوقات والإيرلات الذين لا يعيشون إلا في لندن بطبيعة الحال. وتؤيِّد اعتقادَهم رؤيتُهم المتكررة للشباب المرتدين ملابسَ المساءِ في مداخل الأبنية في مَظهرٍ يَتباينُ في درجة الأناقة. فيحسبهم الريفيُّون لوردات يستمتعون بتنسُّمِ هواءِ بيزووتر، لكنَّ الأشخاص الأكثر علمًا يعرفون أنَّ هؤلاء ما هم إلا نُدُل سويسريون أو ألمان ربما فاقوا غيرَهم في نظافة زيهم الرسمي.

خمَّن سبارجو الطابَعَ الغالب على النُّزُل الذي جاء لزيارته ما إن فُتِح له الباب. فاحت منه الروائح المألوفة للبيض واللحم المقدد، والسمك والبطاطس؛ ورأى المجموعةَ المتنوعة القديمة نفسَها من المعاطف الطويلة والأوشحة والعِصيِّ في منطقة الاستقبال؛ والعاملةَ ذات الهيئة المعتادة التي تُسرِع بإجابة قَرْع الجرس. ولما بدأ في طرح الأسئلة، جاءته الإجاباتُ من صاحبةِ النُّزُل ذاتِ الهيئة المألوفة أيضًا التي جاءت لمقابَلته، كانت ممَّن تخطَّين منتصف العمر اللاتي يُحاوِلْنَ — كالمعتاد أيضًا — أن يَظهرْنَ بسنٍّ أصغر، وفي سبيلها إلى ذلك استعانت بالشعر المستعار، وطاقم الأسنان، وبعض أحمر الشِّفاه، وبدَت منها اللفتاتُ والابتسامات التي لا تَعْني في مثلِ هذه الظروف إلا أنها تُسائِل نفسَها ما إذا كنتَ ستنجح في خداعها أم أنها ستكشف أمرَك.

قالت السيدة وهي تتفحَّص سبارجو بدقة: «تريد مقابَلَةَ الآنسة بيليس؟ إنها لا تُقابِل أحدًا كثيرًا.»

قال سبارجو بأدب: «أرجو ألَّا تكونَ الآنسة بيليس عليلة.»

ردَّت صاحبة النُّزل: «كلا، ليست كذلك، لكنها لم تَعُد صغيرة، وهي لا تحب الغرباء. هل يُمكِنني إخبارُها بما تريد؟»

قال سبارجو: «كلا. لكن يُمكِنكِ — إذا تفضَّلتِ — أن تُبلِغيها رسالةً مني. هلا تكرَّمتِ بإعطائها بطاقتي، وإخبارِها أني أودُّ أن أطرحَ عليها سؤالًا عن جون ميتلاند، المنتمي إلى ماركت ميلكاستر، وأني سأكون ممتنًّا بشدة إن منحَتْني دقائقَ قليلة.»

قالت صاحبة النُّزل: «لعلك تتفضَّل بالجلوس.» وقادتْ صاحبةُ النُّزل سبارجو إلى غرفةٍ مفتوحة على حديقةٍ تجلس بها سيدتان أو ثلاثٌ بدا أنهن نزيلاتٌ في هذا المكان. تركَتْه معهن يُسلي نفسَه بمراقَبتهن يَحِكْن أو يَخِطْن أو يقرَأْن الصحف، وتساءَلَ ما إذا كان هذا هو كلَّ ما يفعلْنَه كل يوم، وما إذا كنَّ سيُواصِلْن فعلَه حتى يأتيَ يومٌ يتوقَّفْن فيه عنه، وكان الضجر قد بدأ يتسلَّل إلى نفسه عندما فُتِح الباب ودخلت امرأةٌ لاحَظَ سبارجو بنظرةٍ واحدة لها أنها مخالِفة للمألوف. وبينما أخذت تمشي بخُطًى وئيدة من أحد طرفَي الغرفة إلى الآخَر الذي هو فيه، ثبَّت نظرَه عليها ليتفحَّصها.

وجد سبارجو مظهرَها لافتًا للغاية. فقد كان لها مظهرٌ أشبهُ بالذكور، طولها ستُّ أقدام، لمشيتها ووطْءِ قدمها طابَعٌ ذُكوري، رفيعة مفتولة العضلات كالرياضيين. جذب انتباهَ سبارجو في وجهها تبايُنٌ بين سوادِ عينَيها وبياض شعرها. التفَّ شعرُها في تجعداتٍ كثيرة ناصعةِ البياض تُحيط برأسها، وكان سوادُ عينَيها حالكًا كالفحم، وكذلك كان حاجِباها اللذان يعلوانهما. كانت ملامحُ وجهها حادةً صارمة، وفكُّها مربعًا يُوحي بالحزم. كان أول ما جال بخاطر سبارجو وهو يتفرَّس في مظهر الآنسة بيليس أنها فُطِرت وهيَّأتها الطبيعة لتكون حارسةَ سجن، أو مديرةَ مشفًى، أو مربيةً لفتاةٍ جامحة، وأخَذَ يتساءل إن كان سيتمكَّن من استخلاص أيِّ معلومات مفيدة من بين شفتَيها المُطبقتَين.

وأخذَت السيدة بيليس بدورها تتفحَّص سبارجو كما لو كانت مُوشِكةً على الأمر بإعدامه فورًا. كان سبارجو متهيِّبًا منها لدرجةٍ دفعَتْه للانحناء لها وعقدَتْ لسانَه.

قالت بصوت عميق بدا مناسبًا لمظهرها: «السيد سبارجو؟ مِن صحيفة «ووتشمان»؟ هل أردتَ الحديثَ معي؟»

انحنى السيد سبارجو من جديد في صمت. وأشارت إليه أن يتوجَّه إلى باب قريب.

وقالت: «افتح البابَ من فضلك. سنتمشَّى في الحديقة. فهذا المكان لا يوفر خصوصيةً كافية.»

أطاعها سبارجو فيما أمرت، فخرجَت من الباب المفتوح وتبعها هو. ولم تنبس بكلمةٍ بعد ذلك حتى وصلا إلى أبعدِ نقطةٍ في الحديقة.

عندئذٍ قالت: «أفهم أنك تريد أن تسألني عن جون ميتلاند، المنتمي إلى ماركت ميلكاستر، أهذا صحيح؟ لكن قبل أن تطرح سؤالَك، يجب أن أسألك أنا سؤالًا. هل ستنشر أيَّ إجابة أُقدِّمها لك؟»

رد سبارجو: «لن أنشر إلا بإذنك. لن أفكِّر في نشرِ أيِّ شيءٍ تقولينه لي إلا بعد إذنٍ مباشِر منك.»

نظرَت إليه في تجهُّم، وبدا أنها بدأت تثق في نواياه، ثم أومأَت برأسها.

وقالت: «في هذه الحالة، عَمَّ تريد أن تسأل؟»

رد سبارجو: «ظهَر لي في الآونة الأخيرة سببٌ دعاني للبحث في شأنِ جون ميتلاند. أظنُّكِ قرأتِ الصحف، وربما صحيفة «ووتشمان» أيضًا يا آنسة بيليس، صحيح؟»

لكن الآنسة بيليس هزت رأسَها نافيةً.

وقالت: «لا أقرأ الصحف. لا أهتم بشئون العالم. عملي يَشغَل كلَّ وقتي، أكرِّس نفسي له تمامًا.»

سأل سبارجو: «إذن فأنتِ لم تسمعي بما يُعرَف بقضية ماربري، التي تخص العثور على هذا الرجلِ مقتولًا؟»

أجابت: «لم أسمع بها. ليس من المحتمَل أن أسمع بهذه الأشياء.»

أدرك سبارجو فجأةً أن الصحافة ليس لها من القوة والانتشار ما يتصوَّره شبابُ الصحفيين، وأن هناك أناسًا يعيشون هانِئي البال دون الصحف، حتى في لندن. أخفى سبارجو اندهاشَه وواصَل حديثه.

قال: «الأمر أني أعتقد أن القتيل الذي تعرفه الشرطة باسم جون ماربري هو في الحقيقة صِهرُكِ جون ميتلاند. بل إني متأكِّد من ذلك تمامًا يا آنسة بيليس!»

أعلن ذلك بنبرةِ تأكيد، وراقَبَ وقْعَ النبأ على محدِّثتِه الصارمةِ ليرى تأثيرَه عليها. لكن الآنسة بيليس لم تُبدِ أيَّ انطباع.

قالت في برود: «أُصدِّقك في ذلك يا سيد سبارجو. لا يُفاجِئني أن تكون هذه نهاية جون ميتلاند. لقد كان رجلًا فاسدًا معدومَ المبادئ، وألحق العارَ بمَن شاء حظُّهم العاثر أن تكون لهم صلةٌ به. كان من المتوقَّع أن يَلْقى ميتة سيئة.»

قال سبارجو في نبرة مقنعة: «هل لي أن أسألك بعضَ الأسئلة عنه؟»

ردَّت: «يُمكِنك ذلك، ما دمتَ لن تنشر اسمي في الصحف. لكن، كيف علمتَ بعار مُصاهَرتي المؤسِفة لجون ميتلاند؟»

قال سبارجو: «اكتشفتُ ذلك في ماركت ميلكاستر. أخبرني المصوِّر كوبر بذلك.»

قالت: «حسنًا.»

قال سبارجو: «الأسئلة التي أريد طرْحَها عليك بسيطة جدًّا. لكن إجاباتك قد تُساعِدني كثيرًا. تتذكَّرين أن ميتلاند دخل السجن، صحيح؟»

ضحكت الآنسة بيليس في ازدراء.

وقالت: «وهل يُمكِنني أن أنسى ذلك ما حييت؟»

سأل سبارجو: «هل سبَقَ لكِ أن زُرتِه في السجن؟»

قالت في سخط: «أزوره في السجن! زيارات السجن لمن يستحقُّونها من التائبين، وليست للمجرمين المتمادين في جُرْمهم!»

قال سبارجو: «حسنًا. هل سبَقَ لكِ أن الْتَقيتِ به بعد مغادَرته السجن؟»

ردَّت: «نعم قابَلتُه، فقد فرض نفسَه عليَّ، ولم يسَعْني تجنُّبُه. جاء إليَّ قبل حتى أن أعرف أنه خرَج من السجن.»

سأل سبارجو: «لماذا جاء لمقابَلتك؟»

ردَّت: «جاء يطلب ابنَه الذي كان في رعايتي.»

قال سبارجو: «هذا من الأشياء التي أريد أن أسأل عنها. أتعرفين ماذا يقول الكثيرون في ماركت ميلكاستر حتى يومِنا هذا يا آنسة بيليس؟ يقولون إنكِ كنتِ ضالعةً في مخطَّط ميتلاند، وإن جزءًا كبيرًا من الأموال عُهِد إليكِ به، وإنه عندما دخل ميتلاند السجن، أخذتِ الطفلَ إلى برايتون أولًا ثم إلى خارج البلاد، واختفيتِ به، وإنك جهَّزتِ مسكنًا لميتلاند ليكون جاهزًا له عند إطلاق سراحه. هذا ما يقوله بعضُ الناس في ماركت ميلكاستر.»

زمَّت الآنسة بيليس شفَتَيها الحازمتَين.

وقالت في انفعال: «الناس في ماركت ميلكاستر! كلُّ مَن عرَفتُهم في ماركت ميلكاستر لا يَفُوق ذكاؤهم مجتمعين ذكاءَ تلك القطةِ التي تمشي على ذلك الحائط هناك. أمَّا عن تجهيز مسكنٍ لجون ميتلاند، فقد كنتُ أُفضِّل ترْكَه في الحضيض ليموت من العَوَز قبل أن أُلقِي له بكِسرةِ خبزٍ جافة!»

قال سبارجو في اندهاش من انفعالها: «يبدو أنكِ تمقتين ذلك الرجلَ بشدة.»

قالت: «كنتُ أمقته، ولم أزل. فقد خدع أختي لتتزوَّج به وهو يعرف أنها كانت تُفضِّل الزواجَ برجلٍ شريف كان يَهيم بحبها، وعامَلها بقسوة وجفاء بالِغَين، وسرق منها ومني الثروةَ البسيطة التي ورثناها عن أبينا.»

قال سبارجو: «حسنًا. إذن، تقولين إنه جاء إليكِ عندما خرج من السجن، ليطلب ابنه. فهل أخذه؟»

«كلا، فقد مات الفتى قبل ذلك.»

«مات؟ إذن لم يُطِل ميتلاند المكوثَ معك؟»

ضحكت الآنسة بيليس في ازدراء.

وقالت: «لقد طردتُه!»

سأل سبارجو: «هل أخبركِ بأنه كان سيُسافر إلى أستراليا؟»

أجابت: «لم أُنصِت لأي شيءٍ قاله لي يا سيد سبارجو.»

قال سبارجو: «إذن فأنتِ باختصار لم تسمعي عنه بعد ذلك الحين؟»

قالت في انفعال: «لم أسمع عنه بعد ذلك، وأتمنى أن يكون ما تقوله لي صحيحًا، وأن ماربري هو في الحقيقة ميتلاند!»

الفصل الرابع والعشرون

الأم جاتش

همَّ سبارجو بترك الآنسة بيليس والانصرافِ بعد أن فرَغ من طرح قائمة الأسئلة التي كان قد وضعها في طريقه إلى بيزووتر، لكنَّ فكرةً جديدة قفزت إلى عقله عندئذٍ، فاستدار وعاد إلى تلك السيدة المهيبة.

وقال لها: «لقد فكَّرتُ في شيءٍ آخَر لتوِّي. قلتُ لكِ إني متأكِّدٌ من أن ماربري هو ميتلاند، وإن نهايته كانت مؤسفة، وهي القتل.»

ردَّت في ازدراء: «وقلتُ أنا لكَ إن رأيي أنه يستحقُّ أسوأ نهاية.»

قال سبارجو: «صحيح تمامًا، أفهمك. لكني لم أقُل لكِ إنه لم يُقتَل فحسب، لكنه أيضًا تعرَّض للسرقة، سُرِق منه الكثير على الأرجح. وهناك سببٌ قوي للاعتقاد أنه كان يمتلك أوراقًا مالية ونقدية وماساتٍ وأشياءَ أخرى قيمتُها كبيرة. كان معه عدة آلاف من الجنيهات عندما ترك كولومبيدجي في نيو ساوث ويلز، التي عاش فيها في هدوءٍ عدةَ أعوام.»

ابتسمت الآنسة بيليس في مرارة.

وقالت: «وما شأني بهذا كله؟»

رد سبارجو: «لا شأنَ لكِ على الأرجح، لكن هذه الأموال والأوراق المالية ربما تُسترَد. ونظرًا إلى أن الفتى الذي تحدَّثتِ عنه قد مات، لا بد أن هناك مَن له حقٌّ في التركة. وهي تركة لا يُستهان بها يا آنسة بيليس، وهناك اعتقاد قوي لدى الشرطة أن هذه التركة ستظهر.»

كانت هذه خدعةً ذكية من سبارجو، أخذ بعدها يُراقِب وقْعَها بعينَين ثاقبتَين. لكن الآنسة بيليس ظلت على موقفها، وبدَت أكثرَ ازدراءً من ذي قبل.

قالت في انفعال: «أقول لك مجدَّدًا ما شأني بهذا كلِّه؟»

سأل سبارجو: «ألم يكن للفتى الميت أيُّ أقارب من عائلة أبيه؟ أعلم أنكِ خالته؛ ونظرًا إلى أنكِ لستِ مهتمةً على ما يبدو، يُمكِنني البحث عن شخصٍ من عائلة أبيه. هذه الأمور يَسهل التوصُّل إليها كما تعرفين.»

كانت الآنسة بيليس قد تحرَّكت في اتجاه المنزل على نحوٍ تبدو فيه الكآبة والجدية؛ إذ حاولَت بذلك أن تُبيِّن لسبارجو بجِلاء أن هذا الجزء من الحوار كان مُهينًا لها، لكنها توقَّفتْ فجأةً وحدَّقت في الصحفي الشاب.

وكرَّرَت كلامَه: «يَسهل التوصُّل إليها؟»

أحسَّ سبارجو — أو ربما تخيَّلَ فحسب — نبرةَ قلقٍ في صوتها. فأسرع يُحاوِل استكشافَ ما قد تقود إليه تلك النبرة.

قال لها: «نعم، سهلٌ جدًّا. يُمكِنني معرفةُ كل شيء عن عائلة ميتلاند من خلال ذلك الفتى. بسهولة كبيرة.»

كانت الآنسة بيليس واقفةً الآن وهي تحدِّق فيه. ثم سألته: «كيف؟»

قال سبارجو في ابتهاج: «سأُخبرك؛ لا شكَّ أن أسهلَ شيءٍ على الإطلاق هو معرفة كل شيء عن حياته القصيرة. أفترِضُ أنَّ باستطاعتي العثورَ على سجلِّ مولده في ماركت ميلكاستر، ويُمكِنكِ أنتِ بالتأكيد أن تُخبريني أين مات. بالمناسبة، متى مات يا آنسة بيليس؟»

لكن الآنسة بيليس كانت قد استأنفتْ سيرَها نحو المنزل.

وقالت غاضبةً: «لن أخبرك بشيءٍ آخَر. أخبرتُك بأكثرَ مما يلزمُ بالفعل، وأظنك لم تأتِ إلى هنا إلا لجمع بعض الأخبار لصحيفتك. لكني على أي حال سأخبرك بالآتي: عندما دخل ميتلاند السجن، لم يكن لطفله سَندٌ غيري؛ كان سيُودَع في إصلاحيةٍ للأحداث لولاي، لم يكن له أحدٌ في العالم سواي، لا من ناحيةِ أبيه ولا من ناحيةِ أمِّه. وحتى الآن في سِنِّي هذه، أُفضِّل التسوُّلَ في الشوارع للحصول على كِسرةِ خبزٍ أو الموت جوعًا، على أن ألمس بنسًا واحدًا مصدرُه جون ميتلاند. هذا ما لديَّ.»

بعد ذلك مضت الآنسة بيليس نحو الباب المفتوح واختفَت دون أن تنبس بكلمة أخرى، أو تُصاحِب سبارجو إلى طريق الخروج. ولم يعرف سبارجو طريقًا آخَر فهَمَّ بتتبُّعِها، لكنه سمع صوتَ حفيفٍ مفاجئ بجانب المنطقة الظليلة التي كانا يقفان عندها،

بعدها بلحظةٍ انطلق صوتٌ غريب مرعب فيه بحَّة تَشِي بالكثير، ونادى بصوت هامس لكنه واضح:

«أيها الشاب!»

التفت سبارجو وحدَّق في السِّياج الشجري من خلفه. كان السياج كثيفًا ويانعَ الخُضْرة، ولكنه تصوَّر أنه رأى شبحًا غيرَ محدَّد المعالم من ورائه. فسأل: «مَن هناك؟ هل يسمعني أحد؟»

انطلق صوتُ ضحكٍ مفاجئ من وراء السياج الشجري، ثم نطق الصوتُ المبحوح المتقطِّع مجددًا.

«أيها الشاب، لا تتحرَّك أو تلتفت بطريقةٍ تُظهِر أنك تتحدَّث إلى أي شخص. هل تعلم أين توجد حانة «كينج أوف ماداجاسكار» في هذا الجزء من البلدة؟»

رد سبارجو: «كلا! لا أعرفُها بالطبع.»

واصَل الشخص الخفي بصوته الغريب: «يُمكِن لأي شخصٍ إخبارُك عندما تخرج أيها الشاب. اذهب إلى هناك وانتظر عند الزاوية بجوار حانة كينج أوف ماداجاسكار، وسآتي إليك هناك بعد نصف الساعة. وعندئذٍ سأخبرك شيئًا أيها الشاب، سأخبرك شيئًا. الآن انصرِف أيها الشاب، اذهب إلى كينج أوف ماداجاسكار … سألحق بك!»

ختم صاحبُ الصوت حديثَه بضحكةٍ خفيضة مرعبة جعلت سبارجو يشعر بالغرابة. لكنه كان مُقبِلًا على المغامَرة لصِغَر سنِّه، فانطلق على الفور دون أن يُلقِيَ ولو نظرةً خاطفة على السياج الكثيف، وعبَر الحديقة ودخل المنزل وخرج من الباب. وعند أول منعطفٍ صادَفَه في الميدان وجد شرطيًّا فسأله عن مكانِ حانة كينج أوف ماداجاسكار.

أجاب الشرطيُّ باقتضاب: «انعطِفْ يمينًا أولًا، ثم يسارًا. لا يُمكِن أن تفوتك، إنها مَعلَمٌ بارز.»

وجد سبارجو ذلك المعْلَمَ البارزَ بسهولة، كانت حانةً ضخمةً ذات بناءٍ عريض، انتظر عند المنعطف يتساءل عما ينتظرُه، وثار فضوله بشدة حول صاحب الصوت الغريب الذي يَشِي بأمورٍ كثيرة لا عِلمَ له بها. وفجأةً جاءت إليه امرأةٌ عجوز وحدجَته بنظرةٍ غريبة جعلَته يُدرِك فظاعةَ التقدُّم في العمر.

لم يكن سبارجو قد رأى امرأةً متقدِّمة في العمر إلى هذا الحدِّ في حياته قط. كان في ملابسها وقارٌ وشيء من الأناقة. كان فستانها جيدًا، وقبعتها أنيقة، ومتعلقاتها الصغيرة

جيدة أيضًا. لكنَّ وجهَها كان قميئًا، وظهرَت عليه علاماتٌ لا يُخطِئها الناظرُ تدلُّ على طيلةِ مُعاقَرتها للخمر، وظلت عيناها العجوزان تجوسان وتحدِّقان، ولم يستثنِ التقدمُ في العمر شفتَيها، فتركهما في شكلٍ مرعب. شعر سبارجو بتقزُّزٍ كاد يصل إلى حدِّ الغثيان، لكنه أخفى مشاعرَه وركَّز اهتمامَه على الاستماع لما أرادت العجوز أن تُخبره به.

قال في بعض الحِدة: «حسنًا، ما الأمر؟»

ردَّت: «حسنًا، لندخل أيها الشاب، هناك مكانٌ هادئ يُمكِن لسيدة مثلي أن تجلس فيه لاحتساء شراب الجِن، سأريك إياه. وإذا أحسنتَ مُعامَلتي فسأخبرك بشيء عن تلك السيدة التي كنتَ تتحدَّث معها منذ قليل. لكنك ستُعطيني بعضَ النقود أيها الشاب، أليس كذلك؟ فالسيدات العجائز أمثالي لهنَّ الحقُّ في شراء بعض وسائل الراحة، كما تعلم.»

تبع سبارجو هذه السيدةَ الاستثنائية إلى داخل غرفة صغيرة، لم يُبدِ العامل الذي استجاب سريعًا لقرع الجرس اندهاشًا لرؤيتها، وبدا أنه يعرف طلبَها جيدًا، وهو نوعٌ محدَّد من مشروب الجِن، مُحلًّى ودافئ. راقَبَها سبارجو في فضولٍ وهي ترفع الحجابَ الذي كان يُخفِي القليلَ من وجهها العجوز المتغضِّن، ثم ترفع الكأسَ إلى فمها بحماس لم يكن دافِعُه العطشَ بقدر ما كان نهَمها المحض للخمر. ولم تلبث أن احتسَتْ تلك الرشفةَ الأولى حتى ظهرت في عينَيها لمعةٌ جديدة، وضحكت بصوتٍ زاد وضوحُه تدريجيًّا.

وقالت وهي تلكز سبارجو بكوعها لكزةً خفيفة جعلته يَتوقُ إلى تركها والهروب: «أوه، أيها الشاب! هذا ما أردت! فهو يُفيدني. وعندما أنتهي منه ستطلب لي واحدًا آخرَ وتدفع ثمنَه، وربما تطلب ثالثًا! ستفيدني هذه الكئوس. وستُعطيني بعضَ المال أيضًا، أليس كذلك أيها الشاب؟»

قال سبارجو: «ليس قبل أن أعرفَ ما سأدفع مقابله.»

قالت: «ستدفع لأني إذا علمتُ أني سأحصل على مقابل مناسب منك أو ممَّن أرسلك، فسأخبرك عن جين بيليس أكثرَ مما يُمكِن لأيِّ شخصٍ في العالم إخبارك به. لن أخبرك كلَّ شيء الآن أيها الشاب، فأنا متأكدةٌ أنك لا تحمل في جيبك ما أعتبره مقابلًا مناسبًا للسرِّ الذي لدي، لا يبدو على مظهرك ذلك! لكني فقط سأُبيِّن لك أني أعرف السر. اتفقنا؟»

سأل سبارجو: «مَن أنتِ؟»

رمقته السيدة بنظرة ثم ضحكت. وسألت: «ماذا ستُعطيني أيها الشاب؟»

دسَّ سبارجو أصابعه في جيبه وأخرج عملتَين من فئة نصف سوفرن.

وقال وهو يُريها العملتَين: «انظري، إذا قلتِ لي أيَّ شيء مهمٍّ يُمكِنك الحصول على هاتين. لكن دَعِي العبث. ولا تُهدِري الوقت. وإذا كان لديكِ ما يُمكِنكِ إخباري به فأفصِحي عنه!»

مدَّت المرأة يدَها المرتعشة الشبيهة بالمخلب.

وقالت في ضراعة: «لكن أعْطِني واحدةً من هاتين أيها الشاب. دَعْني أُمسِك بواحدة من هاتين القطعتَين الذهبيتَين الجميلتَين. سأخبرك بما تريد إذا تركتَني أمسك بواحدةٍ منهما. هات ... الآن أنت شابٌّ مهذَّب.»

أعطاها سبارجو إحدى العملتَين، وهيَّأ نفسَه لتقبُّلِ النتيجة مهما كانت.

وقال: «لن أعطيَكِ الأخرى حتى تقولي لي شيئًا. مَن أنتِ على أيِّ حال؟»

بدأت المرأة تُتمتم وتضحك وهي مُمسِكة بالعملة الذهبية، ثم ابتسمت ابتسامةً مخيفة.

وردت: «يدعونني الأم جاتش في النُّزُل الذي كنتَ فيه الآن، لكنَّ اسمي الفعلي هو السيدة سابينا جاتش، كنتُ شابةً جميلة يومًا ما. وعندما مات زوجي انتقلتُ لأعمل مدبِّرةً لمنزل جين بيليس، وعندما تركَتْ منزلَها وجاءت لتعيش في النُّزُل الذي نسكنه الآن، اضطُرَّت إلى اصطحابي معها والإبقاء عليَّ. أتعلم لماذا اضطُرت إلى ذلك أيها الشاب؟»

أجاب سبارجو: «الربُّ وحده يعلم!»

واصلَت الأم جاتش: «لأني أسيطر عليها أيها الشاب، أعرف سرًّا عنها. لو علمَتْ أني كنتُ خلف السياج الشجري وسمعتُ ما قالَتْه لك لَارتعدَت من الخوف. ولو علمَتْ أني قابَلتُك هنا وتحدَّثنا لزاد رعبها. لكنها بدأت تُعامِلني بغِلظة وترفض إعطائي ولو بنسًا لأحتسيَ أيَّ مشروب، وعجوز مثلي لها الحقُّ في الحصول على بعض وسائل الراحة، إذا أردتَ شراءَ السرِّ أيها الشاب، فسأُفصِح عنه فورَ أن تدفع المال.»

قال سبارجو: «قبل أن نتحدَّث عن شرائي لأيِّ سر، عليك أن تُثبِتي لي أن لديكِ سرًّا يستحق أن أشتريَه.»

احتدَّت الأم جاتش فجأةً وقالت: «سأثبت ذلك. اقرع الجرس واطلب لي كأسًا أخرى، وعندئذٍ سأُخبرك.» لاحَظ سبارجو أنها كلما شربت زادت تعقُّلًا وتماسَكَت أعصابُها وتحسَّنَ مَظهرُها كله. أخفضَت صوتها وواصَلت: «اسمع، أنت جئتَ إلى هنا لتجمعَ معلوماتٍ عن صِهرها ميتلاند الذي زُجَّ به في السجن، أليس كذلك؟»

قال سبارجو: «بلى.»

واصلت: «وعن ابنه أيضًا، أليس كذلك؟»

قال سبارجو: «لقد سمعتِ كلَّ ما دار بيننا. وأنا في انتظار سماع ما لديك.»

لكن الأم جاتش أصرَّت على أن تحكيَ القصةَ بطريقتها الخاصة. فواصَلتْ أسئلتَها: «وأخبرَتْك أن ميتلاند جاء يطلب الفتى، وأنها أخبرَته أن الفتى قد مات، أليس كذلك؟»

قال سبارجو في امتعاض: «بلى، فعلَتْ. ماذا إذن؟»

رشفَت الأم جاتش رشفةً من كأسها على مهلٍ وابتسمت ابتسامةَ مَن يعلم بواطنَ الأمور. وقالت: «تسألني ماذا إذن؟! كلُّ هذه أكاذيبُ أيها الشاب، الفتى لم يَمُت، هو حيٌّ مثلي بالضبط. وسرِّي هو ...»

قال سبارجو في نفاد صبر: «ماذا هو؟»

ردَّت الأم جاتش: «سري هو الآتي!» ولكَزَت سبارجو في ضلوعه، وقالت: «أعلم ما فعلَتْ به!»

الفصل الخامس والعشرون

كشف المستور

أولى سبارجو محدِّثتَه الوضيعة كلَّ انتباهه وطاقاته وغرائزه الصحفية. لم يكن قبل دخول حانة كينج أوف ماداجاسكار متأكدًا من أنه سيعرف منها أيَّ شيء مفيدٍ عن جريمة ميدل تمبل، وراوَحَه شكٌّ في أن شارِبة الجِن العجوز تخدعه لتحصلَ منه على المشروب والمال. أمَّا الآن بعد أن لاح له شبحُ معلومة مهمة أطلقَته مِن فِيها، فقد نسي كلَّ مساوئ الأم جاتش وعينَيها الخبيثتَين ووجهها المترَع بالخمر، ولم يَرَها إلا شخصًا قد يُخبره بشيء مهم. والتفت إليها في حماس.

وقال: «تقولين إن ابن جون ميتلاند لم يَمُت؟!»

ردت الأم جاتش: «الفتى لم يَمُت.»

سأل سبارجو: «وهل تعرفين أين هو؟»

هزت الأم جاتش رأسها نافيةً.

وقالت: «لم أقل إني أعلم أين هو أيها الشاب. قلت إني أعلم ماذا فعلَتْ به.»

قال سبارجو: «ماذا فعلتْ؟»

عدَّلَت الأم جاتش جلستَها في خُيَلاء شديدة، ورمقت سبارجو بنظرة استعلاء.

وقالت: «هذا هو السرُّ أيها الشاب. وأنا مستعِدة لبيعه لك، لكن ليس بعملتَين من فئة نصف سوفرن وكأسَين أو ثلاثٍ من شراب الجِن البارد. إذا كان ميتلاند قد ترك كلَّ هذه الأموال التي سمعتُك من وراء السياج الشجري تُخبِر جين بيليس عنها، فهذا يعني أن سري ثمين.»

تذكَّرَ سبارجو فجأةً خداعَه للآنسة بيليس. كان موقفه الحاليُّ نتيجةً غير متوقَّعة لذلك الخداع.

واصَلت الأم جاتش: «لا يُمكِن لأحد غيري مساعدتُك في تتبُّع أثر ابن ميتلاند؛ لذا أتوقَّع أن يُدفَع لي مقابلٌ مناسب. كلامي واضح أيها الشاب.»

فكَّر سبارجو في الموقف صامتًا لدقيقة أو اثنتين. هل يُعقَل أن تعرف هذه العجوز البائسة المُفرِطة في شرب الخمر سرًّا قد يُفضِي إلى كشف لغز جريمة ميدل تمبل؟ على أي حالٍ سيكون في صالح صحيفة «ووتشمان» أن يُميط قلمُ أحدِ رجالها اللثامَ عن كل شيء. وقد عُرِف عن صحيفة «ووتشمان» الإنفاقُ بسخاءٍ مفرط في أمورٍ مختلفة عديدة، وصبَّتِ المالَ صبًّا من قبلُ لتتمَّ لها أمورٌ أقلُّ شأنًا.

التفَت سبارجو إلى محدِّثته فجأةً وسأل: «كم تريدين مقابلَ السر؟»

أخذت الأم جاتش تحاوِل بَسْط ثَنْيةٍ في فستانها، فأثارت يقظتُها والهيئةُ الطبيعية التي بدَت عليها إعجابَ سبارجو، لم يَفهم أن أعصابها كانت مرتعشة وأن التوتُّر كان متملِّكًا منها في أول لقائهما، وأن تناوُلها لمشروبها الكحوليِّ المفضَّل بالكمية التي تكفيها هو ما هدَّأ أعصابها وأعاد لها الاتزان؛ كان في سريرة نفسه مندهشًا منها، واعتبرها أغربَ مَن صادَفَ من كبار السن، بل داخَلَه بعضُ الخوف منها وهو ينتظر قرارَها. وأخيرًا نطقَتِ الأم جاتش.

قالت: «حسنًا أيها الشاب، بعد أن فكَّرت في الأمر، وأدركتُ أنه من حقي أن أسعى لمصلحتي الشخصية، أعتقد أني أُفضِّل أن أحصل على راتب. راتب جيد يجلب لي الراحة، على أن يُدفَع أسبوعيًّا، وليس شهريًّا ولا كل ثلاثة أشهر، بل راتب يُدفَع بانتظامٍ ودقة صباحَ السبت من كل أسبوع. أو صباح الإثنين، حسبما يُناسِب أطراف الاتفاق، المهم أن يُدفَع بانتظامٍ ودقة. أعرف العديد من السيدات اللاتي يحصلن على رواتبَ في دوائري الشخصية، وأعرف أن الحصول على راتبٍ أسبوعي يُحقِّق راحةً كبيرة.»

خطر لسبارجو أن السيدة جاتش ستُنفِق راتبَها الأسبوعي بالكامل في يوم حصولها عليه، سواءٌ أكان السبت أم الإثنين، لكن ذلك لم يكن من شأنه على أي حال؛ لذا ركَّز على صُلب الموضوع.

وقال: «لكنك لم تقولي حتى الآن كم تريدين؟»

ردَّت الأم جاتش: «ثلاثة جنيهات كلَّ أسبوع. وهذا سعر منخفض!»

استغرق سبارجو في تفكير عميق لدقيقتَين، ربما يؤدي السرُّ إلى اكتشاف هام، مَن يعلم؟! ومن المرجَّح أن تقتل هذه العجوزُ البائسة نفسَها من فرط الشراب خلال عامٍ أو عامَين. على أي حال، بضع مئات من الجنيهات مبلغ تافه بالنسبة لصحيفة «ووتشمان».

نظر إلى ساعته سريعًا، وتذكَّر أن رئيس تحرير «ووتشمان» يكون في مكتبه ذلك الحين ويظل فيه لمدة ساعة. فهبَّ على قدمَيه متحفزًا يَقِظًا.

قال سبارجو: «هيا، سآخذك لمقابَلة رؤسائي. سنستقلُّ سيارة أجرة.»

ردَّت الأم جاتش: «بكل سرور أيها الشاب، لكن بعد أن تُعطيني عملةَ نصف السوفرن الأخرى. أما بالنسبة إلى رؤسائك، فأنا أُفضِّل دائمًا الحديثَ مع الرؤساء على الحديث مع الموظَّفين، مع كامل احترامي لك.» شعر سبارجو بأنه لا مفرَّ من المُضِي في الأمر، فأعطاها نصف السوفرن الآخَر، وطلب سيارة أجرة. لكن عندما وصلت السيارة اضطُرَّ سبارجو لانتظار السيدة جاتش ريثما تشرب الكأسَ الثالثة من شراب الجِن وتشتري قارورةً من المشروب نفسِه لتأخذها معها. وأخيرًا وصلا معًا إلى مكتب «ووتشمان» في الوقت المناسب، وهناك حدَّق فيها عاملُ الاستقبال والسُّعاة في انبهار، على الرغم من اعتيادهم رؤيةَ غريبي الهيئة والأطوار. قادها سبارجو إلى غرفته، وأغلق البابَ عليها، ثم طلب حضورَ الرئيس المهيب.

لم يكن لدى سبارجو أيُّ فكرةٍ عما قاله لرئيس التحرير والرئيس المتحكم في موارد صحيفة «ووتشمان» وكل واردةٍ وشاردة فيها. كان من حُسْن حظِّ سبارجو أن كِلَيْهما كان يتابع ملابسات وتطوُّرات جريمة ميدل تمبل عن كثب، ويرى فائدةً من وراء معرفة السر الذي حصل سبارجو على وعدٍ مشروط بكشفه. على أي حال، فقد صَحِبا سبارجو إلى غرفته عاقِدَي العزم على رؤيةِ السيدة التي كانت محتجَزة فيها والإنصاتِ لها ومُساوَمتها.

فاحتْ رائحةُ شراب الجِن غير المحلَّى بقوةٍ في غرفة سبارجو، لكن الأم جاتش كانت أكثرَ تيقُّظًا من أي وقتٍ سابق. وأصرَّت على أن يجريَ التعارُف بينها وبين مالِك الصحيفة ورئيس تحريرها على نحوٍ مناسِب ولائق، وعلى مناقَشة شروط الاتفاق معهما قبل الخوض في أي تفاصيل. كان رئيس التحرير مُصرًّا على مُماطَلتها إلى حينِ تقييمِ احتمال صدقها، أمَّا مالك الصحيفة، فبعد أن قيَّمَها بخبرته، أخذ رفيقَيه وانفرد بهما خارجَ الغرفة.

وقال: «سنستمع لما لدى العجوز وحسب شروطها. ربما كان لديها شيءٌ تُخبرنا به يفيد القضية فائدة كبيرة، بل لا بد أنها تعلم شيئًا. وكما يقول سبارجو أغلب الظن أنها ستقتل نفسَها من فرطِ الشراب بعد وقتٍ قصير، لنَعُد ونسمع قصتها.» فعادوا إلى جوِّ الغرفة المشبع برائحة شراب الجِن، وأُبرِزت وثيقةٌ رسمية بموجبها يلتزم مالك صحيفة «ووتشمان» بأن يدفع للسيدة جاتش مبلغًا قدْرُه ثلاثة جنيهات في الأسبوع (وأصرَّت السيدة جاتش على إضافة عبارة: صباحَ السبت من كل أسبوع، بانتظامٍ ودقة)، ثم طلب

من السيدة جاتش أن تحكيَ قصتَها. واستعدَّت السيدة جاتش لذلك، في حين استعدَّ سبارجو لتدوين القصة بكل كلمة فيها.

قالت السيدة جاتش: «هذه القصة — كما يُسمِّيها هذا الشاب — ليست طويلةً جدًّا ولا قصيرة جدًّا أيها السادة، لكنها دَسِمة. الأمر أنه عندما ثارت قضية ميتلاند في ماركت ميلكاستر، كنتُ مدبِّرةً لمنزل السيدة جين بيليس في برايتون. كان لديها نُزُل فندقيٌّ في كِمب تاون، بالقرب من شاطئ البحر، وقد طوَّرَته وأبقَتْ عليه في حالٍ جيدة، وادَّخرَت مبلغًا جيدًا، ونظرًا إلى أنها ورِثَت عن أبيها ثروةً بسيطة — شأنها شأن أختها السيدة ميتلاند، فقد كان أبوهما صاحِبَ حانةٍ هنا في لندن — فقد كانت تملك الكثيرَ من المال. وكل هذا المال كان تحت سيطرة ميتلاند، كل بنس فيه. أتذكَّر جيدًا يومَ وصلتْ أخبارُ سرقة ميتلاند نقودَ المصرف. جُنَّ جنون الآنسة بيليس عندما قرأَتِ الخبرَ في الصحيفة، وكانت في طريقها إلى ماركت ميلكاستر قبل أن تمضيَ ساعةٌ من قراءتها للخبر. رافَقتُها إلى المحطة، وقبل أن تستقلَّ القطارَ أخبرَتني أن ميتلاند كان يستحوذ على كلِّ ممتلكاتها ومدَّخَراتها، وكذا مدَّخرات أختها، زوجته، وأنها كانت تخشى أن يضيعَ كلُّ شيء.»

قال سبارجو دون أن يرفع رأسَه عن دفتر ملاحظاته: «كانت السيدة ميتلاند قد ماتت في ذلك الوقت.»

واصَلت السيدة جاتش: «هذا صحيح أيها الشاب، من حُسن حظِّها. على أي حال، انطلقت الآنسة بيليس، ولم أسمع عنها شيئًا أو أرَها بعد ذلك لمدة أسبوع، ثم عادت ومعها طفلٌ صغير، ابن ميتلاند. وأخبرَتني أنها خسرت كلَّ بنس كان معها، وأن أموال أختها التي كان من المفترَض أن تَئُول إلى الطفل ضاعت هي الأخرى، وقالت الكثير عن ميتلاند. ومع ذلك، فقد أولَتِ الطفلَ عنايةً فائقة، لم يكن غيرها ليعتنيَ به أكثرَ منها. بعد ذلك بوقتٍ قصير، وبعد أن حُكِم على ميتلاند بالسجن لعشر سنوات، تحدَّثتُ معها حول بعض الأمور، وقلت لها: «وما الفائدة من حبِّك الشديد لهذا الطفل والاعتناء به كما تفعلين الآن وتعليمه وكل ذلك؟» فقالت: «ولِمَ لا؟» فردَدْتُ عليها: «ليس ابنَك، لا حقَّ لك فيه، وبمجرد أن يُطلَق سراحُ أبيه سيأتي ليُطالِب به، وعندئذٍ لن تتمكَّني من منعه عنه.» وصدِّقوني فيما سأقول الآن أيها السادة، وهو أني لم أرَ مثلَ نظرتها على وجه أيِّ امرأة قطُّ عندما قلتُ لها ذلك. قامت وأقسمَت إن ميتلاند لن يرى ابنَه أو يلمسه أبدًا مهما كانت الظروف.»

توقَّفت السيدة جاتش لتأخذَ رشفةً من قارورتها، واعتذرَت عن اضطرارها إلى ذلك متعلِّلةً بحالة قلبها. ثم واصَلت على الفور والانتعاشُ بادٍ عليها.

«كانت فكرةُ انتزاعِ ميتلاند الطفلَ منها تُسيطر على عقلها أيها السادة، وكانت تتحدَّث معي في بعض الأحيان عن ذلك، وتقول الشيءَ نفسَه كلَّ مرة: إن ميتلاند لن يأخذَه أبدًا. وذاتَ يومٍ أخبرَتْني أنها ذاهبةٌ إلى لندن لتستشيرَ بعضَ المحامين في الأمر، وذهبَت بالفعل وعادت والرضا بادٍ عليها، وبعد ذلك بيومٍ أو يومَين، جاء رجلٌ بدا أنه محامٍ، وأمضى في المكان يومًا أو يومَين، وظل يتردَّد عليها، حتى جاءت إليَّ ذاتَ يوم وقالت: «أَلَا تعرفين ذلك الرجلَ الذي يتردَّد علينا كثيرًا في الآونة الأخيرة؟» فقلت: «كلا، إلا إذا كان يسعى وراءَك.» فقالت: «يسعى ورائي!» وهزت رأسها وواصَلَت: «إنه الرجل الذي كان سيتزوَّج أختي المسكينة لو لم يخدعها ميتلاند لتتخلَّى عنه!» فقلت: «أحقًّا تقولين؟! إذن كان من الممكن أن يكون أبا الطفل.» فقالت: «سيكون أباه بالفعل. سيأخذه ويُعلِّمه أفضلَ تعليمٍ ويجعله رجلًا مرموقًا إكرامًا لِذكرى أمه.» فقلت: «ليرحَمْنا الرب! وماذا سيقول ميتلاند عندما يأتي للمطالَبة به؟» فقالت: «ميتلاند لن يأتيَ للمطالَبة به؛ لأني سأغادر هذا المكان وسيختفي الطفل قبل ذلك. الترتيباتُ جاريةٌ لكل هذا، كي لا يعرف الطفلُ أبدًا عارَ أبيه ولا مَن كان.» واختفى الطفل فعلًا، لكن ميتلاند جاء قبل أن ترحل، وأخبرَته أن الطفل قد مات، ولم أرَ في حياتي رجلًا يُطعَن بهذا الشكل. ومع ذلك، لم يكن ذلك من شأني. كان هذا جزءًا كبيرًا من السر أيها السادة، أليست هذه المعلومات قيِّمة؟»

قال مالك الصحيفة: «جيدة جدًّا.» لكن سبارجو قاطَعهما قائلًا: «واصِلي الحديث.»

ثم سأل: «هل سمعتِ اسمَ الرجل الذي أخذ الطفلَ؟»

ردَّت السيدة جاتش: «نعم سمعتُه. بالطبع سمعتُه. كان اسمه إيلفيك.»

الفصل السادس والعشرون

الصمت يستمر

سقَط قلمُ سبارجو أمامَه على المكتب مُحدِثًا ضجيجًا حادًّا أفزع السيدة جاتش. فقد كان طول مُعاقَرتها للخمر قد أضعَفَ أعصابها، فحدجتْ سبارجو الذي أفزعها بنظرةِ غضبٍ عارم.

وصاحت بجِدَّة: «لا تفعل ذلك ثانيةً أيها الشاب. لا أتحمَّل أن يُفزِعَني أحدٌ هكذا، هذا سوءُ تهذيب. قلتُ إن اسم الرجل كان إيلفيك.»

رمَق سبارجو مالكَ الصحيفة ورئيسَ التحرير بنظرة سريعةٍ أشبهَ بالغمزة.

وقال: «حسنًا، إيلفيك. تقولين إنه يعمل في المحاماة يا سيدة جاتش؟»

قالت السيدة جاتش: «قلت إنه بدا كمحامٍ. ونظرًا إلى أنك تُصرُّ على التفاصيل أيها الشاب، بالرغم من أني لم أوجِّه كلامي لك بل لرئيسيك، فقد كان محاميًا بالفعل. من هؤلاء الذين يرتدون شعرًا مستعارًا وثوبًا، رأيتُ صورتَه في غرفة جين بيليس في النُّزُل الذي قابَلتَها فيه هذا الصباح.»

سأل سبارجو: «أمتقدِّمٌ في العمر هو؟»

قالت: «لا بد أنه متقدمٌ في العمر الآن، لكنه عندما أخذ الفتى كان في منتصف العمر. قرابةَ سنِّ هذا الرجل.» وأشارت إلى رئيس التحرير، فقطَّب لا إراديًّا في حين كتم المالك ضحكَه بصعوبة، وواصَلت: «ولا يختلف كثيرًا عنه أيضًا؛ إذ لم يكن على وجهه شعر.»

قال سبارجو: «حسنًا. وإلى أين أخَذ هذا السيد إيلفيك الطفلَ يا سيدة جاتش؟»

هزَّت السيدة جاتش رأسها.

وقالت: «ليستْ لديَّ أيُّ فكرة. لقد أخذه. وبعد ذلك جاء ميتلاند كما أخبرتُك، وأخبرَتْه جين بيليس أن الفتى قد مات. ولم تُخبرني قطُّ بأيِّ شيء عن الفتى بعد ذلك. بل أمسكَت لسانها. سألتها مرةً أو مرتَين لكنها كانت تردُّ قائلةً: «لا تنشغلي بذلك، ستكون حياته على

ما يُرام ولو عاش حتى أصبح طاعنًا في السن.» ولم تقُل غير ذلك، ولم أقُل أنا شيئًا بعد ذلك، ولكن ...» واصَلت السيدة جاتش، وكانت قارورتها قد فرَغت من الشراب، وراحت تمسح الدموعَ التي طفرت من عينَيها، قائلةً: «لقد أصبحتْ جين بيليس تُعامِلني بغِلظة، ولم توفِّر لي أسبابَ الراحة المستحَقَّة لسيدةٍ في عمري، وعندما سمعتها تتحدَّث معك هذا الصباح من خلف السياج الشجري، خاطَبتُ نفسي قائلةً: «هذا هو الوقت المناسب لأُغمِد سكِّيني في ظهرك سيدتي العزيزة.» وأرجو أن أكون قد فعلتُ ذلك.»

نظر سبارجو إلى رئيس التحرير ومالك الصحيفة، وأومأ برأسه إيماءةً خفيفة. كان يُلمِّح إليهما أنه حصل على كل ما أراد من الأم جاتش.

وسأل: «ماذا ستفعلين يا سيدة جاتش عندما تنصرفين من هنا؟ يُمكِننا الترتيبُ لتوصيلك إلى بيزووتر مباشَرةً إذا أردت.»

قالت السيدة جاتش: «سأكون ممتنَّةً لذلك أيها الشاب، وسأكون ممتنَّةً أيضًا إذا تسلَّمتُ أولَ راتب أسبوعي، وسآتي في الحادية عشرة تمامًا من صباح كل سبت، أو يُمكِنكم أن تُرسِلوا إليَّ المبلغَ بالبريد يومَ الجمعة، الخياران متاحان لكم أيها السادة. بعد أن يكون راتبُ الأسبوع الأول في كيس نقودي ويتم توصيلي إلى بيزووتر، سآخذ صناديقَ أمتعتي وأذهب إلى صديقة لي ستُرحِّب بي بحرارة، وأنسى أمرَ جين بيليس ومعيشتي معها.»

قال سبارجو ببعض القلق: «لكن يا سيدة جاتش، إذا عُدتِ إلى هناك الليلة، ينبغي أن تتوخَّي أشدَّ الحذر، وألَّا تُخبري الآنسة بيليس أنك كنتِ هنا وأخبرتِنا بهذا كلِّه.»

قامت السيدة جاتش في ترفُّع ورزانة.

وقالت: «أيها الشاب، نواياك طيبة، لكنك لستَ معتادًا على معامَلة النساء. يُمكِنني إمساكُ لساني عندما أريد مثلَ أيِّ شخصٍ آخر. ما كنتُ لأخبر جين بيليس بشئوني الخاصة، أعني الجديدَ منها، والفضلُ لكم في ذلك، لن أُخبرها ولو كان ذلك مقابلَ راتبَين في الأسبوع بدلًا من راتب واحد!»

قال رئيس التحرير: «اصطحِب السيدة جاتش إلى الأسفل يا سبارجو، وتأكَّدْ من تلبية كل احتياجاتها، وبعد ذلك تعالَ إلى مكتبي.» وواصَل مخاطبًا السيدة جاتش: «لا تنسَي يا سيدة جاتش، أمسِكي لسانك، لا تتحدَّثي مع أحد، وإلا فلن تحصلي على الراتب الأسبوعي صباحَ كل سبت.»

اصطحب سبارجو الأمَّ جاتش إلى قسم الخِزانة وتأكَّد من دفع راتبِ الأسبوع الأول لها، واستدعى لها سيارةَ أجرة، ودفع الأجرةَ وودَّعها، ثم توجَّه إلى مكتب رئيس التحرير مستغرقًا في التفكير. كان رئيس التحرير ومالك الصحيفة يتحدَّثان، وعندما دخل سبارجو قطعا حديثَهما ونظرا إليه في حماس. قال سبارجو في هدوء: «أعتقد أننا نجحنا.»

سأل رئيس التحرير: «ماذا اكتشفنا بالتحديد؟»

رد سبارجو: «أكثر مما توقَّعتُ بكثير، لقد اتضحَت الأمور كثيرًا. إذا تأمَّلتَ الملابَسات المعروفة سلفًا، فستتذكَّر أن الشيء الوحيد الذي عُثِر عليه مع جثة ماربري كان قصاصةَ ورقٍ رماديةً عليها اسم وعنوان: رونالد بريتون، كينجز بنش ووك.»

قال رئيس التحرير: «وماذا إذن؟»

واصَل سبارجو: «بريتون محامٍ شاب. ويكتب في بعض الأحيان ... لقد قبلتُ مقالَين أو ثلاثة كتبَها لصفحة الأدب في الصحيفة.»

قال رئيس التحرير: «حسنًا؟»

واصَل سبارجو: «وهو خاطِب الآنسة إيلمور، أكبر كريمات إيلمور، عضو البرلمان الذي وُجِّهت إليه في باو ستريت اليومَ تهمةُ قتل ماربري.»

قال رئيس التحرير: «أعرف. حسنًا، ما معنى ذلك يا سبارجو؟»

رد سبارجو في جِدية شديدة: «الأمر الأهم — مع افتراضِ صحةِ رواية هذه المرأة العجوز، وهذا رأيي الشخصي — هو أن بريتون (مع العلم بأني التقيتُ به كثيرًا) قال لي بنفسه إنه نشأ في كنفِ وَصِي. وهذا الوَصِيُّ هو السيد سبتيماس إيلفيك، المحامي.»

تبادَل مالِكُ الصحيفة ورئيسُ التحرير النظرات. وارتسم على وجهَيهما تعبيرٌ يَشِي بتطابُق الفكرة التي تكوَّنتْ لديهما والنتيجةِ التي توصَّلا إليها. والْتَفتَ المالك إلى سبارجو مستفهمًا في جدية: «تعتقد إذن أن ...»

أومأ سبارجو بالإيجاب.

وقال: «أعتقد أن السيد سبتيماس إيلفيك هو إيلفيك المقصود، وأن بريتون هو ابن ميتلاند الذي تحدَّثتْ عنه السيدة جاتش.»

قام رئيس التحرير، ودسَّ يدَيه في جيبَيه، وطفق يذرع الغرفةَ ذَهابًا وإيابًا.

وقال: «إذا كان هذا صحيحًا، فإنه يَزيد من تعقيد اللغز. ماذا تقترح أن نفعل يا سبارجو؟»

قال سبارجو ببطء: «أعتقد أني أودُّ مقابَلةَ الشاب بريتون دون أن أُخبره بأي شيءٍ مما علمنا، وأن أجعله يعرِّفني بالسيد إيلفيك. يُمكِنني اختلاقُ عُذرٍ مُقنِع لإجراءِ حوارٍ معه. إذا تركتم الأمرَ لي.»

لوَّح مالكُ الصحيفة بيده وقال: «نعم، نعم! اترك الأمرَ كلَّه في يد سبارجو.»

قال رئيس التحرير: «أطلِعْني على المستجدَّات بانتظام. افعل ما تراه مناسبًا. يبدو لي أنك على المسار الصحيح.»

تركَهما سبارجو، وبينما هو في طريق العودة إلى غرفته ولم تزَل شخصيةُ السيدة جاتش عالقةً في ذهنه، صادَف الصحفيَّ الذي كان في باو ستريت عندما استُدعِي إيلمور ذلك الصباح. لم يكن هناك جديد، طلبتِ السلطاتُ تأجيلًا آخَرَ فحسب. وإلى ذلك الحين لم يُفصِح إيلمور عن جديد لأي شخص، حسَبما أفاد الصحفي.

توجَّه سبارجو إلى تمبل وقصَد مكتب رونالد بريتون. فوجَد المحاميَ الشاب يهمُّ بالمغادَرة، وعلى وجهه وجومٌ وتفكير يَفُوقان المعتاد. ولما رأى سبارجو الْتَفتَ عائدًا من الباب الخارجي، ونادى الصحفيَّ طالبًا منه أن يتبعه، وقاده إلى الغرفة الداخلية.

وقال وهو يدعو زائرَه للجلوس: «اسمع يا سبارجو. لقد أخذَتِ الأمورُ منعطَفًا بالغ الجِدِّية. أتعلم ما طلبتَ مني أمسِ أن أفعله بشأن إيلمور؟»

قال سبارجو: «نعم ... طلبتُ منك أن تجعله يُفصِح عن كل ما لديه.»

هز بريتون رأسه.

وقال: «قابَلته أنا ومحاميه ستراتون هذا الصباحَ قبل بدء إجراءات الشرطة والمحكمة. وأخبرته عن حديثي معك، حتى إنني أخبرته أن ابنتَيه زارتا مكتبَ صحيفة «ووتشمان». وتوسَّلتُ أنا وستراتون إليه أن يستمِع لنصيحتك ويُفصِح عن كل شيء ... كل شيء ... مهما كان وَقْعُ ذلك على مشاعره. وأوضحنا له خطورةَ الأدلة التي تُدِينه، وكيف أنه جنى على نفسه بعدم الإفصاح عن الحقيقة الكاملة من البداية، وأنه وضَع نفسَه موضعَ الاشتباه، وأن أغلب الظن أن أيَّ هيئة محلَّفين ستُدينه وفقًا للأدلة الحاليَّة. لكن كل ذلك لم يُجدِ نفعًا يا سبارجو.»

قال سبارجو: «أيرفض الإفصاحَ عن أي شيء؟»

رد بريتون: «يرفض الإفصاحَ عن أي جديد. كان مُصِرًّا. ظل يُردِّد: «لقد أفصحتُ عن الحقيقة الكاملة عما فعلتُ مع ماربري ليلةَ وفاته في الاستجواب، ولن أقول أيَّ شيء آخَر مهما حدث. إذا شاءت إرادةُ القانون أن يُشنَق رجلٌ بريء بِناءً على الأدلة الحاليَّة، فَلْيكن ذلك!» وظل على هذه النَّغْمة حتى تركناه. لا أعلم ما العمل الآن يا سبارجو.»

سأل سبارجو: «وماذا حدث في المحكمة؟»

قال بريتون: «لا شيء ... تأجيل آخَر. أنا وستراتون قابَلْنا إيلمور مرةً أخرى قبل أن ينقلوه. وقد تركَنا وهو يقول متهكمًا: «إذا كنتم جميعًا تودُّون إثباتَ براءتي، فابحثوا عن المذنب الحقيقي».»

قال سبارجو: «هذا منطقيٌّ للغاية.»

قال بريتون: «بالطبع، لكن كيف، كيف يُمكِننا أن نفعل ذلك؟ هل أحرزتَ أنت أو راثبري أيَّ تقدُّم نحو حلِّ اللغز؟ هل هناك أيُّ دليلٍ يُلقِي بالجُرْم على أي شخصٍ آخَر؟»

لم يُجِب سبارجو عن هذه الأسئلة. وظل صامتًا لبُرْهة وبدا عليه التفكير.

ثم سأل فجأة: «هل حضر راثبري جلسةَ المحاكمة؟»

رد بريتون: «نعم، حضَرها. كان هناك هو ورجلان أو ثلاثة أظنُّهم محقِّقين، وبدا شديدَ الاهتمام بإيلمور.»

قال سبارجو: «إذا لم ألتقِ براثبري الليلةَ فسأقابله في الصباح.» ونهض يهمُّ بالمغادَرة، لكنه تباطَأ لحظة، ثم جلس مجدَّدًا. وقال: «اسمع، لا أعرف كيف يبدو الأمر في نظر القانون، لكن ألن تكون حُجةُ ممثِّل الادِّعاء ضد إيلمور ضعيفةً للغاية إذا لم يَثبت أن إيلمور كان لديه دافعٌ ما لقتل ماربري؟»

ابتسم بريتون.

وقال: «لا حاجةَ إلى إثبات الدافع في جرائم القتل. لكن اسمع يا سبارجو، إذا أثبت الادِّعاءُ أن إيلمور كان لديه دافعٌ للتخلُّص من ماربري، إذا أثبتوا أن إيلمور كانت له مصلحةٌ في إسكاته، فلا أظن أنَّ فرصةَ نجاته ستظلُّ قائمة.»

قال سبارجو: «أفهم ذلك. لكن لا وجودَ للدافع حتى الآن، لم يُطرَح أيُّ سبب قد يدعو إيلمور لقتل ماربري.»

قال بريتون: «لا دافع، في حدود علمي.»

نهض سبارجو وتوجَّه نحو الباب.

وقال: «حسنًا، سأنصرف إذن.» ثم التفت كمَن تذكَّر شيئًا ما فجأةً. وقال: «بالمناسبة، أليس السيدُ إيلفيك وَصِيُّك مَرجعًا بارزًا فيما يتعلَّق بجمع الطوابع؟»

رد بريتون: «أحد أبرز المراجع في هذا المجال. ومن أكبرِ المتحمِّسين له.»

سأل سبارجو: «أتعتقد أنَّ بإمكانه إخباري ببعض المعلومات عن تلك الطوابع الأسترالية التي عرَضها ماربري على التاجر كريديه؟»

قال بريتون: «بكل تأكيد، سيُسَرُّ بذلك، هاك.» وكتب بريتون بعضَ الكلمات على بطاقة، وواصَل: «إليك عُنوانه وتوصيةً مني له. سأخبرك بالوقت الذي يكون فيه دائمًا في بيته، الساعة التاسعة، بعد أن يتناول العشاء، يكون هناك خمس ليالٍ من ليالي الأسبوع السبع. لولا اضطراري إلى زيارة منزل آل إيلمور، لَذهبتُ معك الليلة. فالفتاتان في كربٍ شديد.»

قال سبارجو وهما يخرجان معًا: «احمِل لهما رسالةً مني. اطلب منهما التحلِّيَ بالشجاعة ورباطة الجأش.»

الفصل السابع والعشرون

مكتب السيد إيلفيك

توجَّه سبارجو إلى تمبل مجددًا في التاسعة من تلك الليلة، وكان هناك سؤالان يُلِحان على عقله طوالَ الطريق، أولهما: ما قدْرُ ما يعرفه إيلفيك؟ وثانيهما: بأي قدرٍ من المعلومات عليَّ أن أبوح له؟

كان المنزل القائم في تمبل الذي كان سبارجو يقصده منزلًا قديمًا عاشت فيه أجيالٌ عديدة من كبار السن منذ عهد الملكة آن، وكثر فيه الدَّرَج والممرات، ونظرًا إلى أن سبارجو نسي أن يأخذ رقمَ المكتب المقصود بالتحديد، اضطر إلى التجوال في المبنى الذي كان مهجورًا. وبينما هو يتجوَّل على غير هدًى سمع فجأةً وقْعَ خطوات حازمة وثابتة تصعد دَرَجًا كان قد صعده هو للتو. نظر من فوق الدرابزين إلى الفراغ في الأسفل. فوجد امرأةً محتجبة طويلةَ القامة تصعد الدَّرَج بلا تردُّد، فاضطربتْ ضرباتُ قلب سبارجو فجأةً؛ إذ أدرك أنه الآن وللمرة الثانية في ذلك اليوم برفقةِ الآنسة بيليس تحت سقفٍ واحد.

فكَّر سبارجو بسرعة. فبعد أن علم ما علم من السيدة جاتش، لم يكن لديه أيُّ شك في أن الآنسة بيليس جاءت للقاء السيد إيلفيك، لتُخبره أنه — أيْ سبارجو — جاء لزيارتها صباحَ اليوم وأنه كان في طريقه لاكتشاف تاريخ ميتلاند السري. لم يخطر ذلك بباله من قبلُ، فقد كان منهمكًا منذ مغادَرة السيدة جاتش، لكنه من المتوقَّع أن تظلَّ الآنسة بيليس على اتصال بالسيد إيلفيك. على أي حال، ها هي الآن، ولا شكَّ أنها تقصد مكتبَ السيد إيلفيك. والسؤال الذي ألَحَّ على سبارجو الآن هو: ما العمل؟

لزم سبارجو الصمتَ التام، وتسمَّرَ في مكانه على الدَّرَج بلا حَراك في حين أكَلَ التوترُ قلبَه، وقرَّر أن يترك للصدفة ألَّا تنظرَ تلك المرأة إلى الأعلى. وبالفعل لم تنظر الآنسة بيليس إلى الأعلى ولا إلى الأسفل؛ وصلتْ إلى أعلى عدة درجات متراصَّة واستدارتْ ومضَت

في طريقها في أحد الممرَّات لا تلوي على شيء. وبعد ذلك بلحظةٍ سمع سبارجو طرقتَين حادَّتين على أحد الأبواب، ثم سمع صوتَ الباب ينغلقُ بعنف، وأدرك أن الآنسة بيليس استأذنت لدخولِ مكانٍ ما، ودخلته.

ولكي يعرف سبارجو ذلك المكانَ بالتحديد نزل إلى الممر الذي كانت الآنسة بيليس فيه لتوِّها. لم يجد أحدًا في الجوار، وفي الحقيقة لم يَرَ سبارجو أحدًا منذ دخل المبنى. سار في الممر الذي رأى الآنسة بيليس فيه. كان يعلم أن كلَّ أبواب المبنى كانت مزدوجة، وأن الطبقة الخارجية للباب المصنوعة من البلُّوط كانت مُصمَتةً وسميكةً بما يكفي لتمنع نفاذَ الصوت. لكنه — كما يفعل الرجال في مثل هذه الظروف — ترفَّق في مشيه، وقال في نفسه، مبتسمًا من الفكرة، إنه بالتأكيد سيَجفُل إنْ فتَحَ أحدٌ أيَّ باب. بيْدَ أن ذلك لم يحدث، ووصل في النهاية إلى آخِرِ الممر فوجد نفسَه أمام لوح أسود مكتوبٍ عليه باللون الأبيض: مكتب السيد إيلفيك.

بعد أن اطمأنَّ سبارجو بوصوله إلى المكان المقصود بالتحديد، عاد أدراجَه بالهدوء نفسِه. كانت في منتصف الممر نافذةٌ لمحها وهو قادمٌ تُطِل على الجسر ونهر التيمز؛ فتراجَعَ إليها واتَّكأ على إفريزها وأطلَّ منها مستغرقًا في التفكير. هل يَمضي قُدمًا ويُواجه هذَين المتآمِرَين إن سُمِح له بالدخول؟ أم ينتظر خروجَ المرأة ويسمح لها برؤيته وهو يتقدَّم في مسارِ كشفِ المستور؟ أم يختبئ حتى تنصرف ثم يقابل إيلفيك وحده؟

وفي النهاية لم يفعل سبارجو أيًّا من هذه الأشياء على الفور. بل ترك الأمورَ تَمضي كما قُدِّر لها للحظة. وأشعل سيجارة وحدَّق في النهر والأشرعة البنِّية التي تعلو صفحتَه، والمباني المصطفَّة على ضفتِه من ناحية سري. مرت عشر دقائق، ثم عشرون، ولم يحدث شيء. ولما دقَّت كل الساعات القريبة مُعلِنةً التاسعةَ والنصف، ألقى سبارجو بسيجارته الثانية، وسار في الممر بلا تردُّد وطرق بابَ السيد إيلفيك بجسارة.

فُوجِئ سبارجو عندما فُتِح الباب قبل أن يُضطرَّ إلى طرقِه مرةً ثانية. ووجد سبارجو السيدَ إيلفيك يقف أمامَه في هدوء، وتعلو وجهَه الهادئ نظرةُ تَرْحاب لا تخلو من انزعاجٍ بادٍ وراء نظَّارته. يعتمر قبعةً لمنع تشبُّعِ شعره بدخان التبغ، ويرتدي سُترةً فوق قميصه الرسمي لكيلا يَعْلَق الدُّخَانُ بملابسه، ويُمسِك بغليون صغير.

فُوجِئ سبارجو، بينما لم يفعل السيد إيلفيك. فقد فتح البابَ على اتساعه وأشار إلى الصحفيِّ يدعوه للدخول.

قال السيد إيلفيك: «تفضَّل يا سيد سبارجو. كنتُ أتوقَّع زيارتك. تفضَّل إلى غرفة الجلوس.»

مر سبارجو في طريقه إلى غرفة الجلوس بغرفةِ انتظارٍ مندهشًا من الاستقبال الذي تلقَّاه، ثم وصل إلى غرفةٍ ذاتِ أثاثٍ جميل مليئة بالكتب والصور. وبالرغم من عدم مرور وقتٍ طويل منذ انتصاف الصيف كانت في المدفأة نارٌ مشتعلة، وكان في الغرفة كرسيٌّ فسيح ذو ذِراعَين، توجد بالقرب منه طاولة عليها قنينةُ خمرٍ وكأسٌ ورِواية. استنتج سبارجو من هذه الأغراض أن السيد إيلفيك كان يأخذ قسطًا من الراحة بعد عَشائه. غير أن كرسيًّا آخرَ ذا ذراعَين على الجانب الآخَر من المدفأة كان يحمل الآنسةَ بيليس بهيئتها الباعثة على الذعر، وقد بدَت أكثرَ كآبةً وغموضًا من ذي قبل. لم تَصدُر عنها حركةٌ ولا كلمة مُذْ دخل سبارجو، بل إنها حتى لم تُوجِّه نظرَها نحوه. وقف سبارجو يُحدِّق فيها حتى لمس السيدُ إيلفيك كوعَه بعد أن غلَّق الأبواب، وأومأ إليه أن يجلس.

قال السيد إيلفيك وهو يعود إلى كرسيه: «بالفعل كنت أتوقَّع حضورك يا سيد سبارجو. كنت أتوقَّع حضورك في أي وقتٍ منذ بدأتَ تحقيقَك في قضية ماربري، وبالتحديد في بعض المراحل المبكرة التي قابَلتَني فيها، في ثلاجة الموتى مثلًا لو كنتَ تتذكَّر. لكن نظرًا إلى أن الآنسة بيليس أخبرَتني منذ عشرين دقيقة أنك زُرتها هذا الصباح، فقد كنتُ متأكدًا أنك ستزورني بعد ساعات قليلة.»

قال سبارجو بعد أن استعاد تمالُكَ أعصابه: «ولماذا كنتَ تتوقَّع أني سآتي لزيارتك يا سيد إيلفيك؟»

رد السيد إيلفيك: «لأني كنتُ متأكدًا أنك لن تتركَ صغيرةً ولا كبيرةً دون أن تبحث في شأنها. ففضولُ صحفيِّي هذا العصر لا حدَّ له.»

اعتدل سبارجو في جلسته.

وقال: «ليس الأمر فضولًا يا سيد إيلفيك. بل كلَّفَتْني صحيفتي بالتحرِّي عن ظروف موت الرجل الذي عُثِر عليه في ميدل تمبل، والتوصُّل إلى قاتِله إن أمكن، و…»

ضحك السيد إيلفيك بخفة ولوح بيده.

وقال: «أيها الشاب المهذَّب! أنت تُبالِغ في تقدير أهمية دورك. أمَّا أنا فلا أؤيد الصحافةَ الحديثة وطُرقَها. ففي قضيتك هذه مثلًا لديك فكرةٌ سخيفة بأن المدعوَّ جون ماربري كان في حقيقة الأمر جون ميتلاند الذي كان أحدَ أبناءِ ماركت ميلكاستر يومًا ما، وحاوَلتَ إثارةَ ذعرِ الآنسة بيليس لكي …»

هبَّ سبارجو قائمًا من كرسيه فجأة. فقد كانت أعصابُه سريعةَ الاشتعال، ما إن تَطُلْها شرارةٌ حتى تنفجر مستعصيةً على السيطرة، وها قد طالتها الشرارة. فقام ونظر إلى وجه المحامي العجوز بجُرأة.

وقال: «سيد إيلفيك، لا بد أنك لا تعلم كلَّ ما أعلم. لذا سأُخبرك بما سأفعل. سأعود إلى مكتبي وأدوِّن ما أعلمه بالفعل، وسأُضمِّن فيما سأكتب دلائلَ لا يَرقى إليها الشكُّ على ما أعلم، وإذا استقطعتَ بعضًا من وقتك لقراءة عدد الصباح من «ووتشمان» غدًا، فستعلم أنت أيضًا ما أعلم.»

قال السيد إيلفيك في سخرية: «يا إلهي! يا إلهي. لقد اعتدنا على القصص الصحفية المفرطة في الإثارة من صحيفة «ووتشمان»، لكني عجوز فضولي محبٌّ للاستطلاع أيها الشاب؛ لذا فَلْتُخبرني بما تعلم في عُجالة، أيُمكِنك ذلك؟»

فكَّرَ سبارجو لبُرْهة. ثم تقدَّم بجذعه من فوق الطاولة ونظر إلى وجه المحامي العجوز.

وقال في هدوء: «نعم. سأخبرك بما أعلمه عينَ اليقين. أعلم أن الرجل الذي قُتِل المعروف باسم جون ماربري هو بلا شك جون ميتلاند ابن بلدة ماركت ميلكاستر، وأن رونالد بريتون هو ابنُه الذي أخذتَه أنت من هذه المرأة!»

كان وقْعُ هذه الكلمات على السيد إيلفيك كافيًا تمامًا لردِّ اعتبار سبارجو بعد استخفافِ السيد إيلفيك بما لديه من معلومات. فقد تغيَّرَت ملامحُ السيد إيلفيك تمامًا، واختفَت من وجهه نظرةُ الازدراء والاستهانة لتحلَّ محلَّها نظرةُ رعبٍ شديد، وسقط غليونه، وتراجَعَ بجسمه في كرسيِّه ليستجمع شَتاتَ نفسِه، واستند إلى ذراعَي الكرسي، وحدَّق في سبارجو كما لو كان سبارجو قد أعلن له فجأةً أن حكم الإعدام الفوري سيُنفَّذ فيه بعد دقيقة. ولما لاحَظ سبارجو مفعولَ الصدمةِ الأولى هذا، أتبعها بالثانية.

«هذا ما أعلم يا سيد إيلفيك، وقد يعلمه العالَم كلُّه صباحَ الغد إذا قررتُ ذلك! رونالد بريتون هو ابنُ القتيل، وخاطِبُ ابنةِ المتهم بقتله. أتسمع ذلك؟ ليس الأمرُ مجردَ اشتباه أو فكرة أو حَدْس، بل حقيقة، حقيقة راسخة!»

التفت السيد إيلفيك ببطءٍ نحوَ الآنسة بيليس. وتلفَّظَ ببضع كلمات بين أنفاسه المتقطعة.

«لم ... تُخبريني ... بذلك!»

التفت سبارجو إلى المرأة، فلاحَظ انسحابَ الدمِ من وجهها هي الأخرى من الرعب.

تمتمَت قائلة: «أنا لم ... لم أكن أعلم ذلك. لم يُخبرني. لم يُخبرني هذا الصباحَ إلا بما أخبرتُكَ به.»

التقط سبارجو قبعتَه.

وقال: «طابَت ليلتُك يا سيد إيلفيك.»

وقبل أن يبلغ البابَ كان المحامي العجوزُ قد نهض عن كرسيِّه وأمسك به بيدَين مرتعشتَين. فالتفتَ سبارجو ونظر إليه. وكان يعلم أنه بثَّ في نفس السيد سبتيماس إيلفيك رعبًا شديدًا.

قال سبارجو: «ما الأمر؟»

قال السيد إيلفيك في ضراعة: «أيها الشاب العزيز. لا تنصرف! يُمكِنني أن أفعل أيَّ شيء تريده مقابلَ امتناعك عن نشرِ هذه المعلومات. سأُعطيك ألف جنيه!»

انتزع سبارجو نفْسَه من بينِ يدَيه.

وقال في غضب: «كفى! سأنصرف الآن! أتُحاوِل رِشوتي؟»

فرَك السيد إيلفيك يديه.

وقال بصوتٍ أشبه بالعويل: «لم أقصد ذلك ... لم أقصد ذلك على الإطلاق! لا أعلم ماذا كنتُ أقصد. انتظر أيها الشاب، انتظر بعضَ الوقت، وَلْنتحدَّث معًا. دَعْني أتحدَّث معك، سأُعطيك كلَّ ما تريد من الوقت. أرجوك!»

تظاهَرَ سبارجو بالتردُّد.

وأخيرًا قال: «لكن إذا انتظرت، فسيكون ذلك بشرطِ أن تُجيب بصدقٍ عن أي أسئلةٍ أطرحها عليك. وإلا ...»

وتظاهَرَ بالتحرُّك نحو الباب، فأمسك به السيد إيلفيك مترجِّيًا.

وقال: «انتظر! وسأُجيب عن كل ما تريد!»

الفصل الثامن والعشرون

إثبات الهُوِية

جلس سبارجو على كرسيِّه من جديد، ونظر إلى الشخصَين اللذين أحدَثَ كلامُه المفاجئ فيهما ذلك التأثيرَ الغريب. وأدرك عندما نظر إليهما أنه بالرغم من أن كِلَيْهما كان خائفًا، فإن خوفَ كلٍّ منهما كان ذا طبيعة مختلفة. فقد كانت الآنسة بيليس قد استعادت رباطةَ جأشِها؛ وها هي تجلس الآن في وجومٍ وتجهُّمٍ كما كانت تمامًا، تردُّ على نظرة سبارجو بنظرةِ تحدٍّ ولامبالاة، وتخيَّل سبارجو معركةً تدور في عقلها بين خوفٍ من نوعٍ ما وتعجُّبٍ من اكتشافه للسر. بدا له أنها لما أدركت انكشافَ السر، أخذت تحثه بلا كلماتٍ أن يأتيَ بأسوأ ما لديه ما دام السرُّ قد انكشف.

لكنَّ وَقْع الكلام على السيد إيلفيك كان مختلفًا تمامًا. فقد ظل يرتعش من فرط الإثارة، وعاد إلى كرسيِّه مزمجرًا، واهتزَّت يدُه وهو يصبُّ لنفسه كأسًا من الخمر، وعندما رفع الكأس إلى شفتَيه اصطكَّت بأسنانه. قضَت الصدمةُ القوية التي تلقَّاها على ما تبقَّى من آثار الازدراء المقنع الذي استقبل به سبارجو. وبينما كان سبارجو يُراقِبه في اهتمامٍ خاطَبَ نفسه قائلًا: هذا الرجل يعرف أكثرَ بكثيرٍ من أن ماربري هو ميتلاند، وأن رونالد بريتون هو في الحقيقة ابنُ ميتلاند، إنه يعرف شيئًا لم يُرِد لأحدٍ أن يعرفه، شيئًا كان يحسب وصولَ خبره إلى أيِّ شخصٍ من ضروب المستحيل. كما لو أنه دفن شيئًا ما في هوَّة سحيقة، ثم هاله أن يرى خبيئتَه تنكشف للعِيان واضحةً كالشمس في رابعة النهار.

وفجأةً قال سبارجو: «سأنتظر حتى تتمالكَ أعصابك يا سيد إيلفيك. لا أريد الضغطَ عليك. لكني أُلاحِظ بالطبع أن الحقائق التي قلتُها لك سبَّبَت لك نوعًا من الـ... الخوف.»

أخذ إيلفيك رشفةً جديدة من الخمر. وقلَّ اهتزازُ يده، واستعاد وجهُه لونَه الطبيعي.

وقال: «هلَّا سمحتَ لي بالتوضيح. هلا استمعتَ إلى ما جرى من أجل الفتى؟»

رد سبارجو: «هذا بالتحديد ما أريد. واعلم أني آخِر شخصٍ في العالَم قد يتمنَّى إلحاقَ أي ضررٍ بالسيد بريتون.»

نفسَت الآنسة بيليس عما يعتملُ في صدرها من مشاعرَ بإصدارِ صوتٍ يُعبِّر عن ازدرائها. وقالت وهي تنظر نحو سقف الغرفة: «هو يقول هذا. يقول هذا بالرغم من أنه ينوي إخبارَ العالَم كلِّه في صحيفته الحقيرة أن رونالد بريتون الذي حظِي بكل صنوف الرعاية هو ابنُ مُجرِم، مُدانٍ سابق، ابن ...»

رفع إيلفيك يده.

وقال متوسِّلًا: «صه! السيد سبارجو نواياه طيبة، أنا متأكد من ذلك ... أنا مقتنعٌ بذلك. لو أنه فقط يستمع لما لديَّ ف...»

وعندئذٍ جاء من الباب الخارجي صوتُ طرقٍ عالٍ شديد قبل أن يردَّ سبارجو. فزع إيلفيك في توتر، لكنه قطع الغرفةَ مترنحًا كمَن تلقَّى ضربة، وفتح الباب. فوصل إلى غرفة الجلوس صوتُ فتًى.

«من فضلك سيدي، هل السيد سبارجو الذي يعمل في صحيفة «ووتشمان» هنا؟ لقد ترك هذا العنوانَ للجوء إليه فيه عند اللزوم.»

تعرَّفَ سبارجو على الصوت، وعرَف أن صاحبَه واحدٌ من سُعاة المكتب، فهبَّ واقفًا وتوجَّه نحو الباب.

وقال: «ما الأمر يا رولينز؟»

قال الساعي: «هلا جئتَ إلى المكتب على الفور يا سيدي؟ السيد راثبري هناك ويقول إنه يجب أن يُقابِلَك على الفور.»

قال سبارجو: «حسنًا. سآتي الآن.»

وأشار إلى الفتى أن ينصرف، ثم التفتَ إلى إيلفيك.

وقال: «سأُضطَر إلى المغادَرة. وقد أتأخَّر. هل يُمكِنني أن آتيَ لرؤيتك صباح الغد يا سيد إيلفيك؟»

رد إيلفيك في حماس: «نعم، نعم، صباح الغد! بالتأكيد. في الحادية عشرة تمامًا. أهذا يُناسِبك؟»

رد سبارجو: «سأكون هنا في الحادية عشرة. الحادية عشرة تمامًا.»

همَّ سبارجو بالانصراف، لكن إيلفيك أمسَكَه من كمِّه.

وقال: «لحظة واحدة! لم تُخبِر الفتى — رونالد — بما تعرف، أليس كذلك؟ لم تُخبِره؟»

رد سبارجو: «بلى، لم أخبره.»

أحكَمَ إيلفيك قبضتَه على كمِّ سبارجو. ونظر إلى وجهه في توسُّل.

وقال: «عِدْني يا سيد سبارجو، عِدْني أنك لن تُخبره قبل أن تُقابِلني صباح الغد! أتوسَّل إليك أن تَعِدَني بذلك.»

تردَّد سبارجو، وهو يفكِّر في الأمر.

ثم قال: «حسنًا ... أَعِدُك بذلك.»

قال إيلفيك وهو لم يَزَل مُمسِكًا بكمِّ سبارجو: «وألَّا تَنْشره. هلا وعدتَني بألَّا تنشره الليلةَ؟»

قال سبارجو: «لن أنشره الليلة. أؤكِّد لك ذلك.»

أفلتَ إيلفيك ذراعَ الشاب.

وقال: «تعالَ في الحادية عشرة من صباح الغد.» ثم تراجَعَ وأغلق الباب.

أسرع سبارجو إلى المكتب وتوجَّه إلى غرفته. فوجد فيها راثبري جالسًا على كرسيٍّ وثير يُدخِّن السيجار ويقرأ صحيفةَ المساء غيرَ آبهٍ بشيء، ويبدو عليه اتزانٌ شديد. ولما وصل سبارجو رحَّبَ به راثبري بإيماءةٍ فيها شيءٌ من اللامبالاة وابتسامة.

وقال راثبري: «حسنًا، كيف الحال؟»

جلس سبارجو على كرسي المكتب يُحاوِل التقاطَ أنفاسه.

وقال: «لم تأتِ إلى هنا لتُخبِرني بذلك.»

فضحك راثبري.

وقال وهو يُلقِي بالصحيفة جانبًا: «هذا صحيح. بل جئتُ لأخبرك بآخِرِ ما توصَّلتُ إليه. ولك الحرية التامة في نشره في صحيفتك الليلةَ، قد يكون الأمر جديرًا بالإعلان.»

قال سبارجو: «وما هو؟»

أخرج راثبري السيجارَ من فمه وتثاءب.

وقال في تكاسُل: «لقد انكشفَت هُوِية إيلمور.»

انتصبَ سبارجو فجأةً في جلسته.

«انكشفَتْ هُوِيته؟!»

«انكشفَتْ هُوِيته يا بني، دونَ أدنى شك.»

قال سبارجو في انفعال: «انكشف أنه مَن؟ أو ماذا؟»

ضحك راثبري.

وقال: «إنه سجينٌ قديم، مُدان سابق. أمضى مدةَ عقوبته في دارتمور. وبالطبع، كان هذا هو المكان الذي جمع بينه وبين ميتلاند أو ماربري. هل فهمت؟ الأمرُ واضحٌ تمامًا الآن يا سبارجو.»

جلس سبارجو يطرق بأصابعه على المكتب. وكانت عيناه مثبتتَين على خريطةٍ للندن معلَّقةٍ على الحائط المقابل، وسمعتْ أذناه هديرَ ماكينات الطباعة في الطابق السفلي. غير أن ما رآه حقًّا كان وجهَي فتاتَين، وما سمعه كان صوتَيهما …

كرَّر راثبري في ابتهاج بالغ: «واضح تمامًا، تمامًا.»

عاد سبارجو من بين سُحُب خيالاته إلى أرض الواقع المرير.

وسأل في حِدَّة: «وما الواضح تمامًا الذي تَعْنيه؟»

أجاب راثبري: «ما الواضح؟ عجبًا، كل شيء! الدافع وكل شيء، أَلَا ترى؟ ميتلاند وإيلمور (اسمه الحقيقي إينزوورث بالمناسَبة) تقابَلا في دارتمور على الأرجح — بل من المؤكَّد — قبل إطلاق سراح إيلمور مباشَرة. وبعد ذلك سافَر إيلمور إلى الخارج، وجمع المال، وعاد في وقتٍ ما، وبدأ عملًا جديدًا، ونال عضوية البرلمان، وأصبح ذا شأن. وفي الوقت المناسب عاد ميتلاند أيضًا من الخارج بعد أنْ سافَرَ هو الآخَر بعد انقضاء مدةِ عقوبته. والتقى الاثنان. وعندئذٍ حاوَل ميتلاند ابتزازَ إيلمور على الأغلب أو هدَّده بأن يُعلِم الناسَ أن السيد إيلمور النائبَ البرلماني البارز هو في الحقيقة مُجرِم مُدانٌ سابق. وكانت النتيجة أنِ استدرَجه إيلمور إلى تمبل لإسكاته. وهكذا يُصبِح كلُّ شيء واضحًا تمامًا كما قلت. وضوح الشمس!»

أخذ سبارجو ينقر بأصابعه مجددًا.

وسأل في هدوء: «كيف؟ كيف اكتُشِفَت هُوِية إيلمور؟»

قال راثبري في فخر: «إنه عملي. عملي يا بني. لقد فكَّرتُ كثيرًا. وخاصةً بعد اكتشاف أن ماربري هو ميتلاند.»

قال سبارجو: «تعني بعد أن اكتشفتُ أنا ذلك.»

لوَّح راثبري بسيجاره.

وقال: «لا يهم، الأمران سيَّان. أنت تُساعدني وأنا أساعدك، أليس كذلك؟ على أي حال، فكَّرتُ مَلِيًّا كما قلتُ لك. وتساءَلتُ عن المكان الذي تعرَّف فيه ميتلاند أو ماربري على إيلمور أو التقى به فيه منذ عشرين أو اثنين وعشرين عامًا؟ ليس في لندن؛ لأننا كنا نعرف أن ميتلاند لم يَزُر لندن قبل محاكَمته قط، وليس لدينا أيُّ دليلٍ على أنه زارها

بعد محاكَمته. وتساءلتُ عن سببِ امتناع إيلمور عن الحديث. فدار في خَلَدي أن مكان اللقاء كان غيرَ مشرِّف بلا شك. وفجأةً قفزت الفكرةُ إلى ذهني في إحدى لحظات الـ... ماذا تسمونها أنت وزملاؤك يا سبارجو؟»

قال سبارجو: «الإلهام، على ما أظن. الإلهام المباشِر.»

قال راثبري: «هذه هي. في إحدى لحظات الإلهام المباشِر، قفزَت الفكرة إلى ذهني: منذ عشرين عامًا كان ميتلاند في دارتمور، لا بد أنهما التقَيا هناك! وبِناءً على ذلك، استدعينا بعضَ حرَّاس السجن القدامى الذين كانوا يعملون فيه ذلك الوقت، وأَرَيْناهم إيلمور ومكَّناهم من التدقيق فيه. وبالطبع سنُّه الآن أكبرُ بعشرين عامًا، وقد أطلق لحيتَه، لكنهم بدَءوا يتذكَّرونه، ثم تذكَّرَ أحدُهم أنه إذا كان المقصودَ فستكون لديه وحمةٌ في مكان محدَّد. وتبيَّنَ أنها لديه!»

سأل سبارجو: «وهل يعلم إيلمور باكتشافِ هُويته؟»

ألقى راثبري بسيجاره في المدفأة وضحك.

وقال في سخرية: «يعلم! يعلم؟ لقد اعترف بنفسه. فما فائدةُ إنكارِ دليلٍ كهذا؟ لقد اعترف بذلك الليلةَ في حضوري. إنه يعلم كلَّ شيء!»

«وماذا قال؟»

ضحك راثبري في ازدراء.

وقال: «وماذا عساه يقول؟ لم يقُل الكثير. كلُّ ما قاله هو تقريبًا نفس ما قاله عن قضيتنا هذه؛ قال إنه كان بريئًا من التهمة التي أُدين بها عندئذٍ. لا شكَّ أنه بارعٌ في ادِّعاء البراءة.»

سأل سبارجو: «وبِمَ أُدين؟»

«سأُجِيبك عن ذلك؛ فقد عرَفنا كلَّ شيء. فقد بحثنا في كل شيء فورَ أن اكتشفنا هُويته الحقيقية. كان إيلمور أو إينزوورث (اسمه الكامل ستيفن إينزوورث) يُدير جمعيةً للمساعَدة في حالات المرض أو الوفاة في بلدةٍ في الشمال اسمها كلاودهامبتون منذ ثلاثين عامًا تقريبًا. كان في الظاهر أمينًا للجمعية، لكنه كان في الحقيقة مديرَها ومالِكَها. اشترك فيها أبناءُ الطبقات العاملة — حيث إن معظمَ أهلِ كلاودهامبتون من الحِرفيِّين — وضحُّوا فيها الكثيرَ من أموالهم. ثم انهارت الجمعية فجأةً، وذهب كلُّ شيءٍ أدراجَ الرياح. وادَّعى إينزوورث، أو إيلمور، أنه تعرَّضَ للسرقة أو الخداع على يدِ رجلٍ آخر، لكن هيئة المحكمة

لم تُصدِّقه، وحُكِم عليه بسبع سنوات. قصة واضحة كما ترى يا سبارجو إذا نظرت في كل التفاصيل، أليست كذلك؟»

قال سبارجو: «كل القصص تكون واضحةً عندما ينكشف عنها النقاب.» ثم واصَل: «هذا يعني أنه لزم الصمتَ لأنه لم يُرِد أن تعرفَ ابنتاه ماضيَه؟»

قال راثبري: «هذا صحيح. ولا أظنني ألومه على ذلك، لقد ظنَّ أنه سيُفلِت من جُرمه في قضية ماربري هذه، لكنه ارتكب خطأَه في المراحل الأولى، نعم هذا صحيح!»

قام سبارجو من وراء مكتبه وتمشَّى في الغرفة بضع دقائق، في حين أشعل راثبري سيجارًا آخَر. وأخيرًا عاد سبارجو وربَّت على كتف المحقِّق.

وقال: «اسمع يا راثبري. من الواضح جدًّا أنك ترى أن إيلمور قتَل ماربري بالفعل. صحيح؟»

رفع راثبري نظرَه. وعلَتِ الدهشةُ وجهَه.

وقال منفعلًا: «بعد هذه الأدلة؟ عجبًا، بالطبع. هناك دافِعٌ يا بني، دافِع!»

ضحك سبارجو.

وقال: «اسمع يا راثبري. إيلمور بريء من قتْلِ راثبري كبراءتِك أنت منه!»

نهضَ المحقِّق واعتمر قبعته.

وقال: «أوه! أيعني ذلك أنك تعرف مَن فعلها إذن؟»

أجاب سبارجو: «سأعرف بعد أيام قليلة.»

حدَّق راثبري فيه في تساؤُل. ثم مشى نحو الباب فجأةً. وقال بفظاظة: «طابَت ليلتُك!»

ردَّ سبارجو: «طابَت ليلتُك يا راثبري!» وجلس إلى مكتبه.

لم يكتب سبارجو شيئًا تلك الليلة لعدد صحيفة «ووتشمان». كل ما كتبه كان برقيةً قصيرة موجَّهة لابنتَي إيلمور، ولم تكن فيها إلا كلمتان: لا تخافا.

الفصل التاسع والعشرون

الأبواب المغلقة

بخِلاف جميعِ صُحف لندن الصباحية، خلا عددُ صحيفة «ووتشمان» من الأخبار المثيرة المتعلقة بجريمةِ قتلِ ميدل تمبل. أمَّا الصحف اليومية الأخرى فقد نشرَت رواياتٍ تبايَنَت في تفاصيلها حول اكتشافِ الهُوية الحقيقة للسيد ستيفن إيلمور عضو البرلمان عن بروكمينستر، وأنه في الحقيقة المُدانُ السابق ستيفن إينزوورث، الذي كان يومًا ما مؤسِّسَ جمعيَّة هيرث آند هوم للمساعَدة في حالات المرض أو الوفاة وأمينَها، وهي الجمعية التي كان مقرُّها في كلاودهامبتون بديلشاير، وكان انهيارُها نازلةً ضربَتِ الآلافَ من العاملين الشرفاء في مقتل. عمدت معظمُ الصحف إلى التنقيب عن ماضي إينزوورث في الدفاتر القديمة؛ لعلها تجد فيها مادةً صحفية ذات بال. ولم يكن بالأمر العسير على هذه الصحف أن تَسرد قصةَ انهيارِ جمعية هيرث آند هوم، وأن تكتب عن عَوزِ أولئك المستثمرين الصغار الذين أتى الانهيارُ على مدَّخراتهم المحدودة، وأن تُعِيد سرْدَ تاريخِ اعتقال إينزوورث ومحاكمته وما صار إليه. اصطبغت القصةُ بالكثير من العواطف: رجلٌ مكَّنَته قدراتُه المالية من تأسيسِ جمعيةِ تأمينٍ صناعية كبيرة، ثم استخدم المبالغَ الطائلة التي عُهِد إليه بها لأغراضه الخاصة حسَبما ادُّعِي عليه، وبعد ذلك انفضح أمرُه وتلقَّى عقابَه، ثم اختفى بعد أن نال عقابَه ولم يُعثَر له على أثر، وبعد عددٍ من السنوات عاد باسمٍ جديد، وثراءٍ فاحش، ونال عضويةَ البرلمان، وبات شخصيةً عامة دونَ أن يشتبهَ أيٌّ ممَّن عرَفوه في منصبه الجديد في أنه ارتدى ذاتَ يوم زيَّ السجن. إنها مادة صحفية خِصبة، بل ممتازة، خصَّصَت بعضُ صحفِ الصباح لها عمودَين.

كانت صحيفة «ووتشمان» حتى ذلك الحين تستأثِر عن كلِّ منافِسيها بقصَب السَّبق في إحاطة العامة بآخِر المستجدَّات ذات الصلة بقضية ماربري، لكنها اكتفت ذلك الصباحَ بخبرٍ مقتضب. فبعد أن ترك راثبري سبارجو، التقى الأخيرُ بمالِك الصحيفة ورئيس

تحريرها، وتشاوَرَ معهما مطولًا، واتفقوا في آخِر حديثهم على الاكتفاءِ بنشرِ خبرٍ يتكوَّن من فقرةٍ واحدة قصيرة صباحَ اليوم التالي، جاء فيه:

> علمَت الصحيفةُ أن مسئولين محدَّدين اكتشفوا أن السيدَ ستيفن إيلمور عضوَ البرلمان المتهم بقتل جون ماربري (أو ميتلاند) في تمبل في الحادي والعشرين من يونيو الماضي، هو في الحقيقة ستيفن إينزوورث، الذي حُكِم عليه بالأشغال الشاقة في قضية أموالِ جمعيةِ هيرث آند هوم للمساعَدة في حالات المرض والوفاة، منذ ثلاثين عامًا تقريبًا.

وبينما كان سبارجو يمشي بخِفةٍ في طريقه إلى فليت ستريت ذلك الصباح، مر أمام المحكمة فالتقى بصحفيٍّ آخَرَ يعمل لدى إحدى الصحف المنافِسة، فابتسم له الرجلُ ابتسامةَ استهزاء.

وقال في خُيلاء: «أسقطَتْ صحيفتُك التافهة بعضَ المعلومات في عددها هذا الصباحَ يا عزيزي سبارجو! لقد فوَّتُّم إحدى أفضلِ الفرص التي سنحت فيما يتعلَّق بقضية ماربري. فِقرة واحدة بائسة فحسب! لقد كتبتُ عمودًا ونصفَ عمود في صحيفتي! فيمَ كنتَ منشغلًا ليلةَ أمسِ أيها العجوز؟»

أومأ سبارجو برأسه وقال: «كنتُ نائمًا!»

ترك سبارجو الرجلَ يُحدِّق فيه وعبَرَ الطريق إلى زقاق ميدل تمبل. وعند تمام الحادية عشرة كان يصعد الدَّرَج المُفضِيَ إلى مسكن السيد إيلفيك، ثم يطرق الباب الخارجي. يندر أن تكون الأبوابُ الخارجية مغلقةً في هذه الساعة في تمبل، لكن باب إيلفيك كان مغلقًا. في الليلة الماضية فُتِح الباب على الفور، أمَّا الآن فلم يجد ردًّا عندما طرقه للمرة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة. نطَق فُوه وهو لا يكاد يَعِي ما يحدث متمتمًا: «باب إيلفيك مغلق!»

لم يخطر ببال سبارجو أن يُواصِل الطَّرْقَ بعد ذلك، فقد أخبرَته غريزتُه أن باب إيلفيك مغلقٌ لأن الرجل ليس موجودًا … لأن إيلفيك لم يكن ليلتزم بالموعد الذي ضربه. التفت سبارجو وسار في الممر. وما إنْ وصل إلى أعلى الدَّرَج حتى وجد رونالد بريتون ينهب الدَّرَج نهبًا وهو شاحِب الوجه مضطرِب الهيئة، ولما رأى سبارجو توقَّف يحدِّق فيه في تساؤل. ثم تصافَحَ الاثنان وكأنما في تعاطُف متبادَل.

قال بريتون: «أسعَدَني أنك لم تنشر في عددِ هذا الصباح من «ووتشمان» أكثرَ من هذين السطرَين أو الثلاثة الأسْطُر. كان ذلك لُطفًا منك. أمَّا الصحف الأخرى فقد …!

أكَّدَ لي إيلمور أمسِ يا سبارجو، أكَّد أنه كان بريئًا بالرغم من إمضائه مدةَ العقوبة في دارتمور! لقد استُخدِم ككبشِ فداءٍ لرجلٍ آخَر اختفى.»

اكتفى سبارجو بالإيماء بالموافَقة، وأضاف بريتون في حرَج:

«أنا ممتنٌّ لك أيضًا أيها الصديق القديم على إرسالِ تلك البرقيَّة إلى الفتاتَين ليلةَ أمس، كان ذلك لُطفًا منك. إنهما في حاجةٍ إلى أيِّ مسانَدة. مسكينتان! لكن ماذا تفعل هنا يا سبارجو؟»

استند سبارجو على الدرابزين وضم يدَيه.

وقال: «جئتُ بناءً على موعدٍ مع السيد إيلفيك، لقد ضرب معي موعدًا عندما زرته في التاسعة حسَب اقتراحك. كان موعدنا في الحادية عشرة، وهو موعدٌ مهم جدًّا.»

نظر بريتون إلى ساعته.

وقال: «هيا بنا إليه إذن. لقد تجاوَزَ الوقتُ الحاديةَ عشرةَ بكثير، ووَصِيِّي بالغُ الحزم في المواعيد.»

لكن سبارجو لم يتحرَّك. وهز رأسه وهو ينظر إلى بريتون بعينٍ مِلْؤُها التوتر.

وقال: «أنا أيضًا كذلك. لقد تدرَّبت على ذلك. وَصِيُّك ليس هنا يا بريتون.»

رد بريتون: «ليس هنا؟! والموعد في الحادية عشرة؟! هذا محال، لم أعهده مُخلِفًا لأي موعد قط!»

قال سبارجو: «لقد طرَقتُ البابَ ثلاثَ مرات منفصلة.»

قال بريتون: «بل اطرقه ستَّ مرات، ربما لم يَزَل نائمًا؛ فهو يسهر. كثيرًا ما يسهر مع العجوز كاردلستون حتى منتصفِ الليل ويتحدَّثان عن الطوابع، أو يلعبان بأوراق اللعب. هيا، سترى بنفسك!»

هز سبارجو رأسَه مجددًا.

وقال: «إنه ليس هنا يا بريتون. لقد غادَر!»

حدَّق بريتون فيه كما لو أنه قال إنه رأى السيد سبتيماس إيلفيك يتسنَّم جَملًا في فليت ستريت ويرحل. ثم أمسك بكوعه.

وقال: «هيا! لديَّ مفتاحُ بابِ السيد إيلفيك، حتى يُمكِنني الدخول والخروج كما يحلو لي. سأُرِيك بعد قليلٍ أنه لم يُغادِر.»

تبع سبارجو المحاميَ الشاب في الممر.

وقال متفكرًا بينما أدخَلَ بريتون المفتاحَ في الباب: «لن يُجدِيَ ذلك، فهو ليس هنا يا بريتون. لقد غادَر!»

قال بريتون منفعلًا وهو يفتح الباب ويدلف إلى الصالة: «عجبًا لك يا رجل! لا أعلم ماذا تقول! غادَر؟! وإلى أين عساه يُغادِر بعد أن ضرب معك موعدًا الساعة الحادية عشرة، إنه ...» وقطع جملتَه لينادي على السيد إيلفيك.

فتح بريتون بابَ الغرفة التي التقى فيها سبارجو بإيلفيك والآنسة بيليس في الليلة الماضية، وهمَّ بدخولها لكنه توقَّف على عتبتها في ذهول.

وصاح: «يا إلهي! ما هذا كله؟»

نظر سبارجو من فوق كتف بريتون في هدوء. لم يتطلَّب الأمر أكثرَ من نظرة خاطفة ليُدرِك أن أمورًا كثيرةً حدثت في هذه الغرفة مُذْ غادَرَها الليلةَ الماضية. ها هو الكرسي الوثير الذي ترك فيه إيلفيك، وبالقرب منه الطاولةُ الصغيرة التي كان عليها قنينة الخمر والكأس، لكن الطاولة كانت قد زُحزِحت من مكانها على نحوٍ يَشِي بدفعها بيدٍ متعجِّلة، وها هي تلك الرواية موضوعةٌ على غلافِها الأمامي وفوقها غليون إيلفيك. أما باقي محتويات الغرفة فكانت مُبعثَرة بشدة؛ أدراج مكتبٍ سُحِبت لفتحها ولم يُعَد غلقها، وأوراقٌ من كل نوع وصنف — منها ما بدا وثائقَ قانونية، ومنها ما بدا خطاباتٍ قديمة — مُبعثَرة على الطاولة التي توسَّطَتِ الغرفةَ وعلى الأرضية؛ وفي أحد الأركان علبةٌ مدهونة بطِلاء أسود فُتِحت وتناثَرت محتوياتها، وتُرِك غطاؤها فوقها كما اتفق. وانتشرت في المدفأة وعلى حاجزها كُتَلٌ من ورقٍ محترق ومتفحِّم. كان جليًّا أن صاحبَ المكان أمضى وقتًا في إتلافِ عددٍ كبير من الوثائق قبل رحيله إلى وجهة مجهولة، وأنه كان متعجلًا لدرجةِ أنه لم يهتمَّ بترتيب المكان قبل مغادَرته.

حدَّق بريتون في هذا المشهد لحظةً في تخوُّف شديد. ثم خطا خطوةً واحدة نحو باب داخلي، فتبعه سبارجو. ودخلا معًا غرفةً داخلية مخصَّصة للنوم. لم يكن فيها أحد، لكن كانت فيها أدلةٌ على أن إيلفيك حزَم حقائبَه متعجِّلًا كما أتلَفَ الوثائقَ متعجِّلًا. تناثَرت الملابس التي رآه سبارجو يرتديها مساء اليوم السابق في أنحاء الغرفة؛ سُترتُه الأنيقة ملقاةٌ بلا اكتراث في أحد الأركان، وقميصُه الرسمي ذو الأزرار الثمينة مُلقًى في ركن آخَر. وكانت في الغرفة حقيبة أو اثنتان بدا أنهما فُحِصتا ثم أُلقِيَتا جانبًا، وفُضِّلت عليهما حقيبةٌ أخرى أسهل في الحمل والتنقُّل. وتُرِكت أدراجُ الملابس التحتية مفتوحةً هي الأخرى، وكذا باب خزينة الملابس التي كشفت عمَّا احتوت عليه من ملابسَ ثمينة. نظر سبارجو حوله فخمَّن كلَّ ما جرى: بحثٌ متعجِّل مضطرب عن أوراقٍ ما، ثم تمزيقها وحرقها، ثم تبديلٌ للملابس، وحزْمٌ للضروريات في حقيبةٍ سهلةِ الحمل، ثم لَوْذٌ بالفرار.

قال بريتون في انفعال: «ماذا يعني هذا؟ ما الأمر يا سبارجو؟»

رد سبارجو: «هذا يعني ما قلتُه لك بالضبط، لقد غادَر! رحل!»

قال بريتون: «رحل؟! لكن لماذا؟ إنه وَصِيِّي! وهو أكثرُ رجالٍ تمبل هدوءًا ... رحل؟! لأي سبب؟ أخشى أن ... يا إلهي! سبارجو، أخشى أن يكون سببُ رحيله شيئًا قلتَه له ليلةَ أمس.»

رد سبارجو: «هذا هو سببُ رحيله بالضبط، لقد رحل بسببِ شيءٍ قلتُه له الليلةَ الماضية. كان حُمقًا مني أن أتركه يَغِيب عن نظري.»

انفعل بريتون على سبارجو وقال لاهثًا:

«يَغِيب عن نظرك! أيُعقَل أن يكون قصْدُك أن للسيد إيلفيك صِلةً بقضية ماربري؟ يا إلهي! سبارجو ...»

وضع سبارجو يدَه على كتف المحامي الشاب.

وقال: «أخشى أنَّ هناك أمورًا كثيرًا لا بد أن تَعلمها يا بريتون. كنتُ أنوي التحدُّثَ معك اليومَ على أي حال. اسمع ...»

وقبل أن يقول سبارجو كلمةً أخرى قطعت حديثَه امرأةٌ بدا مما تحمله من أدواتٍ أنها عاملةُ تنظيف. دخلت المرأةُ الغرفةَ وما إن رأت حالها صاحتْ منفعِلة. والتفت بريتون نحوَها في تأهُّب.

وقال: «أيتها المرأة! هل رأيتِ السيد إيلفيك هذا الصباح؟»

دارتْ عينا المرأة في محجرَيها ورفعت يداها.

وقالت: «أنا، يا سيدي؟! لم أرَه على الإطلاق. أنا لا آتي قبل الحادية عشرة والنصف تقريبًا، نظرًا إلى أن السيد إيلفيك في هذا الوقت يكون قد خرج لتناوُل فطوره. رأيته صباحَ أمس سيدي، وكان عندئذٍ على ما يُرام كعادته سيدي. لا يا سيدي، لم أرَه على الإطلاق هذا الصباح.»

صدَر من بريتون تعبيرٌ آخَر عن نفاد الصبر.

وقال: «يُستحسَن أن تتركي كلَّ شيء على حاله. يبدو أن السيد إيلفيك قد غادَر متعجلًا، ويجب ألَّا تلمَسي أيَّ شيءٍ هنا حتى يعود. سأغلق مسكنَه، إذا كان معكِ مِفتاحٌ له فأعطيني إياه.»

سلَّمَت عاملةُ التنظيف مِفتاحًا كان معها، وألقت على المكان نظرةً ذاهلة أخرى، ثم انصرفت متمتمة، والتفتَ بريتون إلى سبارجو.

وقال: «ماذا كنت تقول؟ قلتَ إن هناك أمورًا كثيرًا لا بد أن أعلمها! فَلْتُخبرني بها إذن يا رجل.»

هزَّ سبارجو رأسَه رافضًا.

وقال: «ليس الآن يا بريتون. والآن أقول لك، من أجل الآنسة إيلمور، ومن أجلك، أول ما يجب أن تفعله هو أن تَتتبَّع أثرَ وَصِيِّك. علينا أن نتحرَّك! وعلى الفور.»

وقف بريتون يُحدِّق في سبارجو لحظةً في عدم تصديق. ثم أشار إلى سبارجو ليخرجا من الغرفة.

وقال: «هيا إذن. أعرف الشخصَ الوحيد الذي قد يعرف مكانَه.»

سأل سبارجو وهما ينطلقان: «ومَن يكون؟»

أجاب بريتون في تجهُّم: «كاردلستون. كاردلستون!»

الفصل الثلاثون

إفشاء السر

عمَّت زقاقَ ميدل تمبل ذلك الصباحَ أشعةُ شمس بلغ سطوعُها أقصى الحدود، وسقط بعضٌ منها على المدخل الذي دخل منه سبارجو وبريتون متعجِّلَين. وبالرغم من عجَلة بريتون الشديدة توقَّفَ أسفل الدَّرَج. ونظر إلى الأرضية والجدار.

وقال بصوتٍ خفيض وهو يشير إلى موضعِ نظره: «ألم يكن هنا؟ أعني ماربري أو على الأحرى ميتلاند، ألم يُعثَر على جثتِه هنا بالتحديد؟»

أجاب سبارجو: «كانت هنا بالتحديد.»

سأل بريتون: «رأيتَه؟»

رد سبارجو: «نعم رأيتُه.»

قال بريتون: «رأيتَه بعد ما حدث بوقتٍ قصير؟»

رد سبارجو: «فورَ أن عُثِر عليه. أنت تعلم ذلك كله يا بريتون. فلِمَ السؤال الآن؟»

هز بريتون رأسَه دون أن يرفع عينَيه عن المكان الذي ثبَّتهما عليه وهو يدخل.

وقال: «لا أعلم. أنا ... لكن تعالَ ... لنرَ إن كان العجوز كاردلستون سيتمكَّن من إخبارنا بأي شيء.»

كانت أمام باب كاردلستون عاملةُ تنظيفٍ أخرى تحمل عدةَ دِلَاء، وتُدخِل مِفتاحًا في الباب. بدا جليًّا لسبارجو أنها كانت تعرف بريتون، فقد ابتسمتْ له وهي تفتح الباب.

قالت: «لا أعتقد أنك ستجد السيدَ كاردلستون في الداخل سيدي. يكون في هذا الوقت قد خرج لتناوُل الفطور مع السيد إيلفيك.»

قال بريتون: «تأكَّدي فحسب. أريد أن أُقابِلَه إن كان في الداخل.» ودخلتْ عاملةُ التنظيف المسكن، وما إنْ فعلَت حتى صرخَت.

قال سبارجو: «بالضبط. كما توقَّعتُ. لقد غادَر كاردلستون أيضًا يا بريتون!»

لم يردَّ بريتون. لكنه أسرَعَ في أثر عاملة التنظيف، وتبعهما سبارجو.

صاح بريتون في انفعال: «يا إلهي! هنا أيضًا؟!»

فاقَت فوضى مسكنِ كاردلستون فوضى مسكنِ إيلفيك. كان المشهد مُشابهًا لسابقِه؛ أدراج مفتوحة، وأوراق مبعثَرة، ورمادٌ مبعثَر على الأرضية أمام المدفأة، وكل شيء في فوضى عارمة. ظهر من وراءِ بابٍ مفتوح مُفضٍ إلى غرفة داخلية مَشهدٌ آخَرُ مشابهٌ لما وجداه عند إيلفيك؛ لقد حزمَ كاردلستون أغراضَه في حقيبةٍ متعجلًا، وبدَّلَ ملابسه، وألقى بما كان يرتديه منها في أي ركن في المكان. بدأ سبارجو يُدرِك ما جرى؛ فبعد أن أعدَّ إيلفيك عُدَّتَه للهروب، قصد كاردلستون، واستعجَله، ولاذا بالفرار معًا. لكن ... لماذا؟

جلستْ عاملةُ التنظيف على أقرب كرسي وأخذت تبكي وتنوح، وتقدَّمَ بريتون وتجاوَزَ أكوامَ الورق والأغراض المتنوعة المبعثَرة في فورة البحث عن أشياء والتخلُّص من أخرى، حتى وصل إلى الغرفة الداخلية. نظر سبارجو حوله، وفجأةً وجد شيئًا مُلقًى على الأرض فأمسك به بشدة. ولم يَكَد يطمئنُّ لاستقرار لُقْيتِه في جيبه حتى عاد بريتون.

قال بريتون مُتعبًا: «لا أعرف معنى ذلك كلِّه يا سبارجو. أفترض أنك تعرف. انظر هنا.» وواصَل ملتفتًا إلى عاملة التنظيف: «كفِّي عن الضجيج؛ فلن يفيدَ بشيء. أعتقد أن السيد كاردلستون رحَل متعجِّلًا. عليكِ أن ...» والتفت إلى سبارجو مجددًا وسأله: «ماذا عليها أن تفعل يا سبارجو؟»

رد سبارجو وهو ينظر نظرةً ذات مغزًى: «عليها أن تترك كلَّ شيء على حاله بالضبط، وأن تغلق المسكن، وأن تُعطِيك المِفتاح لأنك صديقٌ للسيد كاردلستون.» وخاطَب عاملةَ التنظيف: «افعلي ذلك الآن.» ثم خاطَب بريتون مجددًا: «وَلْنذهب نحن؛ فهناك مهمة عليَّ إنجازها.» ولما خرجا وانصرفت عاملةُ التنظيف الذاهلة، التفت سبارجو إلى بريتون.

وقال: «سأُخبرك بكل ما أعرف بعد قليلٍ يا بريتون. أمَّا الآن فأُريد منك أن تعرف ما إذا كان حارس المبنى قد رأى السيدَ إيلفيك أو السيدَ كاردلستون يرحل. أريد أن أعرف إلى أين ذهبا إن أمكن. لا أعتقد أنهما انصرفا سيرًا على أقدامهما.»

قال بريتون في تجهُّم: «حسنًا. سنذهب ونسأل. لكني لا أفهم هذا كلَّه. هل تعني أن ...»

قال سبارجو: «انتظر قليلًا. لننجز الشيءَ تِلْوَ الآخر.» وبينما سارا في زقاق ميدل تمبل، واصَل سبارجو: «أول شيء يجب فعله أن تسأل الحارسَ ما إذا كان قد رأى لأيٍّ منهما أثرًا؛ فهو يعرفك.»

ولما سأل بريتون الحارسَ أجاب في حماس.

وقال: «تسألني إن كنتُ قد رأيت السيد إيلفيك صباحَ اليوم يا سيد بريتون؟ بالتأكيد سيدي. فقد استوقفتُ له هو والسيد كاردلستون سيارة أجرة في وقتٍ مبكر من صباح اليوم، بعد السابعة بقليل. قال السيد إيلفيك إنهما سيذهبان إلى باريس، وإنهما سيتناولان الفطور في محطة تشيرينج كروس قبل انطلاق القطار.»

سأل بريتون متظاهِرًا بعدم الاكتراث: «هل قالا متى سيعودان؟»

أجاب الحارس: «كلا يا سيدي، لم يقل السيد إيلفيك. لكني أظنُّهما لن يتأخَّرا؛ لأنهما كانا يحملان حقيبتَين صغيرتَين أعتقد أنها تسَعُ احتياجاتِ يومٍ أو يومَين فقط سيدي.»

قال بريتون: «حسنًا.» والتفت نحو سبارجو الذي كان قد تحرَّك بالفعل. وقال: «ماذا بعد؟ أعتقد أننا سنتوجَّه إلى تشيرينج كروس، صحيح؟»

ابتسم سبارجو وهز رأسه نافيًا.

وقال: «كلا. لن نستفيد شيئًا إذا ذهبنا إلى هناك. لم يذهبا إلى باريس. كان هذا كلُّه تمويهًا. لنذهب إلى مكتبك أنت الآن. وهناك سأتحدَّث إليك.»

ولما وصلا إلى الغرفة الداخلية بمكتب بريتون، وأُغلِق البابُ عليهما، جلس سبارجو في كرسيٍّ وثير وحدج المحامي الشابَّ في اهتمام بالغ.

وقال: «بريتون! أعتقد أننا أوشكنا على حلِّ اللغز، تريد أن تُنقذ حماك المستقبلي، صحيح؟»

زمجر بريتون قائلًا: «بالطبع. لا شكَّ في ذلك. لكن ...»

قال سبارجو: «لكنك قد تُضطرُّ إلى تقديم بعض التضحيات لتفعل ذلك. الأمر أن ...»

قال بريتون منفعلًا: «تضحيات! ماذا ...؟»

رد سبارجو: «قد تُضطرُّ إلى التضحية ببعض الأفكار ... من المحتمَل أن تتغيَّر فكرتُك الطيبة عن بعض الأشخاص في المستقبل. ومنهم السيدُ إيلفيك على سبيل المثال.»

اكفهرَّ وجهُ بريتون.

وقال: «أوضِحْ ما تقصد يا سبارجو! أُفضِّل ذلك.»

رد سبارجو: «حسنًا إذن. الأمر أن السيد إيلفيك ضالعٌ فيما حدث بشكلٍ ما.»

قال بريتون: «أتعني ... في جريمة القتل؟»

رد سبارجو: «أعني جريمة القتل. وكذلك كاردلستون. أنا متأكدٌ من ذلك تمامًا. ولهذا غادَرا. فقد أفزعتُ إيلفيك ليلةَ أمس. ومن الواضح تمامًا أنه تواصَل مع كاردلستون على الفور، ولاذا بالفرار متعجِّلَين. لماذا قد يفعلان ذلك؟»

قال بريتون: «لماذا؟ هذا ما أسألك عنه! لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»

رد سبارجو: «لأنهما يَخشَيان انكشافَ أمرٍ ما. لهذا كان أول ما خطر ببالهما هو الهرب. لقد هرَبا مع ظهورِ أولِ نذيرٍ بانكشاف السر. تصرُّفٌ أحمق … لكنه غريزي.»

قام بريتون من كرسيِّ مكتبه ذي الذراعَين الذي كان يجلس عليه، وطرق على لوح تجفيف الحبر.

وقال في انفعال: «سبارجو! أتقصد أنك تتَّهم وَصِيِّي وصديقَه السيد كاردلستون. تتَّهمهما بـ… بالقتل؟»

قال سبارجو: «لا أعني هذا مطلقًا. بل أتَّهم السيد إيلفيك والسيد كاردلستون بأنهما يعرفان عن جريمة القتل أكثرَ مما يُريدان الإفصاحَ عنه. وأتَّهمهما أيضًا — ولا سيَّما وَصِيك — بأنهما يعرفان كلَّ شيء عن ميتلاند أو ماربري. لقد حمَلتُه ليلةَ أمسِ على الاعتراف بأنه يعرف القتيلَ باسم جون ميتلاند.»

قال بريتون: «حقًّا؟!»

رد سبارجو: «هذا صحيح يا بريتون. ولأن الحقيقة ستظهر لا محالة؛ لا بد أن تعرفها الآن. تمالَكْ نفسَك يا بريتون، وتحكَّمْ في أعصابك، ستُضطر إلى تحمُّلِ صدمةٍ أو اثنتَين. لكني أعرف ما أقول، ويُمكِنني إثباتُ كلِّ كلمة سأقولها لك. دَعْني أولًا أسألك بضعة أسئلة. هل تعرف أيَّ شيء عن والدَيْك؟»

قال بريتون: «لا شيءَ أكثر مما أخبرني به السيد إيلفيك.»

سأل سبارجو: «وبِمَ أخبرك؟»

رد بريتون: «أخبرني أن والدَيَّ كانا صديقَين قديمَين له ماتا في صِغرهما وتركاني بلا عائل، فضمَّني هو إلى كنفه وشملَني برعايته.»

قال سبارجو: «ألم يُقدِّم لك أيَّ وثائقَ من أي نوعٍ تُثبِت صدقَ هذه القصة؟»

رد بريتون: «كلا! ولم أُشكِّك يومًا فيها. لِمَ عساي أن أفعل؟»

قال سبارجو: «ألَّا تتذكَّر أيَّ شيءٍ عن طفولتك؟ … أعني عن أي شخصٍ كان مقرَّبًا لك في طفولتك؟»

قال بريتون: «أتذكَّر الناس الذين تولَّوا تربيتي مُذْ كنتُ في الثالثة. ولم تَزَل لديَّ ذِكرى غيرُ واضحةٍ لامرأة طويلة مائلة للسُّمْرة قبل ذلك.»

خاطَب سبارجو نفسَه: «الآنسة بيليس.» ثم واصَل مخاطبًا بريتون بصوت عالٍ: «حسنًا يا بريتون. سأُخبرك بالحقيقة، سأخبرك بها مباشَرةً ثم أقدِّم لك كلَّ التفسيرات

بعد ذلك. اسمُك الحقيقي ليس بريتون. بل ميتلاند، وأنت الابنُ الوحيد للرجل الذي عُثِر عليه مقتولًا أسفلَ دَرَج السيد كاردلستون!»

كان سبارجو يتساءل عن وقْعِ هذه الأنباء على بريتون، وحدَّقَ فيه في توتر وهو يلفظ بكلماته الأخيرة. ماذا سيفعل؟ وماذا سيقول؟ ماذا سـ...

جلس بريتون إلى مكتبه في هدوءٍ ونظر إلى عينَيْ سبارجو مليًّا.

وقال بنبرة عمَلية شديدة: «أثبِتْ لي ذلك يا سبارجو. أثبِتْ لي كلَّ كلمةٍ تقول. كل كلمة يا سبارجو!»

أومأ سبارجو بالموافَقة.

وقال: «سأفعل ذلك، سأُثبِت لك كل كلمة. هذا هو الصواب. اسمع إذن ...»

ألقى سبارجو نظرةً على الساعة الموجودة في الخارج في بداية قصته، فرأى أن الساعة الثانية عشرة إلا الربع، ولما اختتم كلامه كانت قد تخطَّت الواحدة. ظل بريتون طوالَ هذا الوقت يسمع في اهتمامٍ بالغ، ويُقاطِع سبارجو بسؤالٍ بين الفينة والأخرى، ويُدوِّن بعض الملاحظات من وقتٍ لآخر على ورقةٍ قرَّبها منه.

وأخيرًا قال سبارجو: «هذه هي القصة كلها.»

قال بريتون في اقتضاب: «ليست بالقصيرة.»

وجلس يُحدِّق في الملاحظات التي دوَّنها لحظاتٍ، ثم رفع نظره إلى سبارجو. وسأله: «ما رأيك حقًّا؟»

قال سبارجو: «فيمَ تطلب رأيي؟»

قال بريتون: «في هروب إيلفيك وكاردلستون.»

قال سبارجو: «كما قلتُ آنفًا، أعتقد أنهما يعرفان شيئًا يعتقدان أنهما سيُحمَلان على الإفصاح عنه. لم أرَ مثيلًا للخوف الذي بدا على إيلفيك ليلةَ أمسِ قط. ومن الواضح أن كاردلستون يُشاطِره ذلك الخوف، وإلا لما هربا معًا على هذا النحو.»

قال بريتون: «أتظنُّهما يعرفان شيئًا عن القاتل الحقيقي؟»

هزَّ سبارجو رأسه.

وقال: «لا أعلم. هذا مرجَّح. إنهما يعرفان شيئًا. و... انظر!»

وضع سبارجو يده في جيبه وأخرج شيئًا وأعطاه لبريتون، فحدَّق بريتون فيه في فضول.

ثم سأل: «ما هذا؟ أهي طوابع؟»

رد سبارجو: «حسب وصف كريديه تاجر الطوابع، هذه مجموعةٌ من الطوابع الأسترالية النادرة التي كانت مع ميتلاند. أخذتُها من مسكن كاردلستون عندما كنتَ أنت تفتِّش في غرفة نومه.»

قال بريتون: «لكن هذا لا يُثبِت شيئًا في نهاية المطاف. قد لا تكون هذه هي الطوابع نفسها. وحتى إن كانت ف...»

قاطَعه سبارجو بحدة قائلًا: «ما الاحتمالات؟ أعتقد أن هذه هي الطوابع التي كانت مع ميتلاند ... أبيك! وأريد أن أعرف كيف وصلَت إلى مسكن كاردلستون. وسأعرف ذلك.»

أعاد بريتون الطوابعَ إلى سبارجو.

وسأل: «لكن ما رأيك بوجهٍ عام يا سبارجو؟ إذا لم يكونا قد قتلا — يصعب عليَّ التلفُّظُ بهذه الكلمة حتى الآن! — أبي، فماذا إذن؟»

قال سبارجو منفعلًا: «إذا لم يكونا قد قتلاه، فإنهما يعلَمان مَن قتله! هيا، حان الوقت لنأخذ الخطوة التالية. والآن فَلْننسَ أمرَ إيلفيك وكاردلستون مؤقتًا، سيَسهل تتبُّعُ أثرهما. أريد أن أهتمَّ بأمرٍ آخَر الآن، كيف تَستصدِر تصريحًا من الحكومة لنبشِ قبر؟»

رد بريتون: «يتطلَّب ذلك أمرًا من وزارة الداخلية، ولا يُمكِن استصداره إلا بعد إظهارِ أسبابٍ بالغةِ القوة تدعو لذلك.»

قال سبارجو: «جيد! وسنُزوِّدهم بالأسباب. أريد نبْشَ قبر.»

رد بريتون: «نَبْش قبر! قبر مَن؟»

قال سبارجو: «قبر المدعو تشامبرلين ابن بلدة ماركت ميلكاستر.»

فُوجِئ بريتون.

وقال: «نبش قبره؟ لماذا؟»

ضحك سبارجو وهو يقوم.

وقال: «لأني أعتقد أن القبر فارغ. وأن تشامبرلين على قيد الحياة، وأن اسمه الآخَر هو كاردلستون!»

الفصل الحادي والثلاثون

عامل تنظيف النوافذ التائب

بعد ظُهر ذلك اليوم التقى سبارجو بمالك الصحيفة ورئيسِ تحريرها في اجتماعٍ حافلٍ آخر. وكانت النتيجة الأولى له أن توجَّهَ ثلاثتُهم إلى مكتب المستشار القانوني الذي يُقدِّم الخدمات القانونية لصحيفة «ووتشمان» عند الحاجة، وجرى التجهيز لتقديم طلب لوزارة الداخلية لفتح قبر تشامبرلين في ماركت ميلكاستر، وكانت النتيجة الثانية أن نُشِر في صحيفة «ووتشمان» في الصباح التالي إعلانٌ أثارَ نهَم نصفِ سكان لندن. كتب سبارجو في الإعلان:

جائزةٌ قيمتُها ألف جنيه

في يومٍ ما من أيام الاثنَي عشَر شهرًا الأخيرة، سُرِقت عصًا غليظةٌ أجنبيةُ الصُّنع ذات تصميمٍ مميز تُستخدَم في المشي، أو أخِذت من مكانها في مكتب السيد ستيفن إيلمور عضوِ البرلمان في فاونتن كورت في تمبل، الذي كان يُؤجِّره باسم السيد أندرسون، ومن المرجَّح أن تكون هذه العصا قد استُخدِمت في قتل جون ماربري أو ميتلاند في زقاق ميدل تمبل ليلةَ الثاني والعشرين من يونيو الماضي، وقد أصبحَت هذه العصا الآن في حوزة الشرطة.

نُعلن أن مالك صحيفة «ووتشمان» سيُقدِّم الجائزة المذكورة أعلاه (ألف جنيه إسترليني) فورًا ونقدًا لأي شخص — ذكرًا كان أو أنثى — يُثبِت أنه مَن سرق العصا المذكورة أو أخذها من المكتب المذكور، ويُدلِي بمعلوماتٍ مفصَّلة عما فعل بالعصا. ويتعهَّد مالكُ صحيفة «ووتشمان» بإحاطة أي معلومات تُقدَّم حول العصا المذكورة بأقصى درجات السرية والكتمان، وأن يمتنعَ عن استخدامِ المعلومات بأي طريقةٍ تُلحِق الضررَ بمَن يُدلي بها. على مَن يعرف هذه

المعلومات زيارةُ مكتب صحيفة «ووتشمان»، والسؤالُ عن السيد فرانك سبارجو في أي وقتٍ بين الحادية عشرة والواحدة ظهرًا، أو بين السابعة والحادية عشرة مساءً.

جاء بريتون إلى غرفة سبارجو في ظهر اليوم الذي صدر فيه الإعلان وسأله: «وهل تتوقَّع حقًّا أن تحصل على بعض المعلومات عن طريق هذا الإعلان؟ أتعتقد ذلك حقًّا؟»

رد سبارجو في ثقة: «وقبل أن ينتهيَ اليوم؛ فجائزةُ الألف جنيه لها سِحرٌ قد يَفُوق خيالك يا بريتون. سأعرف تاريخَ هذه العصا قبل منتصف الليل.»

قال بريتون: «وكيف تضمن ألَّا يخدعَك أحدُهم؟ فقد يقول أيُّ شخصٍ إنه مَن سرق العصا.»

رد سبارجو: «أيُّ شخص يأتي إليَّ بقصةٍ عن العصا سيكون عليه إثباتُ كيفيةِ حصوله عليها وما فعل بها. ليس لديَّ أدنى شك في أن هذه العصا سُرِقت أو أخِذت من مسكن إيلمور في فاونتن كورت، وأنها وصلَت بعد حينٍ إلى يد ...»

«هذا هو السؤال، إلى يدِ مَن؟»

«هذا ما أحاول أن أعرفه بطريقة أو بأخرى. لديَّ بالفعل تصورٌ لإجابة هذا السؤال. بيدَ أنه بمقدوري أن أنتظرَ معلوماتٍ قاطعة. أعرف شيئًا واحدًا: وهو أني عندما أتوصَّل إلى هذه المعلومات — وسأفعل — سنكون قد قطعنا شوطًا كبيرًا نحوَ إثبات براءة إيلمور.»

لم يُعلِّق بريتون على ذلك. وظل ينظر إلى سبارجو في تفكير.

وقال فجأةً: «سبارجو! هل تعتقد أنك ستتمكَّن من استصدارِ أمرِ فتح القبر الذي في بلدة ماركت ميلكاستر؟»

رد سبارجو: «كنتُ أتحدَّث مع المحامين على الهاتف لتوِّي. إنهم واثِقون تمامًا من إمكانية ذلك. بل قد يَصدر الأمرُ بعد ظهيرة اليوم. وفي هذه الحالة سيُفتَح القبر في وقتٍ مبكر من صباح الغد.»

سأل بريتون: «هل ستذهب لحضور فتح القبر؟»

رد سبارجو: «بالتأكيد. ويُمكِنك أن تأتيَ معي، إن أردت. يُستحسَن أن تظلَّ على اتصالٍ بنا طوال اليوم تحسُّبًا لأي مستجدَّات. ويجدر بك الحضور؛ فالأمر يَعْنيك.»

قال بريتون: «أريد الحضور، سأحضر فعلًا. وإذا تبيَّن أن ذلك القبر خالٍ، فسأُخبرك بشيءٍ ما.»

رمقه سبارجو بعينٍ فاحصة.

وقال: «فستُخبرني بشيءٍ ما؟ شيء ما؟ ماذا يكون؟»

رد بريتون: «لا تنشغل بذلك، لننتظر حتى نرى ما إذا كان في القبر جثمانٌ أم رصاص ونشارة خشب. إذا لم يكن به جثمان فـ...»

وفي هذه اللحظة دخل أحدُ السُّعاة واقترب من سبارجو. وارتسم على وجهه حماسٌ واضح، خلافًا للتعبير الجادِّ الرسمي المعتاد.

وقال الساعي: «هناك رجل يسأل عنك في الأسفل يا سيد سبارجو. إنه ينتظرك منذ مدة سيدي، يبدو متحرِّجًا من الصعود. ولم يقُل ما يريد، ورفض مَلْءَ نموذجِ الزيارة سيدي. قال إن كل ما يريد هو أن يتحدَّث معك قليلًا.»

قال سبارجو حازِمًا: «ادعه للصعود على الفور!» والتفتَ إلى بريتون بعد انصراف الساعي، وقال ضاحكًا: «أرأيت؟ لا بد أنه جاء يتحدَّث عن العصا ... سترى بنفسك.»

قال بريتون: «تتصرَّف بثقةٍ شديدة يا سبارجو. تسير في خط مستقيم دائمًا.»

قال سبارجو: «بل أحاول ذلك. انتظر لنسمع ما لدى هذا الرجل؛ لا شكَّ أنه سيكون مثيرًا.»

لم يَغِب عن ذهن الساعي وهو يصطحب الزائر أنه يقود إلى غرفة سبارجو رجلًا قد يخرج بعد قليلٍ حاملًا في جيبه ألفَ جنيه من أموال صحيفة «ووتشمان». مضى به إلى الغرفة وفتح الباب وقدَّمه لشاغِلَيها. كان فتًى خجولًا متحفظًا، بدا جليًّا للجميع توتُّرُه الشديد الذي ثَقُلَت وطأتُه عليه. توقَّف عند عتبة الباب وتأمَّلَ الغرفةَ ذات الأثاث الوثير، والشابَّين المهندَمين اللذين توسَّطاها، متهيبًا من أبهة المشهد.

قام سبارجو وأشار إلى كرسيٍّ وثير بجانب مكتبه وقال: «تفضَّل بالدخول! اجلس. جئتَ في شأن الجائزة بالطبع.»

جلس الرجل في الكرسي وأجال نظرَه بينهما في حذرٍ وارتياب. ثم تنحنح بصعوبة.

وقال: «كل شيء سيُحاط بالسرية التامة بالطبع. اسمي إدوارد موليسون يا سيدي.»

سأل سبارجو: «وأين تسكن؟ وما عملُك؟»

رد إدوارد موليسون: «يُمكِنك القول إني أسكن في روتون هاوس، وايت تشابل. فعلى الأقلِّ هذا هو المكان الذي أكون فيه عندما يتيسَّر لي ذلك. وأعمل في تنظيف النوافذ، أو على الأقل كان هذا عملي عندما ... عندما ...»

أكملَ سبارجو جملة الرجل: «... عندما رأيتَ العصا التي نشرنا إعلانًا بشأنها. حسنًا يا موليسون. ماذا تعرف عن العصا؟»

التفت موليسون إلى الباب، ثم إلى النوافذ، وأخيرًا إلى بريتون.

وسأل: «ألن أتورَّطَ في أيِّ متاعبَ بسبب هذه العصا؟ إذا كان هذا الخطر قائمًا، فلن أقول شيئًا، ولو كان المقابل ألفَ جنيه! لم أتورَّط في أي متاعبَ من أي نوعٍ من قبلُ يا سيدي، بالرغم من فقري.»

ردَّ سبارجو: «ليس هناك أيُّ خطر على الإطلاق يا موليسون. كل ما عليك فعله هو قولُ الحقيقة وإثبات صِدْقها. هل كنتَ أنتَ مَن أخذ العصا الغريبة الشكل من مسكن السيد إيلمور في فاونتن كورت؟»

بدا على موليسون الارتياحُ لهذا السؤال. فابتسم ابتسامةً خفيفة.

وقال: «أنا مَن أخذها بالتأكيد يا سيدي. لم أقصد سرقتَها، ليس هذا من طبعي! ويُمكِنك القول إني لم آخُذْها في الحقيقة، ولكنها وصلتْ إليَّ في نهاية المطاف.»

قال سبارجو: «وصلتْ إليك؟ هذا مثيرٌ للاهتمام. وكيف حدث ذلك؟»

ابتسم موليسون مجددًا وحكَّ ذقنَه.

أجاب موليسون: «ما جرى هو الآتي. في ذلك الحين كانت تسعة أشهر قد انقضت منذ بداية عملي لدى شركة يونيفرسال دايلايت لتنظيف النوافذ، وكنت أُنظِّف الكثيرَ من النوافذ في أنحاء تمبل، ومنها نوافذُ السيد إيلمور، لكني كنتُ أعرفه باسم السيد أندرسون. وبينما كنتُ هناك في وقتٍ مبكر من صباح أحدِ الأيام قالت لي عاملة التنظيف: «هلا أخذتَ أبسطةَ المدفأة هذه ونفضتَ عنها الأتربة! إنها اثنان أو ثلاثة.» ولأني خَدُوم بطبعي قلت: «حسنًا.» وأخذتُها. وقالت لي: «خذ هذه لتضربَ بها الأبسطة.» وسحبتُ تلك العصا القديمةَ من مجموعةِ أشياءَ كانت في وعاءٍ في ركن الرَّدْهة، وهكذا أخذتُ العصا سيدي.»

قال سبارجو: «فهمت. شرْحُك واضح. وبعد أن ضربتَ بها الأبسطة، ماذا حدث؟»

ابتسم موليسون الابتسامة الخافتة مجددًا.

وقال: «حسنًا يا سيدي، نظرتُ إلى العصا وأدركتُ أنها فريدة من نوعها. وخاطَبتُ نفسي قائلًا إن السيد أندرسون هذا لديه مجموعةٌ من العِصِيِّ وعكاكيزِ المشي، ولن يُلاحِظ فقدانَ هذه العصا القديمة. فتركتُ العصا في أحد الأركان بعد أن فرغتُ من نفض الأتربة عن الأبسطة، وعندما هممتُ بالانصراف ولملمتُ أشيائي أخذتُها معي.»

قال سبارجو: «أخذتَها معك؟ لتحتفظ بها باعتبارِها من المقتنَيات الغريبة، صحيح؟»

تحوَّلَت ابتسامةُ موليسون الخافتة إلى نظرةِ لؤم. بدا أن توتُّرَه قد خبا وأوحى صوتُه والأخبار التي حملها بالثقة.

وقال: «كلا! الأمرُ يا سيدي أني كنتُ أعرف رجلًا عجوزًا في تمبل — لا أعلم إن كان لا يزال هناك أم لا؛ إذ لم أذهب إلى هناك منذ ذلك الحين — وكان هذا الرجل يجمع التحفَ القديمة. وكنتُ قد بِعتُه أشياءَ قديمة غريبة عدة مرات. وبالطبع كان الرجل في بالي عندما أخذتُ العصا، أفهمتَ؟»

قال سبارجو: «فهمتُ، وأخذتَ العصا إليه؟»

رد موليسون: «أخذتُها إليه على الفور. وقصَصتُ عليه أن عمي سايمون اشتراها من بلد أجنبي، وليس لي عمٌّ اسمه سايمون في الحقيقة. وأقنعته أنها تحفةٌ نادرة، وربما كانت كذلك حقًّا، مَن يدري؟»

قال سبارجو: «أنت محق. وأثارت العصا إعجابَ العجوز، صحيح؟»

أجاب موليسون وهو يغمز: «لقد اشتراها على الفور.»

سأل سبارجو: «اشتراها على الفور إذن. وكم دفع لك ثمنًا لها؟ أتمنى أن يكون مبلغًا كبيرًا.»

رد موليسون: «دفع جُنيهَين، بعدما تظاهَرتُ بالتردُّد في التفريط فيها بأقلَّ من ذلك.»

قال سبارجو: «حسنًا جدًّا. وهل يُمكِنك إخباري باسم العجوز وعنوانه يا موليسون؟»

رد موليسون: «نعم سيدي، لقد كان مكتوبًا على بابه، وهو الباب الخامس أو السادس في زقاق ميدل تمبل. اسمه السيد نيكولاس كاردلستون، في الطابق الأول.»

قام سبارجو من كرسيِّه دونَ أن ينظر إلى بريتون.

وقال: «تعالَ معي يا موليسون. سنُجرِي الترتيبات لتحصل على جائزتك. أستأذنك للانصراف يا بريتون.»

انتظر بريتون وحده نصفَ ساعة. ثم عاد سبارجو.

وقال: «هكذا انتهينا من إحدى المهام يا بريتون. وها قد حان وقتُ المهمة التالية. لقد أصدرتْ وزارة الداخلية أمرَ فتحِ القبر الذي في ماركت ميلكاستر. سأذهب إلى هناك على الفور، وأظنك ستُرافِقني. لكن تذكَّرْ: إذا كان القبر خاليًا ...»

قاطَعَه بريتون: «إذا كان القبر خاليًا، فسأُخبرك بأشياءَ كثيرة.»

الفصل الثاني والثلاثون

محتويات التابوت

قُرْبَ انتهاء ذلك النهار، سافَر إلى ماركت ميلكاستر سبارجو وبريتون ومسئولو وزارة الداخلية المكلَّفون بفتح قبر تشامبرلين ومحامي إجراءات يُمثِّل مالكَ صحيفة «ووتشمان». وصلوا إلى البلدة الصغيرة في وقتٍ متأخر من المساء، وبالرغم من تأخُّر الوقت تفقَّدَ سبارجو رَدْهةَ فندق يلو دراجون وتأكَّدَ من أن السيد كوارتربيدج قد غادَرها لتوِّه عائدًا إلى منزله، ولما اطمأنَّ لذلك اصطحب بريتون وقطعا الشارعَ في طريقهما إلى منزل السيد العجوز. خرج السيد كوارتربيدج بنفسه إلى الباب وتعرَّفَ على سبارجو على الفور. وأبى إلَّا أن يُضيِّفهما؛ إذ قال إن أسرته قد هجعَت لكنه أراد أن يحتسيَ مشروبًا ليليًّا أخيرًا ويُدخِّن سيجارًا، وأصرَّ على أن يُشارِكاه في ذلك.

قال سبارجو وهما يتبعان العجوز إلى غرفة الطعام: «إذن سنمكث دقائقَ قليلةً فقط يا سيد كوارتربيدج. علينا الاستيقاظ عند الفجر. وقد تريد أنت أيضًا الاستيقاظَ في الوقت المبكر نفسِه.»

نظر السيد كوارتربيدج في استفهامٍ وهو يُمسِك بقنينة الشراب.

وقال مستغربًا: «عند الفجر؟»

قال سبارجو: «الأمر أن قبرَ تشامبرلين سيُفتَح عند الفجر. تمكَّنَّا من استصدارِ أمرٍ من وزير الداخلية لنبْشِ القبر ومعايَنة جثمان تشامبرلين، جاء المسئولون المكلَّفون بذلك معنا على متن القطار نفسه، وسنَبِيت كلنا في فندق يلو دراجون معًا. لقد ذهب المسئولون للقيام بالترتيبات اللازمة مع السلطات. وسيُفتَح القبر عند الفجر أو بعده بأقصرِ وقتٍ ممكن. أفترِض أنك بعد أن علمتَ بذلك الآن قد تود المجيء، أليس كذلك؟»

قال كوارتربيدج: «ليُبارِكَّ الرب! أحقًّا تمكَّنتَ من الترتيب لذلك؟! حسنًا، إذن سنعرف الحقيقةَ أخيرًا بعد كل هذه السنوات. أنت شاب رائع حقًّا يا سيد سبارجو. وماذا عن رفيقك هذا؟»

نظر سبارجو إلى بريتون، وكان بريتون قد وكَّله بالحديث، ثم قال سبارجو: «سيد كوارتربيدج، هذا الشابُّ هو بلا شكٍّ ابنُ جون ميتلاند. إنه المحامي الشاب رونالد بريتون الذي أخبرتُكَ عنه، لكن لا شكَّ في هُوِية والِدَيْه. تفضَّلْ بمصافَحته وتمنَّ له التوفيق.»

وضع السيد كوارتربيدج القنينة والكأس، وأسرعَ بمدِّ يده لمصافَحة بريتون.

وقال: «أيها الشاب العزيز! تُسعِدني مصافَحتك بالتأكيد. وأتمنى لك التوفيق، كما لم أتمنَّ إلا التوفيق والسداد لأبيك المسكين. لقد غرَّر به تشامبرلين. يا لها من ليلة حافلة بالمفاجآت! لكن ماذا إن تبيَّنَ أن التابوت خالٍ يا سيد سبارجو؟»

أجاب سبارجو: «في هذه الحالة أتوقَّع أن أتمكَّنَ من الإيقاع بالرجل الذي كان من المفترَض أن يكون جثمانُه فيه.»

جلسوا جميعًا حول مدفأة السيد كوارتربيدج في حميميَّة، وبعد ذلك بدقائقَ قليلةٍ قال بريتون: «أتعتقد أنَّ أبي وقع ضحيةً لاحتيال ذلك المدعو تشامبرلين، يا سيدي؟ أتعتقد أن ذلك الرجل خدَعَه؟»

هزَّ السيد كوارتربيدج رأسَه في وجوم.

وأجاب: «لقد كان تشامبرلين أيها الشاب العزيز رجلًا جادًّا ذكيًّا. لم يعرف أحدٌ عنه شيئًا قبل أن يَفِد إلى هذه البلدة، ولم يَمضِ على وجوده بين ظَهْرانَيْنا وقتٌ طويل حتى تمكَّنَ من كسب ودِّ الجميع، كان ذلك لغرضٍ في نفسه بالطبع. أنا متيقِّن تمامًا من أنه تمكَّن من التلاعُب بأبيك كخاتَمٍ في إصبعه الصغير. وكما قلت للسيد سبارجو وهو يُجرِي تحرِّياته منذ مدة، ما كنتُ لأُفاجَأ البتة إن سمعتُ أن كل الأموال التي كانت محلَّ النزاع ذلك الحينَ انتهى بها المطاف في جيبه. يا إلهي! أتعتقد بالفعل أن تشامبرلين على قيد الحياة يا سيد سبارجو؟»

أخرج سبارجو ساعته. وقال: «سنعرف ما إذا كان مدفونًا في ذلك القبر أم لا قبل ستِّ ساعات من الآن يا سيد كوارتربيدج.»

لو كان سبارجو قد تحدَّث عن أربعِ ساعات بدلًا من ستٍّ لَما جانَبَه الصواب، فقد كان الليل قد قارَب منتصفه في ذلك الوقت، وقبل الثالثة خرَج من فندق يلو دراجون سبارجو وبريتون والرجال الآخرون الذين جاءوا معهم من لندن وانطلقوا في طريقهم

إلى المقابر التي ما إنْ يخرج قاصِدوها من البلدة حتى يبلغوا وجهتَهم. كانت تباشيرُ الفجر الوليد تَظهر على استحياءٍ فوق التلال من جهة الشرق، وانتشر ضبابٌ أبيضُ فوق المستنقعات الممتدة بين ماركت ميلكاستر والبحر، وتدلَّت فوق أشجار السرو والأكاسيا التي انتشرت في المقابر شِباكُ العنكبوت. عمَّ من حولهم سكونٌ كسكونِ سُكانِ القبور من تحتهم. والتفت المسئولون عن الترتيبات لعملهم في هدوء، في حين تحلَّقَ حولهم في سكونٍ مَن لم يجدوا شيئًا يفعلونه.

قابَلهم العجوز كوارتربيدج عند بوابة المقابر مبتهجًا نشيطًا على الرغم من أنه لم يحظَ بكفايته من الراحة، وهمس قائلًا: «في سنين عمري الطويلة التي تجاوَزت التسعين لم أشهد هذا الذي نحن بصدده من قبلُ. يبدو اقتحامُ المثوى الأخير لرجلٍ ميت أمرًا بالغَ الغرابة من رأيي.»

قال سبارجو: «هذا إن وُجِد الرجل الميت في مَثْواه الأخير بالفعل.»

كان سبارجو نفسه مهتمًّا بتفاصيلِ عمليةِ فتح القبر هذه، لم يُؤنِّبه ضميرُه ولا ثارت عواطفُه ولا خالجَته أيُّ مشاعرَ من ذلك القَبيل حيالَ التطفُّل على الموتى. وقف يُراقِب كل شيء. طوَّق الرجالُ المكلَّفون من السلطات المحلية محيطَ القبر بقماشٍ حاجب، وتمت الإجراءات في خصوصية تامة؛ إذ كُلِّف رجلٌ بالمرابَطة في المكان لإبعاد أيِّ مارة مبكرين قد تجذب انتباهَهم الإجراءاتُ الاستثنائية. في بداية الأمر لم يسَع أحدًا سوى الانتظار، وشُغِل سبارجو نفسه بالتفكير في أن كل حفنةٍ من التراب ترفعها الجواريف من القبر تُقرِّبه من الحقيقة، وانتابه حَدْسٌ قويٌّ بأن حقيقةَ قضية ماربري ستتكشف له في مرحلة أو أخرى. إذا احتوى التابوت الذي يحفرون لاستخراجه على جثمانِ سمسارِ الأسهم تشامبرلين، فسيتبدَّد معظمُ فرضيته الأخيرة. أما إذا تبيَّنَ خلوُّ التابوت، فتلك نقرةٌ أخرى.

همس بريتون: «وصَلوا إلى التابوت.»

اشرأبَّت أعناق الجميع نحو القبر على الفور. كان العمال قد حفروا حتى وصلوا إلى التابوت استعدادًا لرفعه، وأخذ أحدهم يُزيح الترابَ عن اللوح المكتوب عليه الاسم. عندئذٍ كان ضوء الشمس قد زاد سطوعه فتمكَّنوا جميعًا من قراءة المكتوب:

جيمس كارترايت تشامبرلين
وُلِد سنة ١٨٥٢
تُوفِّي سنة ١٨٩١

ابتعد سبارجو في حين بدأ الرجال في رفع التابوت من القبر.

وهمس لبريتون: «سنعرف الآن! ولكن ماذا سنعرف إن كان ...»

قال بريتون: «إن كان ماذا؟ إن كان ... ماذا؟»

اكتفى سبارجو بهزِّ رأسه. كانت هذه اللحظة من أعظم اللحظات التي كان يعمل من أجلها مؤخرًا، وكانت تَبِعاتها هائلة.

همس محامي صحيفة «ووتشمان»: «والآن حان الوقت. تعالَ يا سيد سبارجو، سنرى الآن.»

تحلَّقوا جميعًا حول التابوت الموضوع على حامِلَين منخفِضَين بجانب القبر، في حين بدأ العمَّال يفكُّون المسامير. كان الصدأ قد طال المسامير في الفتحات التي استقرَّت فيها، فاحتكَّت بشدة بينما ظل الرجال يُحاولون فكَّها بصعوبة. وبدا لسبارجو أن حركة الرجال كانت تتباطأ كلما مرَّ الوقت، فبدأ يتململ. وأخيرًا سمع صوتًا آمِرًا.

«ارفعوا الغِطاء!»

تولَّى رجلان يقف كلٌّ منهما عند أحد طرَفَي التابوت رفْعَ الغطاء؛ رفعاه بحركة مفاجئة سريعة، ومدَّ المتحلِّقون حول التابوت أعناقَهم في حركة سريعة.

نُشَارة خشب!

كان التابوت مليئًا حتى حافته بنُشارة الخشب المضغوطة بإحكام. كان سطحها ناعمًا لا انبعاجَ به، فقد تولَّت يدُ شخصٍ ما تسويتَها منذ سنوات طوال. لم يَجِدوا أنفسَهم بمعية الموت، بل بمعية الخداع.

انطلقت ضحكة خافتة. فكسر صوتَها جلالُ الموقف. والتفت كبيرُ المكلَّفين بفتح التابوت مبتسمًا.

وقال الرجل: «من الواضح أن أسبابَ الشكِّ كانت قوية. ليس هناك جثمانٌ أيها السادة.» والتفت إلى العمال وأضاف: «لنفتِّش النُّشَارة ونتأكد ألَّا شيء تحتها. أفرِغوها!»

بدأ الرجال يغترفون من النشارة بأيديهم، وأراد أحدهم أن يتأكَّدَ من خلوِّ التابوت، فدَسَّ أصابعَه في أماكن عديدة على امتداده. وبعد ذلك ضحك هو الآخَر.

وقال: «التابوت معبَّأ بالرَّصاص لتثقيل وزنه. انظروا!»

أزاح النُّشَارةَ جانبًا، وأرى المحيطين به أن قضبانًا من الرصاص كانت مثبَّتةً عند طرَفَي التابوت ومنتصفِه بدلًا من الجثمان.

وقال: «لقد جُهِّزت الخدعة بإتقان. أترَون كيف وُزِّعت هذه الأوزان. عندما يُوضَع جثمان في تابوت يكون معظمُ وزنه في الطرف الذي تستقرُّ فيه الرأس والجذع. وكما ترون هنا: قضيبُ الرصاص الأثقلُ في المنتصف، والأخفُّ عند القدمَين. ذكي!»

قال أحد المجتمعين: «أفرِغوا كلَّ النشارة. لنتأكَّد من أنْ لا شيءَ آخَر في التابوت.»

وبالفعل كان في التابوت شيءٌ آخر. رِزْمتان من الأوراق مستقرَّتان في قعره وملفوفتان بشريطٍ وردي. أبدى القانونيُّون الحاضرون اهتمامًا شديدًا بهذه الأوراق. وكذلك سبارجو الذي سحب معه بريتون وشقَّ طريقَه إلى حيث كان مسئولو وزارة الداخلية والمحامي الذي أرسلَتْه صحيفة «ووتشمان» يَفْحصون المُكتشَفات في تعجُّل.

كانت رِزْمة الأوراق الأولى على ما بدا ذاتَ صلةٍ بصفقات أُجرِيت في ماركت ميلكاستر؛ لمح سبارجو أسماء كان يألفها، منها اسم السيد كوارتربيدج. لم يندهش لذلك على الإطلاق. لكنه اندهش بشدةٍ عندما فُضَّت رِزْمةُ الأوراق الثانية فكشفت عن وثائقَ ذاتِ صلةٍ بكلاودهامبتون وجمعية هيرث آند هوم للمساعَدة في حالات المرض والموت. ألقى نظرةً سريعة عليها، ثم انتحى ببريتون جانبًا.

وقال متعجبًا: «يبدو لي أننا وجدنا أكثرَ مما توقَّعنا بكثير. ألم يقُل إيلمور إن المجرمَ الحقيقي في قصة كلاودهامبتون شخصٌ آخر، موظف لديه أو شيء من هذا القبيل؟»

وافَقه بريتون: «هذا صحيح. وأصرَّ على ذلك.»

قال سبارجو: «لا بد أن تشامبرلين هو ذلك الرجل إذن. جاء إلى ماركت ميلكاستر من الشمال.» والتفت إلى المسئولين وسأل: «ماذا سيُفعَل بهذه الأوراق؟»

رد كبيرهم: «سنحزمها على الفور ونأخذها إلى لندن. ستكون في مأمنٍ هناك، لا تقلق يا سيد سبارجو. لا نعرف ما قد تكشف عنه.»

قال سبارجو: «هذا صحيح تمامًا. لكن يجدر بي أن أخبرك أن لديَّ اعتقادًا قويًّا أنها ستكشف أكثرَ بكثير مما يخطر ببالِ أحد، فَلْتعتنوا بها للغاية.»

بعد ذلك أسرع سبارجو باصطحاب بريتون إلى خارج المقابر دون أن ينتظر أيَّ حديثٍ إضافي من أحد. وعند البوابة أمسك بذراعه.

وقال: «حان الوقت يا بريتون! أخبِرني بما لديك!»

قال بريتون: «أخبرك بماذا؟»

قال سبارجو: «لقد وعدتَ بأن تخبرني بشيءٍ ما ... بل بالكثير ... إذا وجدنا التابوت خاليًا. وها قد وجدناه خاليًا. أخبِرني بسرعة!»

قال بريتون: «حسنًا. أعتقد أني أعرف أين يُمكِن أن يكون إيلفيك وكاردلستون. هذا فقط ما لديَّ.»

قال سبارجو: «فقط؟ هذا يكفي. أين هما إذن؟»

رد بريتون: «يمتلك إيلفيك مكانًا صغيرًا غريبًا يَقصده هو وكاردلستون في بعض الأحيان للصيد، يقع في أحد أغرب أجزاء مستنقَعات يوركشاير. أتوقَّع أن يكونا هناك. فلا أحدَ هناك يعرف اسمَيْهما حتى … يُمكِنهما أن يتوارَيا عن الأنظار فيه لسنين.»

قال سبارجو: «أتعرف الطريقَ إليه؟»

ردَّ بريتون: «نعم، فقد زرته.»

أشار إليه سبارجو ليُسرِع.

وقال: «هيا بنا إذن. سنستقلُّ أولَ قطار يتوجَّه إلى هناك. أعرف القطار أيضًا. لا وقتَ لدينا إلا لتناوُلِ الإفطار وإرسالِ برقيةٍ إلى صحيفة «ووتشمان»، بعد ذلك ننطلق إلى هناك. يوركشاير! رباه! إنها تبعد عن هنا أكثرَ من ثلاثمائة ميل يا بريتون!»

الفصل الثالث والثلاثون

شخص يسبقنا

بعد أن أمضى سبارجو وبريتون يومًا صيفيًّا طويلًا في السفر من جنوبي غرب إنجلترا إلى وسطها، ثم من الوسط إلى الشمال، وصلا في وقت متأخرٍ من الليل إلى محطة هوز التي تقع على حدودِ يوركشاير مع ويستمورلاند، فوجَدا حولهما من كل اتجاهٍ مرتفعاتٍ كبيرةً تتطاول في الظلام، وتميِّز هذا الامتدادَ الموحش من الأرض. في هذه الساعة من الليل التي عمَّ فيها سكونٌ غريب لم يَقْطعه إلا هديرُ شلالٍ قريب كان المشهد مهيبًا وموحيًا؛ شعر سبارجو كما لو أنهما ابتعدا عن لندن بملايين الأميال، وأنَّ صخبَ حياة البشر والتدافُعَ الذي يَسِمُها إنما هما في كوكب آخَر. كانت عيناه تقع بين الفينة والأخرى على أضواء قليلة متباعِدة بين الوديان، بعضها كان يرتعش ثم ينطفئ وهو يُراقِبها. كان من الواضح أنه هو وبريتون سرعان ما سيكونان وحدهما لا ثالثَ لهما إلا سواد الليل البهيم.

بينما كانا يخرجان من المحطة سأل سبارجو: «كم نبعد عن وِجهتنا؟»

فأجاب بريتون: «يُفضَّل أن نناقِش الوضع. المكان في وادٍ ضيِّق يُسمى فوسديل، يبعد عن هنا نحو ستة أو سبعة أميال عبر هذه المرتفعات، والطريق إلى هناك وعرٌ ومُوحش لا يجد مُحبٌّ للمغامَرة أفضلَ منه. الساعة الآن التاسعة والنصف يا سبارجو، وأعتقد أن الطريق سيستغرق منا ساعتَين ونصفَ الساعة على الأقل. السؤال الآن هو: هل نتوجَّه إلى هناك مباشَرةً أم نبيت هنا الليلة؟ هناك فندق صغير في هذه المحطة، فندق مور كوك الذي يبعد عن هنا ميلًا تقريبًا على الطريق الذي ينبغي أن نسلكَه قبل أن ننعطف نحو المستنقَعات والمرتفعات. سيكون الظلامُ حالكًا الليلةَ ... انظر إلى هذه السُّحُب الداكنة الآخِذةِ في التجمُّع هناك! وربما يسقط المطر، وليست معنا ملابسُ تَقِينا المطر. لكني سأدَعُ القرارَ لك ... لن أُمانِع أيَّ شيءٍ تريد.»

سأل سبارجو: «هل تعرف الطريق؟»

رد بريتون: «لقد قطعتُه من قبل. لو كنا في النهار لَأمكنَني الذَّهاب مباشَرة. أتذكَّر كلَّ مَعالم الطريق. وحتى في الظلام أعتقد أنَّ بإمكاني الاهتداءَ إلى الطريق الصحيح. لكن المشي في هذا الطريق مُتعِب.»

قال سبارجو: «لنذهب إلى هناك مباشَرة. كل دقيقة لها قيمتها. لكن ... هلا تناوَلْنا بعضَ الخبز والجبن وكوبًا من الجِعَة أولًا!»

قال بريتون: «فكرة جيدة! لنذهب إلى فندق مور كوك. ولنحثَّ الخُطى إليه.»

كان فندق مور كوك مهجورًا تقريبًا في تلك الساعة؛ فقد ندر شاغِلوه أو انعدموا عندما وصل المسافران إلى الرَّدْهة ذات الإضاءة الخافتة. ولما جاءهما صاحبُ الفندق بالمشروب المطلوب أنعم النظرَ في بريتون.

ابتسم الرجل فجأةً لما عرف بريتون وقال له: «جئتَ لزيارتنا مجدَّدًا سيدي؟»

رد بريتون: «تتذكَّرني إذن؟»

رد صاحب الفندق: «أتذكَّر مجيئك إلى هنا مع الرجلَين الكبيرَين العامَ الماضي. سمعتُ أنهما عادا إلى هنا ... كان توم سامرز قادمًا من ذلك الطريق صباحَ اليوم وقال إنه رآهما في الكوخ الصغير. هل ستلحق بهما هناك يا سيدي؟»

ركل بريتون سبارجو من تحت الطاولة.

وقال: «نعم، سنُمضِي معهما يومًا أو يومَين. لنتنسَّم هواء الأراضي العشبية.»

قال الرجل: «أمامكما تمشية ليست بالهيِّنة الليلةَ أيها السيدان. ستهبُّ عاصفة. ومن الصعب قطْعُ ذلك الطريق في هذا الوقت الليلة.»

قال بريتون في عدم اكتراث: «سنتدبَّر أمورَنا. أعرف الطريق، ولا نخشى البلل.»

ضحك صاحبُ الفندق، ثم جلس على مقعدٍ عريض وثَنى ذِراعَيه وحكَّ كوعَيه.

وقال: «لقد جاء إلى هنا بعد ظُهر اليوم رجلٌ ... يبدو من لكنته أنه من لندن ... وسأل عن الطريق إلى فوسديل. لا بدَّ أنه الآن قد وصل إلى هناك منذ وقتٍ طويل، فقد اهتدى في مشيه بنور النهار. أيُصادِف أن يكون من جماعتكم؟ سأل عن مكانِ كوخ السيدَين العجوزَين.»

سرَت القُشَعريرةُ في جلد سبارجو مجددًا، لكنه لم يُبدِ تأثُّرًا. وأجاب بريتون: «قد يكون أحد أصدقائهما. كيف كان شكله؟»

فكَّر صاحب الفندق مليًّا. لم يكن بارعًا في الوصف، وكان يَعِي هذه الحقيقة.

ثم قال: «كان رجلًا مائلًا للسُّمرة تبدو على وجهه الجدية. إنه غريب عن هذه الأرجاء على كل حال. كان يرتدي بِذلةً رمادية تُشبه بذلةَ صديقك هذا. أخذ معه بعضَ الخبز والجُبن عندما علم بطول الطريق.»

قال بريتون: «تصرُّفٌ حكيم.» وأنهى خبزَه وجبنتَه وشرب ما تبقَّى معه من مشروب الجعة، ثم خاطَب سبارجو: «هيا، لنتحرَّكْ.»

ولما خرجا إلى الظلام الحالك، أمسك بريتون بذراع سبارجو. وقال: «مَن يكون ذلك الرجل؟ هل لديك فكرةٌ يا سبارجو؟»

أجاب سبارجو: «كلا. كنتُ أفكِّر في ذلك حينما كان ذلك الرجل يتحدَّث. لكنه شخصٌ سبقنا إلى وجهتنا. ليس راثبري على أي حال؛ إذ لا تبدو الجديةُ على وجه راثبري. يا إلهي! كيف سترى الطريقَ في هذا الظلام يا بريتون؟»

رد بريتون: «سترى بعد قليل. سنمشي مع الطريق بعضَ الوقت. ثم نصعد من جانب المرتفع هناك. وإذا بلَغنا قِمتَه وصَفَتْ سماءُ الليل قليلًا، فمن المفترَض أن نرى مرتفعَ جريت شانور ومرتفعَ لافلي سيت. يبلغ ارتفاعُ كلٍّ منهما أكثرَ من ألفَي قدمٍ ويظهران في الأفق بوضوح. عندئذٍ علينا أن نتَّجِه إلى نقطةٍ بينهما. لكن حذارِ يا سبارجو، فهذه الطريق وعرة!»

قال سبارجو: «امضِ قُدمًا. لم أُقدِم على شيء مثل هذا من قبل، لكننا سنمضي فيه ولو استغرق منَّا الليل كلَّه. لا يُمكِنني النومُ الآن وقد علمتُ أن شخصًا ما سبقَنا. تقدَّم أيها الشاب وأنا سأتبعك.»

انطلق بريتون في الطريق لا يلوي على شيء. كان الأمر سهلًا في البداية، غير أنه عندما انعطف وبدأ يَصعد المرتفعَ عبر مسار يبدو أنه للأغنام، بدأَت متاعبُ سبارجو. فقد بدا له أنه يمشي وسط كابوسٍ متجسد، كان كل ما يراه أكبرَ حجمًا وأثقلَ وطأةً؛ السماء الداكنة، والخطوط التي ترسمها قِممُ المرتفعات العالية، وأشجار التنوب والصنوبر التي بدَت كأشباحٍ هزيلة، وشبح بريتون وهو يمضي إلى الأمام في ثباتٍ وثقة. تارةً يَطأ أرضًا ليِّنة كالإسفنج، وتارةً يَطأ أرضًا حجرية وعرة؛ تعثَّر عدةَ مرات في نباتات الخلَنْج الممتدة كالأسلاك فسقط وأصاب ركبتَيْه. وفي النهاية اكتفى بتعليقِ عينَيه ببريتون الذي ارتسمت قامتُه على أديم السماء، وتبع خُطاه في إصرار.

وبعد صمتٍ طويل سأل سبارجو: «ألم يكن هناك طريقٌ غيرُ هذا؟ هل تريد أن تخبرني أن إيلفيك وكاردلستون سلَكا هذا الطريق؟»

رد بريتون: «هناك طريقٌ آخَر على طرف الوادي، عبر جسر ثوايت وهاردرو، لكنه يمتدُّ لأميال كثيرة. أمَّا هذا الطريق فهو طريق مستقيم يقطع البلدة، والمشي فيه ممتعٌ في النهار. أما في الليل فهذا شأن آخَر ... يا إلهي ... ها قد بدأ المطر يا سبارجو!»

هطل المطر فجأةً وبغزارةٍ شديدة وعنفٍ كالمعتاد في هذا الجزء من العالم. وتغيَّرَ لون الليل الرمادي، ولم يُفكِّر سبارجو إلا في وقفته وحيدًا في البراح الموحش تكاد غزارةُ المطر تُغرِقه. أمَّا بريتون فقد كان نظره أكثرَ حدةً، ووعيه بالموقف أكبر، فسحَبَ رفيقه لِيَأويا إلى مجموعة من الصخور. وضحك بخفةٍ وهما يتقاربان في مأواهما المؤقت.

وقال: «هذا يختلف عن إجراء أعمال التحقيقات في شارع فليت يا سبارجو. أظنك كنتَ تُفضِّل مواصَلةَ السير.»

أجاب سبارجو: «سأواصِل ولو اضطُررنا إلى اجتيازِ الشلالات والفيضانات. لولا أن علمنا بأمرِ ذلك الرجل الذي سبقنا لَمِلتُ إلى المبيت في فندق مور كوك. إذا كان يسعى للوصول إلى الرجلَين فلا بدَّ أنه يعرف شيئًا ما، ما لا أفهمه هو ... مَن عساه يكون؟»

رد بريتون: «أنا أيضًا لا أعرف. ولا أتذكَّر أيَّ شخصٍ يعلم بأمر ذلك المكان المنعزل. لكن، هل خطر ببالك يا سبارجو احتمالُ أن يكون هناك شخصٌ غيرك يُحقِّق في الأمر؟»

رد سبارجو: «هذا محتمل. مَن يدري؟! ليتنا انطلقنا مبكرًا ببضع ساعات. فقد كنت أريد أن أكون أولَ مَن يتحدَّث مع ذَينِك الرجلَين.»

توقَّف المطر فجأةً كما بدأ هطوله فجأة. ولم تلبث السماء أن صَفَت. فتقدَّم الرجلان إلى قمة الامتداد الصخري الذي كانا يعبرانه قبل هطول المطر، ومدَّ بريتون ذراعَه يشير إلى شيءٍ يلمع في الأسفل على مَبْعَدة منهما.

وقال: «أترى ذلك؟ إنه مسطَّح مائي يفصل بيننا وبين كوترديل. نسير بحيث يكون على يميننا، ثم نصعد المرتفعَ الذي وراءه، وننزل منه إلى كوترديل، ثم نعبر سلسلتَين أخريَين من المرتفعات، ثم ننزل منها إلى فوسديل أسفل مرتفع لافلي سيت. لم تزل أمامَنا ساعتان ونصفُ الساعة من السير المرهِق يا سبارجو. أتعتقد أن بإمكانك المواصَلة؟»

صرَّ سبارجو أسنانه.

وقال: «هيا بنا!»

صعد سبارجو تلالًا، ونزل منها إلى وديان، وخاض في مستنقَعات حتى غمرت كاحلَيه، وجرح ساقَيه، وأصاب ركبتَيه، فتاق لأضواء لندن، وشوارعها الممهَّدة، وسيارات الأجرة المريحة، وحتى الحافلات العامة المتواضِعة، لكنه تبع دليلَه على أي حال. شعر

أنهما سارا وقتًا طويلًا جدًّا، واجتازا جبالَ قارةٍ كاملة ووديانها، وأخيرًا توقَّف بريتون على قمة مرتفع صخري تهبُّ عليه رياحٌ شديدة، ووضع إحدى يديه على كتف رفيقه وأشار بالأخرى إلى الأسفل.

وقال: «هناك! هناك!»

مدَّ سبارجو نظره وسطَ ظلام الليل. فرأى على مسافةٍ بدَتْ له كبيرة بصيصًا خافتًا من الضوء.

قال بريتون: «ها هو الكوخ، إنهما مستيقظان بالرغم من تأخُّر الوقت. والمسافة المتبقية هي الأصعب في الرحلة كلها. سيستغرق البحثُ عن المسار الذي يقطع هذا المستنقعَ وقتًا طويلًا يا سبارجو، اتبعني بحذر، فهناك حفرٌ ووحل في هذه الأرجاء.»

مرَّت ساعة أخرى قبل أن يصل الاثنان إلى الكوخ. كان الضوء الذي يقصدانه يختفي في بعض الأحيان أو تحجبه المرتفعات، وكلما عاد إلى مرمى نظرهما علما أنهما اقتربا قليلًا. والآن بعدما اقتربا منه كثيرًا وجد سبارجو نفسَه في مكانٍ لم يكن يتخيَّل لانعزاله مثيلًا. رأى في الضوء الخافت مجرًى مائيًّا ضيِّقًا يهبط بين صخور مرتفع جريت شانور. كانت قبالتهم أرض على شكل حدوة الحصان تُتاخم المستنقع، خلفَها حلقةٌ من أشجار التنوب والصنوبر، وكان وراء هذه الأشجار مبنًى صغيرٌ من صخور رمادية بدا كما لو أن راعيًا بناه ليكونَ حظيرةً لغنم المستنقع. لم يتجاوز ارتفاعُ المبنى طابقًا واحدًا، غير أنه كان طويلًا وحجبت الشجيراتُ والأغصان جزءًا كبيرًا منه. ونفَذ من نافذة لا يُغطِّيها أيُّ ستار ضوءُ مصباحٍ فبدَّد بعضًا من الظلام.

توقَّف بريتون عند حافة مياه المجرى المترقرقة.

وقال: «علينا أن نَعْبر من هنا يا سبارجو. لقد بلغ البلَلُ ركبتَي كلٍّ منا بالفعل، فلن يضرَّنا أن نبتلَّ مجددًا. هل تعلم منذ متى نمشي؟»

رد سبارجو: «ساعات … أيام … سنوات!»

قال بريتون: «أعتقد أننا تجاوَزنا أربعَ ساعات. وهكذا يكون الوقت قد تخطَّى الساعةَ الثانية بكثير، وسيبزغ الفجر بعد ساعة تقريبًا. والآن، ماذا نفعل بعد عبور هذا المجرى؟»

رد سبارجو: «ماذا جئنا لنفعل؟ سنذهب إلى الكوخ بالتأكيد!»

قال بريتون: «انتظر قليلًا. لا داعيَ لإفزاعهما. لا بد أنهما مستيقظان؛ إذ لا يزال الضوء مشتعلًا. انظر!»

وبينما كان يتحدَّث، عبَرَ شخص أمام النافذة وحجب الضوءَ أثناء مروره.

فقال سبارجو: «هذا ليس إيلفيك، ولا كاردلستون. فهما متوسِّطا القامة، لكن هذا الرجل طويلٌ إلى حدٍّ ما.»

قال بريتون: «إذن فهو الرجل الذي أخبرنا عنه صاحبُ فندق مور كوك. اسمع، أنا أعرف كلَّ شبرٍ في هذا المكان. عندما نعبر دَعْني أمضِ نحو الكوخ وأنظر من تلك النافذة لأعرف مَن في الداخل. هيا بنا.»

قاد بريتون سبارجو وعبَرا مجرى الماء على سلسلةٍ من الصخور تُكوِّن جسرًا طبيعيًّا، ثم طلب منه التزامَ الهدوء وتوجَّهَ إلى الكوخ. راقَبه سبارجو وهو يَعْبر الشجيرات والأعشابَ حتى وصل إلى شجيرةٍ كبيرة تفصل بين النافذة المضيئة والشرفة البارزة خارج الكوخ. لم يمكث بريتون عند تلك الشجيرة إلا لحظة، ثم عاد إلى رفيقه بسرعةٍ وهدوء. ووضع يدَه على ذراع سبارجو في إثارةٍ وتوتُّر.

وهمس: «سبارجو! مَن تتخيَّل أن يكون ذلك الرجل الآخَر؟»

الفصل الرابع والثلاثون

اليد العليا

لم يُطق سبارجو صبرًا على بلوغ غايته من رحلته الطويلة، فنفَض عن كتفه يدَ بريتون وزمجر ممتعضًا.

وقال منفعلًا: «كيف تتصوَّر أن أكون مستعدًّا لإهدار الوقت في التخمين؟ مَن يكون؟»

ضحك بريتون بصوتٍ هادئ.

وقال: «اهدأ يا سبارجو، اهدأ! إنه مايرست ... مسئول شركة صناديق الإيداع الآمنة، مايرست!»

جفَلَ سبارجو كما لو أن شيئًا لدغه.

وقال فيما يُشبه الصياح: «مايرست! مايرست! يا إلهي! كيف لم يخطر ببالي؟ مايرست، إذن ...»

قال بريتون: «وكيف يُمكِن أن يخطر ببالك؟ ومع ذلك ها هو هنا.»

خطا سبارجو خطوةً نحو الكوخ، فأمسك به بريتون يستوقفه.

وقال: «انتظر! علينا أن نُناقِش الأمر. الأفضلُ أن أخبرك بما يفعلون.»

سأل سبارجو في نفاد صبر: «ماذا يفعلون إذن؟»

أجاب بريتون: «إنهم يُراجِعون عددًا من الوثائق، يبدو العجوزان مُتعبَين جدًّا وهيئتهما مُزْرية. ويبدو أن مايرست يشرح لهما القانونَ بطريقة أو بأخرى. لقد تكوَّنتْ لديَّ فكرةٌ يا سبارجو.»

سأل سبارجو: «أي فكرة؟»

قال بريتون: «يعلم مايرست سرَّهما أيًّا كان، وقد تبعهما إلى هنا لابتزازهما. هذا ما أتصوَّره.»

فكَّر سبارجو قليلًا، وأخذ يتحرك جَيئةً وذَهابًا على ضفة النهر.

ثم قال: «أظنك مُحقًّا. والآن ما العمل؟»

فكَّر بريتون.

وأخيرًا قال: «ليتنا نستطيع الدخولَ والاستماع لما يحدث. لكن هذا مستحيل، فأنا أعرف الكوخ. الشيء الوحيد الذي يُمكِننا فعله هو الإيقاع بمايرست. لم يأتِ إلى هنا لخير. انظر!»

مدَّ بريتون يدَه نحو جيب بنطاله وسحب مسدسًا من نوع براوننج، وهزَّه في يده مبتسمًا.

وقال: «وهنا تأتي فائدةُ حملِ هذا. لقد أخذتُه ووضعتُه في جيبي منذ عدة أيام لا أعلم لماذا. وها قد ظهرتْ له فائدة. فقد يكون مايرست مسلَّحًا.»

قال سبارجو: «وماذا بعد؟»

رد بريتون: «اقترِبْ من الكوخ. وإذا تبيَّن أن الأمر كما أتوقَّع، فسيخرج مايرست بعد أن يأخذ ما يريد. وستذهب أنت إلى خلف هذه الشجيرة حيث كنتُ أنا منذ لحظات، وسأقف أنا عند المدخل. يُمكِنك أن تُومِئ إليَّ عندما يخرج مايرست وسأستوقفه أنا تحت تهديد السلاح. هيا يا سبارجو، فقد بدأ الفجر يبزغ.»

تقدَّم بريتون سبارجو وسارا مع ضفة النهر مختبئَين وراء الصفصاف وأشجار الألدر. وقطعا معًا المسافة إلى مقدمة الكوخ. ولما وصل بريتون إلى الباب توقَّف على الشرفة، وأشار إلى سبارجو أن يختبئ خلف الشجيرات وينظر من النافذة. نفَّذ سبارجو التعليمات في سكونٍ وأزاح الأغصانَ التي اختبأ وراءَها لينظر من زجاج النافذة التي لم يكُن عليها ستار.

لما نظر سبارجو إلى داخل الكوخ وجده خشنًا وغيرَ مريح على الإطلاق. لم يكُن فيه إلا أقل القليل من احتياجاتِ كوخٍ يقع بين المستنقعات؛ إذ رأى كراسي وطاولات صلبة، وجدرانًا مكسوَّة بالجص، وصنارة أو اثنتَين في أحد الأركان، وبقايا طعام على طاولة جانبية. جلس الرجال الثلاثة عند طاولة توسَّطت الغرفة. أخفى الظلامُ وجْهَ كاردلستون، وكان ظَهرُ مايرست موجَّهًا نحو النافذة، في حين كان العجوز إيلفيك يميل على الطاولة ويكتب مُتعَبًا بأصابعَ مرتعشة. التفت سبارجو إلى رفيقه.

وقال: «إيلفيك يُحرِّر شيكًا. ومايرست يُمسِك بشيك آخَر. استعِد! ... أعتقد أنه سيخرج بعد أن يأخذ هذا الشيكَ الآخَر.»

ابتسم بريتون بوجهٍ تعلوه الصرامة وأومأ برأسه. وبعد لحظةٍ همس سبارجو مجددًا.

«انتبه يا بريتون! ها هو يخرج!»

تراجَعَ بريتون إلى زاوية الشرفة، وترك سبارجو الشجيرةَ التي كان يحتمي بها ووقف عند الزاوية الأخرى. فُتِح الباب. وسمعا صوتَ مايرست يقول بنبرةٍ آمِرة مهدِّدة.

«تذكَّرا كلَّ ما قلتُ! ولا تنسيا ... لي اليدُ العليا عليكما ... اليد العليا!»

بعد ذلك التفت مايرست وخرج إلى غُبْشة الفجر، فوجد أمامَه شابًّا قويَّ البِنية يُصوِّب فوهةَ مسدسٍ مخيف إلى أرنبةِ أنفه من مسافةٍ لا تتجاوز بوصتَين في حزمٍ وثباتٍ شديدَين. وبنظرةٍ أخرى لمح شابًّا آخَر تبدو عليه الجديةُ والتحفز للانقضاض عليه.

قال بريتون بنبرة باردة وتهذيب مصطنع: «طاب صباحُك يا سيد مايرست. تُسعِدنا مقابَلتُك غيرُ المتوقَّعة هذه. أنا مضطرٌّ إلى أن أطلب منك رفْعَ يدَيك إلى الأعلى. أسرِع!»

حرَّك مايرست يدَه اليمنى بسرعةٍ نحو جانبه، لكن بريتون زمجر فجأةً فجعله يرفعها فوق رأسه بالسرعة نفسِها، ثم رفع يدَه اليسرى. وضحك بريتون بنعومة.

وقال ومسدسه لم يزل مصوَّبًا إلى أنف مايرست: «تصرُّفٌ حكيم يا سيد مايرست. سيكون الحذَر أفضلَ من الشجاعة بالنسبة إليك في هذا الموقف.» وخاطَب سبارجو: «سبارجو! هلَّا تفقَّدتَ ما يحمل السيد مايرست في جيوبه؟ فتِّشْها جيدًا. لا تبحث عن الأوراق والوثائق الآن، يُمكِننا تأجيل ذلك، فلدينا مُتَّسَع من الوقت. ابحثْ عن أي سلاحٍ من أي نوعٍ يا سبارجو، هذا هو الأهمُّ الآن.»

تفقَّدَ سبارجو ما يحمل الرجل بعناية وإتقان قلَّما يتأتيان لرجلٍ لم يسبق له تفتيشُ رجلٍ آخَر من قبل. وعلى الفور سحب منه مسدسًا، في حين صبَّ مايرست لَعناتِه بمرارةٍ وغزارة عليهما عندما تمكَّنَ من النطق.

ضحك بريتون مجددًا وقال: «رائع! هل أنت متأكِّد أنه لا يحمل أيَّ شيءٍ خطيرٍ آخَر يا سبارجو؟ حسنًا. والآن يا سيد مايرست، للخلف دُر! وسِر إلى داخل الكوخ رافِعًا يدَيك إلى الأعلى، تذكَّرْ أن هناك مسدسَين مصوَّبَين إلى ظهرك. هيا!»

أطاع مايرست هذا الأمر الحازم ولسانه لا يكفُّ عن السِّباب. ومضى الثلاثة إلى داخل الكوخ. في حين علق بريتون عينَيْه على أسيره، ألقى سبارجو نظرةً على العجوزَين. فوجد كاردلستون يستلقي في كرسيه شاحبًا ومرتعشًا؛ أمَّا إيلفيك الذي لم يقِلَّ عن صاحبه توترًا فقد نهض وتقدَّم بفرائصَ مرتعدة.

قال بريتون في هدوء: «انتظر لحظة. ولا تقلق. سنتعامل مع السيد مايرست هنا أولًا. والآن يا عزيزي مايرست، اجلس في هذا الكرسي، فهو الأثقل في هذا المكان. هيا،

الآن! سبارجو! أترى هذه اللفةَ من الحبال؟ قيِّدْ مايرست بها … اربطْ يدَيه وقدمَيه بهذا الكرسي بإحكام. واربطه جيدًا. اجعل العُقَد مزدوجةً يا سبارجو، وفي الخلف أيضًا.»

ضحك مايرست فجأة. وقال: «أيها الشابُّ المزعِج اللعين! إذا ربطتَني بالحبال فستلتفُّ حبالٌ أخرى حول رقبتَي هذَين العجوزَين المجرمَين. تذكَّروا ما أقول أيها الرفاق!»

رد بريتون ومسدَّسه لم يزل مصوَّبًا على مايرست في حين كان سبارجو يُمسِك الحبال: «سنُناقِش ذلك فيما بعد. لا تخشَ إيذاءَه يا سبارجو. اربطه جيدًا وبإحكام. لن يُحرك هذا الكرسي قبل مرور بعض الوقت.»

ربط سبارجو الرجلَ في الكرسي ربطةَ بحَّار. فترك مايرست عاجزًا عن تحريك يدَيه أو قدمَيه، ورد مايرست بإفراغِ قاموسِ مَسبَّاته كله عليه لما فعل به. وأخيرًا قال بريتون: «هذا يكفي.» ووضع مسدسَه في جيبه والتفت إلى العجوزَين. أشاح إيلفيك بنظره وجلس في كرسيٍّ في أكثر أركانِ الغرفة ظلامًا، أمَّا كاردلستون فقد ارتعش كالممسوس ولفظ بكلماتٍ لم يتبيَّنها الشابَّان. قال بريتون: «لا تخَفْ يا وَصِيِّي! ولا تقلقْ أنت أيضًا يا سيد كاردلستون. لا داعِيَ للخوف حتى الآن، أمَّا فيما بعدُ فلا عِلمَ لي بذلك. يبدو لي أني أنا والسيد سبارجو جئنا في الوقت المناسب. والآن يا وَصِيي، أخبِرنا بما جاء هذا الرجلُ في طلبه.»

رفع العجوز إيلفيك رأسَه وهزها، وبدا مُوشِكًا على البكاء، أمَّا كاردلستون، فقد كان واضحًا أن أعصابه قد انهارت. أشار بريتون إلى خِزانةٍ قديمة في زاوية الغرفة.

وقال: «سبارجو، أنا متأكِّد من أنك ستجد شرابَ الويسكي هناك. صبَّ لكلٍّ منهما كأسًا، فكلاهما منهار.» وعندما نفَّذ سبارجو ذلك التفت إلى إيلفيك قائلًا: «والآن يا وَصِيِّي، ما الذي جاء هذا الرجلُ في طلبه؟ هل اقترح شيئًا؟ أكان الأمر ابتزازًا؟»

أخذ كاردلستون يُتمتم، وأومأ إلفيك بالموافَقة. وقال: «نعم، نعم! ابتزاز! هذا ما حدث … ابتزاز. لقد أخذ منا وثائقَ مالية، إنها معه الآن.»

نظر بريتون إلى أسيره شَزرًا.

وقال: «هذا ما توقَّعت يا سيد مايرست.» وخاطَب سبارجو: «سبارجو، لنرَ ما معه من أوراق.»

بدأ سبارجو يفتِّش جيوبَ الأسير. ووضع على الطاولة كلَّ ما وجده معه كما وجده. كان واضحًا أن مايرست كان قد دبَّرَ للهروب أو لرحلة طويلة جدًّا. فقد كان معه عددٌ

من القِطَع الذهبية، والأوراق النقدية من فئات صغيرة، وأوراق مالية أجنبية متنوِّعة قابلة للصرف في باريس. وكان معه أيضًا شيك مفتوح بقيمةِ عشرة آلاف جنيه ممهور بتوقيع كاردلستون، وآخَر مفتوح أيضًا وممهور بتوقيع إيلفيك بنصف قيمة الأول. تفقَّدَ بريتون كلَّ هذه الأشياء في حين كان سبارجو يُسلِّمها إياه. ثم التفت إلى العجوز إيلفيك.

وقال له: «لماذا أعطيتَ أنت أو السيد كاردلستون لهذا الرجل هذَين الشيكَين والأوراقَ المالية؟ ما سرُّ سطوته عليكما؟»

أخذ السيد كاردلستون يُتمتم مجددًا، ونظر إيلفيك بوجهٍ مكفهرٍّ إلى ربيبه.

وقال متلعثمًا: «لقد هدَّدَنا بأن يتهمنا بقتل ماربري! ولم نجد ما يدفع عنا التهمةَ إذا فعل.»

قال بريتون حازمًا: «ماذا يعلم عن مقتل ماربري وصِلتُكما به؟ أخبِرني بالحقيقة الآن.»

أجاب إيلفيك: «يقول إنه كان يُحقِّق في الأمر. إنه يسكن في ذلك المبنى في زقاق ميدل تمبل، في الطابق الأعلى، فوق سكن كاردلستون. ويقول إن لديه أدلةً دامغة تُدين كاردلستون ... وتُظهِرني شريكًا في الجريمة.»

سأل بريتون: «وهل هذه كذبة؟»

رد إيلفيك: «كذبة! نعم، إنها كذبة بالطبع. لكنه كان بارعًا لدرجةِ أننا ... أننا ...»

قال بريتون: «لدرجةِ أنكما لم تجدا وسيلةً لإثبات كذبه. هذا الرجل يسكن فوق كاردلستون إذن، صحيح؟ هذا قد يُفسِّر الكثير. والآن لا بدَّ أن نستدعيَ الشرطة.» جلس بريتون إلى الطاولة وقرَّب موادَّ الكتابة وقال: «اسمع يا سبارجو. سأكتب إخطارًا لرئيس شرطة هوز ... هناك مزرعة تبعد عن هنا نصفَ ميل يُمكِنني فيها تكليفُ رجلٍ بحَمْل الإخطار إليه. إذا أردتَ أن تكتب خطابًا لصحيفة «ووتشمان» فصُغْه الآن وسيحمله الرجلُ معه.»

بدأ إيلفيك يتحرَّك في ركنه.

وقال: «هل لا بد من حضور الشرطة؟ هل ...؟»

رد بريتون بصرامة: «يجب أن تأتيَ الشرطة. اكتبْ خطابَك يا سبارجو، ريثما أكتب أنا الإخطار.»

وعندما عاد بريتون من المزرعة بعد ساعةٍ إلا الربع، جلس بجانب إيلفيك ووضع يدَه على يدِه.

وقال في هدوء: «والآن يا وَصِيي، لا بدَّ أن تُخبرنا بالحقيقة.»

الفصل الخامس والثلاثون

مايرست يشرح

لاحَظَ سبارجو بجِلاءٍ صدمةَ العجوزَين ورعبَهما منذ دخوله الكوخ؛ فقد جلس كاردلستون في ركنه يرتعش وترتعد فرائصه، وبدا عاجزًا عن شرحِ أيِّ شيء، ولم يكن إيلفيك أكثرَ من صاحبه قدرةً على الكلام. وعندما حثَّ بريتون وَصِيَّه بحزمٍ على الإفصاح عن الحقيقة، تدخَّل سبارجو.

وقال بصوت خفيض: «الأفضلُ أن نتركه وشأنه يا بريتون. أَلَا ترى توتُّر العجوز؟ وصاحبه أيضًا. لا نعلم ما فعله بهما هذا الرجل قبل أن نأتي، ولا شكَّ أنهما لم ينالا أيَّ قسطٍ من النوم. لنؤجِّل الأمرَ كله إلى وقتٍ لاحق، فالمهم أننا وجدناهما ووجدناه.» وأشار بإبهامه في اتجاه مايرست، فتبع بريتون إشارتَه عفويًّا. والتقت عيناه بعينَي مايرست الذي ضحك.

وقال بازدراء: «أظنكما تحسبان نفسَيكما شديدَي الذكاء. أليس كذلك؟»

رد بريتون: «كان ذكاؤنا كافيًا للإيقاع بك. والآن بعد أن أصبحتَ بين أيدينا سنُبقي عليك حتى تأتيَ الشرطة وتتسلَّمك منا.»

قال مايرست وهو يضحك في ازدراء مجددًا: «حقًّا. وبأي تهمةٍ تقترح تسليمي للشرطة؟ يبدو لي أنك ستجد صعوبةً في العثور لي على أيِّ تهمةٍ يا سيد بريتون.»

قال بريتون: «سنتدبَّر ذلك لاحقًا. وقد أخذتَ من هذَين الرجلَين مالًا بالإجبار والتهديد على أي حال.»

قال مايرست منفعلًا: «أهذا ما حدث حقًّا؟ كيف لك أن تعلم إن كانا قد ائتمناني على هذه الأموال واتخذاني وكيلًا لهما عليها؟ أجِبْني! أو دَعْهما يُجيبا إن كانا يجرُؤان. كاردلستون، إيلفيك ... ألم تعهدا إليَّ بهذه الأموال وتتَّخذاني وكيلًا لكما عليها؟ تحدَّثا الآن وبسرعة!»

راقَبَ سبارجو العجوزَين فوجدهما يرتعشان بفعل صوت مايرست، بل أخذ كاردلستون يَئِن.

قال سبارجو: «اسمع يا بريتون، هذا المجرم لديه ما يُهدِّد به هذين العجوزَين، إنهما يخشَيانه بشدة. اتركهما وشأنَهما. الأفضل أن يحظيَا ببعض الراحة.» والتفت إلى مايرست وقال: «أغلِق فمَك. سنُخبِرك عندما نريدك أن تتكلَّم.»

ضحك مايرست مجددًا.

وقال بنبرة الازدراء نفسِها: «السيد سبارجو الصحفي النابه الهُمام في صحيفة «ووتشمان»، ما أنت إلا شخصٌ آخَرُ من المُعتَدِّين برأيهم. وأنت ذكي جدًّا، لكن ليس بما يكفي. اسمع! بافتراض أن ...»

أولاه سبارجو ظهرَه. ثم توجَّه إلى العجوز كاردلستون وتحسَّسَ يدَيه. ثم نظر إلى بريتون في قلق.

وقال في انفعال: «اسمع. ليس خائفًا فحسب، بل مريضٌ أيضًا! ماذا نفعل؟»

رد بريتون: «لقد طلبتُ من الشرطة أن يُحضِروا معهم طبيبًا. وإلى أن يأتوا، فَلْنضعه في سريره ... هناك أَسِرَّة في الغرفة الداخلية. لنضعه في السرير ونعطِه مشروبًا ساخنًا يتناوله ... هذا كل ما أظننا نستطيع فعله الآن.»

تمكَّنَّا من أخذ كاردلستون إلى سريره، وغلى سبارجو بعضَ الماء على مَوقدٍ صَدِئ، ووضع على قدمَيه كمادات الماء الساخن متفائلًا. ولما فرغا من أمر كاردلستون أقنعا إيلفيك أن يستلقيَ في الغرفة الداخلية. غطَّ الرجلان في النوم على الفور، ثم أحسَّ بريتون وسبارجو فجأةً بجوعهما وبلَلِهما وتعبهما.

قال بريتون وهو يُفتِّش عن الطعام: «من المفترَض أن يكون في الخِزانة طعام. كان مِن عادتهما الاحتفاظُ بمخزونٍ من الأطعمة المعلَّبة. ها هي يا سبارجو ... هذه عُلَب من لحم اللسان والسردين. حضِّرْ بعضَ القهوة الساخنة ريثما أفتح أنا عُلبةً من هذه العُلَب.»

راقَب الأسير تحضيرات الإفطار البسيط بعينَين توَّاقتَين.

وقال بينما كان سبارجو يضع القهوةَ على الطاولة: «هل لي أن أُذكِّركما بأني جائع. وليس من حقكما تجويعي، يكفي أنكما تمكَّنتما من تقييدي. أعطياني شيئًا لآكله رجاءً.»

قال بريتون بلا اكتراث: «لن تموت جوعًا.» وقطع قطعتَين كبيرتَين من الخبز واللحم ووضعهما في طبق، وصبَّ فنجانًا من القهوة، ثم قرَّبَ الطبق والفنجان من مايرست. وقال لسبارجو: «فُكَّ ذراعَه اليمنى يا سبارجو. أعتقد أن بإمكاننا السماحَ له بذلك. معنا مسدسه على أي حال.»

جلس الرجال الثلاثة بعضَ الوقت يأكلون ويشربون في صمت. وأخيرًا أبعَدَ مايرست طبقه. ونظر إلى سبارجو وبريتون متفحِّصًا. وقال: «اسمع! أنت تظن أنك تعرف الكثيرَ عن هذه القضية يا سبارجو، لكنَّ هناك شخصًا واحدًا يعرف كلَّ شيء عنها. وهذا الشخص هو أنا!»

قال سبارجو: «نُقِرُّ لك بذلك. فقد أدركنا ذلك عندما وجَدناك هنا. ستحظى بفرصةٍ كافية للشرح لاحقًا.»

قال مايرست وهو يضحك بسخرية مجددًا: «سأشرح الآن إذا أردتما الإنصات. وسأخبركما الحقيقة. أعرف أن في ذهنكما فكرةً سيئةً عني، لكنكما مخطئان تمامًا، مهما كان ما تظنان. اسمعا ... سأعرض عليكما عرضًا عادلًا. هناك بعضُ أعواد السيجار في علبتي هذه، أعطياني واحدًا منها، وصبَّا لي كأسًا كبيرةً من هذا الويسكي، وسأُخبركما بما أعرف عن هذه القضية. هيا! أُفضِّل أيَّ شيء على الجلوس هنا لا أفعل شيئًا.»

تبادَل الشابَّان النظرات. ثم أومأ بريتون بالموافَقة. وقال: «لِندَعْه يتحدَّث إن أراد. ليس بالضرورة أن نُصدِّقه. ربما نسمع شيئًا حقيقيًّا. أَعْطِه السيجار والمشروب.»

أخذ مايرست رشفةً من الكأس التي وضعها سبارجو أمامه. وضحك وهو يسحب الأنفاسَ الأولى من سيجاره.

وقال: «لن أقول لكما سوى الحقيقة. بعد أن وصلَتِ الأمور إلى هذا الحال، ليس لديَّ سببٌ لإخفاء الحقيقة. وليس لديَّ شيءٌ أخشاه. لا يُمكِنكما اتهامي بشيء، فالأمر أن لديَّ توكيلًا من ذَيْنِكما العجوزَين النائمَين في الداخل لأتصرَّف بالنيابة عنهما في الأموال التي عهِدا إليَّ بها. التوكيلُ في الجيب الداخلي لعُلْبة الخطابات هذه. إذا اطَّلعتَ عليه يا بريتون فستعلم أنه سارٍ. لا أخشى حتى أن تُمزِّقه أو تعبث به، فأنت محامٍ، وستحترم القانون. وإذا كان لدى أيِّ شخصٍ أساسٌ للادِّعاء على الآخر، فأنا مَن يُمكِنني الادِّعاء عليكما بتهمتَي الاعتداء والاحتجاز غير القانوني. لكني لستُ انتقاميًّا، و...»

نظر بريتون إلى عُلبة خطابات مايرست وفحص محتوياتها. ثم التفت إلى سبارجو سريعًا.

وهمس: «إنه محق! هذا التوكيلُ سارٍ.» والتفت إلى مايرست وقال: «على أي حال، لن نُطلِق سراحَك؛ لأننا نعتقد أنك ضالعٌ في قتل جون ماربري. لذا فإن لنا عُذرَنا في احتجازك لهذا السبب.»

قال مايرست: «حسنًا يا صديقي الشاب. فَلْتَمضِ في غبائك. لكني قلت إني سأخبرك الحقيقةَ العارية. والحقيقةُ العارية هي أني لا أعرف عن قتل أبيك أكثرَ مما أعرف عما يجري الآن في تمبوكتو! لا أعرف مَن قتل جون ميتلاند. هذه حقيقة! ربما كان قاتِلُه هو العجوزَ النائم في الداخل الذي هو أيضًا في الرمَق الأخير الآن، وربما ليس هو. أقول لكما إني لا أعرف، بالرغم من أني، شأني شأنك يا سبارجو، حاوَلتُ اكتشافَ القاتل قدرَ ما استطعت. هذه هي الحقيقة، أنا لا أعرف.»

قال بريتون في انفعال وعدم تصديق: «أتتوقَّع منا تصديقَ ذلك؟»

رد مايرست: «إنها الحقيقةُ سواءٌ أصدَّقتماها أم لا. اسمع، لقد ذكرتُ أنْ ليس ثَمةَ أحدٌ يعرف أكثر مني عن هذه القضية، وهذه أيضًا حقيقة. إليكما ما أعرف. العجوز الذي في هذه الغرفة وتعرفانه باسم نيكولاس كاردلستون هو في الحقيقة تشامبرلين سمسار الأسهم ابن ماركت ميلكاستر، الذي ذُكِر اسمه عندما حُوكِمَ أبوك هناك. وهذه حقيقة أخرى!»

سأل بريتون في صرامة: «كيف ذلك؟ هل يُمكِنك أن تُثبِت ذلك؟ ما أدراك بذلك؟»

ردَّ مايرست وهو يرسم ابتسامة ماكرة: «لأني ساعَدتُ في إخراجِ تمثيليةِ وفاته ودفنه ... كنتُ محاميًا تلك الأيامَ، وكان اسمي ... اسمًا آخَر. كنا ثلاثةً نفَّذنا الأمرَ معًا: ابنَ أخي تشامبرلين، وطبيبًا مغمورًا، وأنا. نفَّذنا الأمرَ ببراعة شديدة، ودفع تشامبرلين خمسةَ آلاف جنيه لكلٍّ منا مقابل ذلك. لم تكن المرةَ الأولى التي أساعِده فيها ويدفع لي ثمنًا جيدًا نظيرَ مساعَدتي. كانت المرةُ الأولى في قضيةِ جمعية هيرث آند هوم للمساعَدة في حالات العجز والمرض بكلاودهامبتون، كان إيلمور — أو إينزوورث — بريئًا من أي جُرْم في هذا الشأن كبراءة الأطفال. غير أن حظَّ تشامبرلين العاثر منعه من تحقيقِ أي أرباح، بل خسر كلَّ ما جناه من الجمعية، وبسرعةٍ كبيرة؛ لذا نقل كلَّ ممتلكاته إلى ماركت ميلكاستر.»

قال سبارجو: «أظنك تستطيع إثباتَ كل هذا، صحيح؟»

قال مايرست: «كل كلمة وكل حرف! أمَّا في شأن ماركت ميلكاستر، فقد كان أبوك يا بريتون محقًّا فيما قاله عن سيطرة تشامبرلين على كل الأموال التي جناها — أعني أباك — من المصرف. لقد رتَّبَ لتمثيلية الوفاة والجنازة ليتمكَّن من الاختفاء، ودفَع لنا بسخاءٍ على مساعَدتنا له في ذلك كما قلتُ لك، وتم الأمر على أكمل وجه. وعندما انتهى الأمر، اختفى ابنُ أخيه، واختفى الطبيب، واختفى تشامبرلين. أمَّا أنا فقد كان حظِّي عاثرًا، وشُطِبتُ من نقابة المحامين نظرًا إلى خطأ مِهْني. فغيَّرتُ اسمي وأصبحتُ السيد مايرست،

وأخيرًا أصبحت ما أصبحت عليه الآن، ولم أعثر على تشامبرلين إلا منذ ثلاثةِ أعوام. وإليك قصةَ عثوري عليه: بعد أن أصبحتُ سكرتيرًا لشركة صناديق الإيداع الآمِنة، سكَنتُ في تمبل فوق سكن كاردلستون. وسرعان ما اكتشفتُ هُويتَه الحقيقية. فبدلًا من أن يهرب ذلك الثعلب العجوز — بالرغم من أنه كان شابًّا حينذاك — إلى خارج البلاد، أزال لحيتَه واستقرَّ في تمبل وانغمس في هوايتَين له: جمع الأغراض النادرة وجمع الطوابع. عاش هناك في هدوءٍ كلَّ هذه السنوات، ولم يعرفه أحدٌ أو يشتبه فيه. وبالفعل لم أجد سببًا يدفعهم لذلك، فقد عاش حياةً هادئة منعزلة مع مجموعةِ مقتنياته، وفي مدينته الصغيرة، وانشغل بهواياته ونزواته الصغيرة. لكني عرَفتُه!»

قال بريتون: «ولا شكَّ أنك تربَّحتَ من تعرُّفك على هُويته.»

رد مايرست: «بالتأكيد. لم يُزعِجه أن يدفع لي مبلغًا مناسبًا كلَّ ثلاثة أشهر لأُمسِك لساني، وأخذتُ منه هذه المبالغ بكل سرور، وبالطبع جمعتُ عنه الكثيرَ من المعلومات. لم يكن له إلا صديقٌ واحد ... السيد إيلفيك النائم في الداخل. وسأخبركم بشأنه الآن.»

قال بريتون في حزم: «يُمكِنك ذلك إذا كنتَ ستتحدَّث عنه باحترام.»

قال مايرست: «ليس لديَّ سببٌ لعدم احترامه. إيلفيك هو الرجل الذي كان من المفترَض أن يتزوَّج أمَّك. ولكن عندما جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، أخذك إيلفيك وربَّاك هنا حتى لا تعرف أبدًا بعار أبيك. لم يعرف إيلفيك إلا ليلةَ أمسِ أن كاردلستون هو تشامبرلين. فحتى عُتاةُ الإجرام لهم أصدقاء، وإيلفيك يُحِب تشامبرلين ويَهشُّ له. إنه ...»

التفت سبارجو فجأةً إلى مايرست.

وقال منفعلًا: «أتقول إن إيلفيك لم يَعلم حتى ليلة أمس؟! لماذا هرب إذن؟ مِمَّ كانا يهربان؟»

رد مايرست: «لا يزيد علمي بذلك عن علمك يا سبارجو. أقول لك إنَّ واحدًا منهما يعلم شيئًا لا أعلمه أنا. ظني أن إيلفيك أصابه الذعر منك، وذهب إلى كاردلستون، ثم اختفى الاثنان. وربما قتل كاردلستون ميتلاند حقًّا، لا أعلم. لكني سأخبرك بما أعرفه عن الجريمة نفسِها؛ لأني أعلم الكثيرَ عنها، مع أني لا أعرف قاتلَ ميتلاند كما قلتُ لك. أولًا: ألستَ تعلم أن ميتلاند كان يحمل معه أوراقًا ومقتنياتٍ ثمينة؟ كل هذه الأشياء في حوزتي. كل هذه المقتنيات محفوظة في مكان مغلق، ويُمكِنني تسليمك إياها يا بريتون عندما نعود إلى البلدة ويُقدَّم الدليلُ الضروري على أنك ابنُ ميتلاند.»

توقَّف مايرست ليُلاحِظ تأثيرَ كلامه، وضحك عندما رأى الذهولَ على وجهَي الشابَّين.

ثم واصَل: «وإليك المزيد، لديَّ كلُّ محتويات العُلْبة الجلدية التي أودَعَها ميتلاند لدينا، هذه المحتويات محفوظة أيضًا، ويُمكِنك الحصول عليها. تحفَّظتُ عليها بعد وقوع الجريمة بيوم. ولأسباب خاصة بي توجَّهتُ إلى مقر الشرطة في سكوتلاند يارد، كما يعلم سبارجو. فقد كنتُ ألعب لُعْبةً تتطلَّب بعضَ الإبداع.»

قال بريتون منفعلًا: «لُعْبة؟! يا إلهي! أي لعبة؟»

ردَّ مايرست: «لم أعلم أن ماربري هو ميتلاند ابن بلدة ماركت ميلكاستر إلا بعد أصبحَتْ كلُّ تلك الأشياء في حوزتي. وعندما علمتُ بذلك بدأتُ في ربط الأمور بعضها ببعض، والمُضيِّ في مَسْعاي الخاص مستقلًّا عن الجميع. قلتُ لك إن أوراق ومقتنيات ميتلاند كانت في حوزتي، غير أن شيئًا واحدًا كان مفقودًا؛ حُزمة الطوابع الأسترالية. وتبيَّنَ لي أنها بحوزة كاردلستون!»

الفصل السادس والثلاثون

البرقية الأخيرة

توقَّف مايرست ليأخذ رشفةً من كأسه، ولينظر إلى مُستمِعَيه المندهشَين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةُ النصر.

ثم كرر: «تبيَّن لي أنها بحوزة كاردلستون. وماذا عساي أستنتج من ذلك؟ بالطبع استنتجتُ أن ميتلاند كان في مسكن كاردلستون تلك الليلة. أوَلم يُعثَر عليه ميتًا أسفلَ دَرَج كاردلستون؟ ولكن مَن الذي عثر عليه؟ ليس الحارس، ولا الشرطة، ولا أنت يا سيد سبارجو بكل ألمعيتك هذه. الرجل الذي عثَر على ميتلاند ميتًا تلك الليلة هو أنا!»

بعدئذٍ ساد الصمت، وأسقَطَ سبارجو — الذي كان يُدوِّن ما يقول مايرست — قلمَه الرصاص فجأةً ودسَّ يدَيه في جيبَيه وانتصبَت جلسته وحدج بريتون بنظرة لم يفهمها. كانت نظرةَ رجلٍ يشهد انهيارَ أفكاره وتصوُّراته. لاحَظ مايرست ذلك، فضحك وبلغ الازدراءُ في نظرته منتهاه.

وقال مايرست: «هذا موجَّه لك يا سبارجو! لعلك فُوجِئتَ به، لكن لا بد أن يجعلك ذلك تُفكِّر. والآن ما رأيك؟ إن جاز لي السؤال.»

قال سبارجو: «رأيي أنك إمَّا أن تكون كذَّابًا أشِرًا، أو أنَّ اللغز زاد تعقيدًا عن ذي قبل.»

رد مايرست: «يُمكِنني الكذب عند الضرورة. لكني لستُ مضطرًّا الآن. ما أقوله لك هو الحقيقة العارية، وما من سببٍ يدعوني لإخفائها عنك. وكما قلت سابقًا: على الرغم من أنكما أيها الشابان المتبجِّحان قد قيَّدتماني هكذا، فلا يُمكِنكما النيلُ مني بأي شكل. لديَّ توكيل رسمي من العجوزَين النائمَين في الداخل، وهذا وحده يكفي لتبرير حيازتي لشيكَيْهما وأوراقهما المالية. أنا صاحبُ اليدِ العليا عليكما أيها الفَتَيان، مهما قلَّبتما الأمرَ

على أَوجُهِه. لذا أخبرتكما بالحقيقة، لا لشيءٍ إلا لأُسلي نفسي في هذا الانتظار. هذه هي الحقيقة العارية أيها الفَتَيان!»

قال بريتون في جفاء: «على ذِكر الحقيقة، أظنُّك ذكرتَ أنك كنتَ أولَ مَن عثر على أبي ميتًا، صحيح؟»

رد مايرست: «نعم. هذا صحيحٌ حسَبما أظن. سأخبركما بالأمر كله. قلتُ لكما إني أسكن فوق مسكن كاردلستون. تلك الليلة عدت إلى مسكني في وقتٍ متأخر جدًّا، كانت الساعة قد تخطَّت الواحدة بكثير. ولم يكن أحدٌ في الجوار، الحقيقة أنْ ليس ثَمةَ أحدٌ يتخذ في ذلك المبنى مسكنًا سِواي أنا وكاردلستون. لقد وجدتُ جثةَ رجلٍ مسجاةً في المدخل. فأشعلتُ عودَ ثقاب وعرَفت أنه مَن زارني بعد الظهر؛ جون ماربري. وعلى الرغم من تأخُّري في العودة إلى مسكني كنتُ متيقظًا تمامًا، وأنا سريع البديهة بوجهٍ عام. وحينها فكَّرت بسرعة فائقة. وكان أول ما خطر ببالي أن أُجرِّد جثةَ الرجل من كلِّ ما يحمله معه من أموال وأوراق ... وكل شيء. وهذه الأغراض محفوظةٌ الآن في أمان ولم يهتدِ إليها أحد. وفي اليوم التالي، استخدمتُ إمكانياتي بوصفي سكرتيرًا لشركة صناديق الإيداع، وأخذتُ الأغراض التي كانت في تلك العُلْبة. وعندئذٍ عرَفتُ مَن كان الرجل الميت في واقع الأمر. ثم بدأت العملَ على ذَرِّ الرماد في عيون الشرطة والصحف، ولا سيما عينَي الشاب سبارجو هذا. كان لديَّ هدف.»

سأل بريتون: «وما هو؟»

رد مايرست: «بعدما علمتُ كلَّ ما علمت، تكوَّنَ لديَّ اعتقادٌ راسخ أن قاتل ماربري — أو بالأحرى ميتلاند — لم يكن سوى كاردلستون أو إيلفيك. كان ذلك ما اقنعتُ به، وترسَّخ اقتناعي هذا عندما بدأتَ أنت يا سبارجو في كتابةِ الأخبار في صحيفتك ... لما وجد ميتلاند نفسَه بالقرب من كاردلستون بعد مغادَرة مسكن إيلمور تلك الليلة، توجَّه إلى مبنانا، ربما ليعرف أين يسكن كاردلستون. والتقى بكاردلستون صدفة، أو التقى بكاردلستون وإيلفيك معًا، وتعرَّف كلٌّ منهما على الآخَر. ومن المرجَّح أن يكون ميتلاند قد هدَّد حينها بفضح أمر كاردلستون — أو بالأحرى تشامبرلين — ولا سبيلَ لأحدٍ ليعرف ما حدث عندئذٍ، لكن فرضيتي كانت أن تشامبرلين قتلَه. فعلى أيِّ حال، عُثِر على ميتلاند مقتولًا على عتبة مسكن تشامبرلين. وتمكَّنتُ بعد أيام قليلة من أن أتأكَّد — إرضاءً لفضولي — أن ميتلاند قد زار مسكن تشامبرلين، فقد دخلتُ مسكن تشامبرلين في غيابه، ووجدتُ في مكتبه الطوابعَ الأسترالية النادرة التي ذكرها كريديه في استجوابه. كان هذا دليلًا لا لَبْسَ فيه.»

نظر سبارجو إلى بريتون. فقد كانا يعلمان ما لا يعلمه مايرست، وهو أن الطوابع التي يتحدَّث عنها تقبع الآن في جيب قميص سبارجو منذ أن وجدها وسط الفوضى في غرفة تشامبرلين.

وبعد فترةٍ صمتٍ سأل بريتون: «لِمَ لَم تتَّهم كاردلستون — أعني تشامبرلين — بالقتل؟»

رد مايرست مؤكدًا: «بل فعلتُ مراتٍ عديدة، واتهمتُ إيلفيك كذلك. لكن ليس في بداية الأمر ... فقد أخفيتُ عن تشامبرلين اشتباهي به مدةً. كنتُ ألعب لُعبتي الخاصة. لكني أخبرته في نهاية الأمر، منذ أيام قليلة فقط. اتَّهمتُ كِلَيْهما. وهكذا أصبحَتْ لديَّ اليدُ العليا عليهما. وبدأ الخوف يتملَّك منهما، بحلول ذلك الوقت كان إيلفيك قد عرَف كلَّ شيء عن ماضي كاردلستون الذي كان يحملُ فيه اسم تشامبرلين. وكما قلتُ لكما، إيلفيك يُحب كاردلستون. وهذا غريب، لكنه صحيح. لذا حاوَل إيلفيك التستُّرَ عليه.»

سأل بريتون: «وماذا كان ردُّهما عندما اتهمتَهما؟ لنتجنَّب الخروجَ عن لُب الموضوع، لا تهتم بمشاعر كلٍّ منهما تجاهَ الآخر.»

قال مايرست: «حسنًا، لكن هذه المشاعر أوثقُ صلةً باللغز مما تعتقد يا صديقي الشاب. أمَّا ردهما الذي سألتَني عنه فقد كان الإنكار التام. أقسم كاردلستون لي بأغلظِ الأيمان إنه لم يكن ضالعًا في مقتل ميتلاند البتة. وكذلك فعل إيلفيك. لكنهما يعلمان شيئًا ما عن الجريمة. إن لم يتمكَّن هذان العجوزان من أن يُعطِياك الخبرَ اليقين عمَّن ضرب ميتلاند وصرعه، فلا شكَّ لديَّ أن لديهما فكرةً واضحة عمَّن فعلها! إنهما ...»

قطعَت كلامَ مايرست صرخةٌ حادة مفاجئة من الغرفة الداخلية. فهبَّ بريتون وسبارجو واقفَين على أقدامهما وتوجَّها نحو باب الغرفة. لكن إيلفيك خرج إليهما شاحبًا مرتعشًا قبل أن يبلغا الباب.

وقال إليفيك منفعلًا وبنبرة مهتزة: «لقد مات! مات صديقي القديم! كنتُ نائمًا، ونهضتُ فجأةً ونظرتُ إليه. وكان ...»

أجلَسَ سبارجو العجوزَ على كرسيٍّ وقدَّم له بعض الويسكي، ودخل بريتون إلى الغرفة الداخلية بسرعة، ثم خرج يهزُّ رأسَه.

وقال: «لقد مات. من الواضح أنه مات في نومه.»

قال مايرست في هدوء: «إذن فقد مات السرُّ معه. ولن نعرف أبدًا ما إذا كان قد قتل جون ميتلاند بالفعل أم لا. قُضِي الأمر!»

اعتدل إيلفيك في كرسيِّه فجأةً ودفع سبارجو بعيدًا عنه فجأة.

وصاح في غضب ملوِّحًا بقبضته نحو مايرست: «لم يقتل جون ميتلاند. كلُّ مَن يقول إنه قتل جون ميتلاند يكذب. لقد كان بريئًا من قتله مثلي. لقد عذَّبتموه بهذه التهمة ونكَّلتم به حتى الموت، كما تفعلون بي الآن. أقول لكم إنه لم يكن ضالعًا في قتل جون ميتلاند البتة!»

ضحك مايرست.

وقال: «مَن قتله إذن؟»

التفت إليه بريتون في غضب وقال: «أغلِقْ فمك!» وجلس إلى جانب إيلفيك ووضع يدَه على ذراعه في حنو.

وقال: «يا وَصِيِّي، لِم لا تُخبِرني بما تعرف؟ لا تخشَ ذلك الرجل، فلا خطرَ منه. أخبِرني وأخبِر سبارجو بما تعرف عن هذا الأمر. وتذكَّر أنه لم يَعُد هناك شيء يُمكِن أن يضرَّ كاردلستون، أو تشامبرلين، أو أيًّا كان اسمه، الآن.»

جلس إيلفيك لحظةً يهز رأسَه. وشرع سبارجو يُقدِّم له مشروبًا آخر، ثم رفع رأسه ونظر إلى الشابَّين في شيء من الاستعطاف.

وقال: «لقد بلغ مني التعبُ مبلغَه. وعانَيت كثيرًا في الآونة الأخيرة، وعلمتُ أشياءَ لم أكن أعلمها. ربما كان عليَّ الإفصاحُ قبل الآن، لكنني كنتُ خائفًا عليه. فقد كان كاردلستون صديقًا مخلصًا، بصرف النظر عما كان الرجل غيرَ ذلك، كان صديقًا مخلصًا حقًّا. ولا أعرف شيئًا سوى ما حدث تلك الليلة.»

قال بريتون: «أخبرنا بما حدث تلك الليلة.»

قال إيلفيك: «خرجتُ تلك الليلة لألعب بأوراق اللعب مع كاردلستون كعادتي. كانت الساعة العاشرة تقريبًا. وفي حدودِ الحاديةَ عشرةَ جاءت جين بيليس إلى كاردلستون، وكانت قبل ذلك قد قصدَتْ مسكني بحثًا عني، أرادتْ أن تلتقيَ بي تحديدًا؛ لذا توجَّهَت إلى مسكن كاردلستون حيث توقَّعَت أن أكون. وحضَّرَ لها كاردلستون كأسًا من النبيذ وبسكوتًا، وجلسَت، وأخذنا نتحدَّث جميعًا. وبعد ذلك عندما كانت الساعة الثانية عشرة إلا الربع تقريبًا، طُرِق باب كاردلستون، وكان الباب الخارجيُّ مفتوحًا، وبالطبع كان بإمكانِ أيِّ شخص في الخارج أن يرى الأضواءَ التي في الداخل. خرج كاردلستون إلى الباب، وسمعنا صوتَ رجلٍ يسأل عنه بالاسم، ثم أضاف الصوت أن تاجرَ الطوابع كريديه

نصَحَه بزيارة السيد كاردلستون ليعرضَ عليه بعضَ الطوابع الأسترالية النادرة، وأنه لما رأى الضوءَ يَنفذُ من تحت بابه طرق الباب. دعاه كاردلستون للدخول فدخل. وكان ذلك الرجل الذي رأيناه اليومَ التاليَ في مشرحة الموتى. أُقسِم بشرفي إننا لم نعرفه لا تلك الليلة، ولا في اليوم التالي!»

سأل بريتون: «وماذا حدث عندما دخل؟»

قال إيلفيك: «طلب منه كاردلستون الجلوس، وقدَّم له مشروبًا. قال الرجل إن كريديه أعطاه عُنوان كاردلستون، وإنه كان بصحبةِ صديقٍ في مسكنٍ في فاونتن كورت، وبينما كان يمر أمام مبنانا قرَّر أن يُلقِي نظرةً ليتأكَّد من مكانِ سكن كاردلستون، ولما لاحَظَ الضوءَ تجرَّأ على طرق الباب. وبدأ كاردلستون في فحص الطوابع. ودَّعَتْهما جين بيليس، وغادَرتُ أنا وهي وتركنا الرجلَين معًا.»

قال بريتون: «لم يتعرَّف عليه أحد؟»

رد إيلفيك: «لم يتعرَّف عليه أحد. تذكَّرْ أني لم أرَ ميتلاند في حياتي إلا مرة أو مرتَين. وبالتأكيد لم يتعرَّف عليه الآخَرون. أوْ لم أعرف أن أحدًا تعرَّف عليه.»

تدخَّل سبارجو للمرة الأولى قائلًا: «أخبرنا بما فعلتَ أنت والآنسة بيليس.»

قال إيلفيك: «عندما وصلنا إلى أسفل الدَّرَج قالت جين بيليس فجأةً إنها نسيتْ شيئًا في صالة مسكن كاردلستون. ونظرًا إلى أنها كانت تقصد شارع فليت، وكنتُ أنا أقصد مسكني في زقاق ميدل تمبل تبادَلْنا التحية. وصعدت هي الدَّرَج عائدةً. في حين توجَّهتُ أنا إلى مسكني. أقسم لكما بشرفي وبحياتي إن هذا كل ما أعرف!»

هبَّ سبارجو واقفًا على قدمَيْه فجأة. وأخذ قبعتَه المبتلَّة المهترئة التي كان قد خلعها عندما دخل الكوخ.

وقال فيما يُشبه الصياح: «هذا يكفي! لقد فهمتُ الأمرَ أخيرًا!» وخاطَب بريتون: «بريتون! أين أقربُ مكتبٍ للتلغراف من هنا؟ هوز؟ على امتداد هذا الوادي مباشَرةً؟ سأذهب إلى هناك! اعتنِ بكل شيء حتى أعود، أو الحقْ بي إلى هناك عندما تأتي الشرطة. سأستقلُّ أولَ قطار إلى البلدة على أيِّ حالٍ بعد أن أُرسِلَ برقية.»

قال بريتون: «ولكن، ماذا تريد أن تفعل يا سبارجو؟ توقَّف! ماذا أنت فاعل؟»

لكن سبارجو كان قد أغلق الباب وانطلق في الوادي لا يَلْوي على شيء. وبعد ساعة إلا الربع أفزَعَ عاملَ التلغراف المستكين حين دخل عليه مكتبَ التلغراف الريفي الهادئ

متقطِّعَ الأنفاس متَّسِخَ الهيئة، وخطف استمارةَ برقيةٍ وبدأ يكتب بخطٍّ مرتعش رسالةً جاء فيها:

إلى راثبري، نيو سكوتلاند يارد، لندن.
اعتقِلْ جين بيليس فورًا بتهمة قتل جون ميتلاند.
سأعود إلى البلدة فورًا ومعي الأدلةُ الكاملة.

فرانك سبارجو

ثم جلس سبارجو على مقعد في المكتب، وبينما بدأ عامل التلغراف في إرسال البرقية، أخذ سبارجو يستجمع أنفاسَه في إنهاكٍ شديد من انطلاقه المحموم بين نباتات الخلَنْج. وبعدما أُرسِلت البرقية انطلق مجدَّدًا يقصد المحطة.

وبعد عدة أيام، شهِد سبارجو خروجَ ستيفن إيلمور من قفصِ الاتهام بريئًا من التُّهمة التي وُجِّهت إليه، وبريئًا من التهمة التي سُجِن بها منذ عشرين عامًا، وجلس في ركنٍ هادئ من المحكمة يُمسِك بيد جيسي إيلمور التي أدرك أنها كانت تقول كلامًا لم يكَد ينتبهُ لشيءٍ منه. ولم يكن بالقرب منهما أحد، فتحدَّثت الفتاةُ بحرية ودفء.

قالت: «لكنك ستأتي … ستأتي اليوم … لنُجزِلَ لك ما تستحقُّ من شكر. ستأتي، أليس كذلك؟»

سمح سبارجو لنفسه بالإبقاء على يدها. ونظر إلى عينَي جيسي إيلمور مباشَرةً.

وقال: «لا أريد الشكر. لقد حالَفني الحظ. وإذا أتيتُ اليوم، فلن آتيَ إلا لرؤيتك!»

نظرت جيسي إيلمور إلى اليدَين المتشابكتَين.

وهمست: «أعتقد أن هذا ما كنتُ أعنيه حقًّا.»


هنداوي